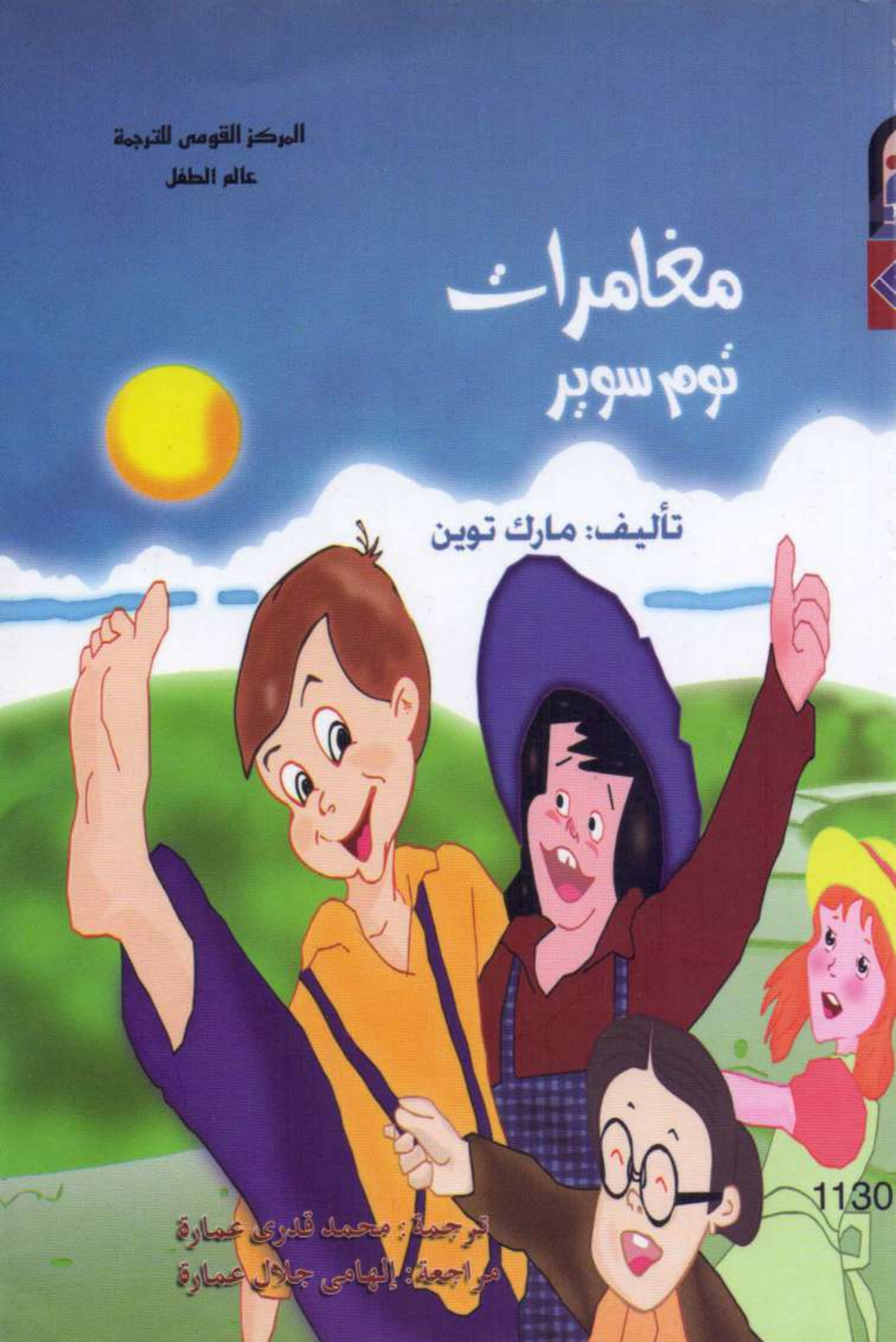

المركز القومى للترجمة
عالم الطفل
مغامرات
توم سوير
تأليف: مارك توين
1130
ترجمة : محمد قدرى عمارة
مراجعة: إلهامى جلال عمارة



"مغامرات توم سوير" من أكثر القصص التى كتبت للأطفال شيوعًا فى الأدب الأمريكى، وقد طُبِعَتْ مئات المرات و تُرْجِمَتْ إلى كل اللغات تقريبًا نظرًا لما تحتويه من مغامرات مشوِّقة تأخذ بلبِّ الأطفال وتحفِّزهم على الاستمرار فى قراءتها حتى النهاية لمعرفة المصير الذى ينتظر "توم سوير" البطل الصغير.

يقول مارك توين إن معظم المغامرات المسجَّلة فى هذا الكتاب حدثت له بالفعل، ومثل هذه المغامرات كانت شائعة بين الأطفال فى الغرب الأمريكى خلال الفترة الخاصة بهذه القصة. ويضيف المؤلف أنه على الرغم من أن المقصود من هذا الكتاب هو تسلية الصبية والبنات، فإنه يأمل أن يقرأه الكبار أيضًا ليتذكَّروا كيف كانوا هم أنفسهم وهم صغار، وما قاموا به من أفعال غريبة.



مغامرات توم سوير

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة عالم الطفل
محرر السلسلة : محمد الشحات
- العدد : ١١٣٠
- مغامرات توم سوير
- مارك توين
- محمد قدري عمارة
- إلهامي جلال عمارة
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

The Adventures of Tom Sawyer

by : Mark Twain

حقوق الترجمة والنشر محفوظة للمركز القومي للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

مغامرات توم سوير

تاليف : مارك توين

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

تورين ، مارك

مغامرات توم سوير / تأليف : مارك تورين ، ترجمة : محمد قدرى عمارة ، مراجعة : إلهامى جلال عمارة - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧

٣٣٦ ص ؛ ٢٠ سم (المشروع القومى للترجمة ؛ العدد ١١٣٠)

١ - القصص الإنجليزية .

٢ - قصص الأطفال .

(أ) عمارة ، محمد قدرى (مترجم)

(ب) عمارة ، إلهامى جلال (مراجع) ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٠٣٦٩

الترقيم الدولى (6 - 331 - 437 - 977)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

المحتويات

الفصل الأول

توم يلعب و يتشاجر و يختبئ

(١)

صاحت السيدة العجوز بصوت عالٍ:

– توم

تردَّد صدى صوتها فى أرجاء الحجرة.. ولم تأتها إجابة، صاحت ثانية:

– توم

لم تأتها إجابة أيضاً! تمتمت فى صوت خفيض:

– " ما الذى جرى لذلك الصبى، إننى أتعجب؟ صاحت مرة ثالثة:
أنت يا توم!

لم تسمع إجابة أيضاً..

سحبت نظَّارتها لأسفل ونظرت فى أرجاء الحجرة، ثم أعادتها لمكانها ونظرت مرة أخرى باحثة عن الصبى الصغير. كانت نظَّارتها موضع فخرها، لأنها صنعت من أجل الأناقة لا لمجرد تحسين الرؤية.

بدت العجوز فى غاية الحيرة عدة ثوان، ثم قالت بصوت جهورى وكأنها تريد أن تسمع أثاث البيت:

- حسن، لو أمسكت بك فسوف ....؟

لم تكمل جملتها، لأنها راحت تنحنى لأسفل وتخبط بالمكنسة تحت السرير مما أجهدها وجعلها فى حاجة لالتقاط أنفاسها لكى تعاود البحث بالمكنسة، لكنها لم تحظَ بشىء سوى القطة، فتمتمت فى غيظ:

- لم أفلح مطلقًا فى ضرب ذلك الصبى.

قامت واتجهت صوب الباب المفتوح، ووقفت تنظر خارجه إلى شجيرات الطماطم وحشائش الحديقة، فلم تجد أى أثر لتوم. رفعت عقيرتها وصرخت:

- أين أنت يا توم؟!

كانت هناك جلبة خفيفة خلفها فالتفتت فى اللحظة المناسبة لتمسك بصبى نحيل من ملابسه وتمنعه من الهرب.

- ها أنت ذا، كان يجب أن أفكر فى خزانة الطعام، ما الذى كنت تفعله بداخلها؟

- لا شىء.

- لا شيء! انظر إلى يديك وانظر إلى فمك. ما هذا الشيء العالق بفمك؟

- لا أعرف يا خالتي؟

- إذن، أنا أعرف.. إنها مربًّى. لقد قلت لك مائة مرة إذا لم تتوقف عن التهام المربًّى فسوف أسلخك، أعطني تلك العصا.

قذف الصبي بالعصا ناحيتها بقوة.. ثم صاح محذِّرًا إياها:

- يا إلهي! انظري خلفك يا خالتي.

استدارت السيدة العجوز فوجدت العصا قادمة ناحيتها فانحنت بسرعة لتفادي الخطر، وفي لحظة انطلق الصبي إلى السياج وتسلَّقه واختفى خلفه.

وقفت خالته بولي تنظر إليه بدهشة، ثم انفجرت ضاحكة وهي تقول:

- يا له من صبي يستحق الشنق، إنني لا أتعلم شيئا أبدا! إنه مارس معي هذه الألاعيب من قبل مراتٍ تكفي لكي لا أبحث عنه بهذه الكيفية. لكننا نحن الكبار أشد حماقة. لا يمكنك تعليم كلبٍ مسنٍّ حيلاً جديدة، كما يقول المثل. ولكن يا للسماء! هو لا يقوم بالاعيبه بنفس الطريقة في كل مرة، فلا يكاد يمر يومان إلا ويأتي بحيلة جديدة لم يفعلها من قبل، هو يودّ أن يعرف إلى أي مدى يستطيع مراوغتي قبل أن أستشيط غيظا ، ويعرف أنه إذا استطاع تهدئتي أو أن يجعلني أضحك فإن الأمور ستنفرج ولن

أضربه. أنا لا أقوم بواجبى تجاه ذلك الصبى وهذه هى الحقيقة، والله يعلم ذلك. إننى أرتكب ذنوبا وأعانى لأجلنا نحن الاثنين. هو ملىء بالعيوب ولكنه ابن شقيقتى المتوفاة، هذا المسكين، ولا يطاوعنى قلبى على جلده. كل مرة أعفو فيها عنه يؤلمنى ضميرى وكل مرة أضربه فيها ينفطر قلبى. على كل حال فالرجل الذى يولد من امرأةٍ تموت عمره قصير وملىء بالصعاب، هذا ما تقوله النصوص، وأعتقد أن الأمر كذلك. هو سيلعب الهوكى هذا المساء ولكنى مضطرة لجعله يعمل غدا لكى أعاقبه. من الصعب جدا جعله يعمل فى أيام السبت عندما يكون كل الصبية فى عطلة، ولكنه يكره العمل أكثر من كراهيته لأى شىء آخر، ومن واجبى القيام ببعض الأمور تجاهه وإلا سأكون السبب فى هلاكه.

(٢)

لعب توم الهوكى واستمتع بوقته أيْما استمتاع، ثم عاد إلى البيت لكى يساعد صديقه جيم، الصبى الأسود، فى قطع الخشب وتخزينه لليوم التالى لإشعال الوقود وإعداد العشاء، وكان توم قد حضر فى موعده لكى يقصَّ على جيم بعضًا من مغامراته بينما كان جيم يقوم بمعظم العمل، وكان سيدنى أخوه الأصغر غير الشقيق قد انتهى من حصته من العمل، وهى التقاط قطع الخشب ورصّها. وكان سيدنى صبيًا هادئا، ليس له مغامرات، ولا يجيد الحيل.

وبينما كان توم يتناول عشاءه ويسرق السكر كلما سنحت الفرصة، سألته خالته بولى أسئلة ماكرة تتميز بالدهاء وشدة العمق، لأنها أرادت الإيقاع به لكى يعترف بأمور تسىء له. ورغم أنها كانت نقية القلب فإنها كانت تزهو بأنها تمتلك موهبة الدبلوماسية الغامضة الذكية، كان يجب أن تصوغ عباراتها شديدة الوضوح بدهاء شديد، قالت له:

– توم، كان الجو حاراً اليوم بالمدرسة أليس كذلك؟

– أجل يا سيدتى.

– كان شديد الحرارة أيضا، أليس كذلك؟

– أجل يا سيدتى.

– ألم ترغب فى الذهاب للسباحة يا توم؟

انتابته رجفة من الخوف ورجفة من الشك غير المريح. نظر فى وجه خالته بولى ليستنتج شيئا من وراء ملامحها، ولكنه لم يخرج بشىء فقال لها:

– لا ياسيدتى، لم يكن الجو حاراً بدرجة شديدة.

مدت المرأة العجوز يدها وتحسست قميص توم قائلة:

– ولكنك لا تشعر بالحرارة الآن، رغم ذلك.

وسَرَّها أن اكتشفت أن القميص كان جافًا دون أن يدرك توم ما الذى كان يدور بخلدها. ولكن مع ذلك خمَّن توم ما الذى تقصده، فأقدم على الحركة التالية قبلها.

– قام بعض الصبية برش الماء على رءوسنا، إن رأسى لا تزال مبللة، أترين؟

اغتاظت الخالة بولى لاعتقادها بأنها أغفلت هذا الجزء من العمل فلم تتحسس رأسه وفقدت بذلك إحدى الحيل. ولكن طرأت لها فكرة جديدة، فقالت:

– توم، لستَ مضطراً لخلع ياقة القميص لكى تصبَّ الماء على رأسك، أليس كذلك. قم فقط بفكّ أزرار السترة.

اختفت الحيرة من وجه توم وقام بفتح السترة، فكانت ياقة القميص مثبتة به.

– لا عليك، سأسايرك حتى النهاية ، أنا متأكدة من أنك ذهبت للعب الهوكى وقمت بالسباحة، ولكنى أسامحك يا توم، وأعتقد أنك تبدو مثل القط شائط الشعر كما يقول المثل، ومع ذلك فأنت تبدو أفضل هذه المرة.

(٣)

كانت تشعر بخيبة الأمل لإخفاقها فى الإيقاع به، وإن سرَّها بعض الشىء أن توم بدأ يسلك مسلكا مطيعًا للمرة الأولى.

ولكن سيدنى قال:

– لقد قمت بتثبيت ياقة قميصه بخيط أبيض ولكنها الآن مثبتة بخيط أسود، ثم صاح مؤكداً:

– لقد قمت بخياطتها باللون الأبيض يا توم!

لم ينتظر توم لما سيجىء، وبينما كان متجهاً إلى الباب قال:

- سيدني، سوف أجعلك تدفع ثمن ذلك!

فى مكان آمن بعيدا عن العيون، تحسس توم الإبرتين الكبيرتين اللتين كانتا مشبوكتين في عروة سترته وبكل منهما خيط، واحدة بخيط أبيض والأخرى بخيط أسود، فوجدهما فى مكانهما، فقال متمتماً بغيظ:

- لم تكن خالتى لتعرف لو لم يخبرها سيدني. هى أحيانا ما تحيكها بالخيط الأسود وأحيانا بالخيط الأبيض، أتعشَّم أن تقتصر على أحد اللونين، فأنا لا أستطيع معرفة بأى اللونين خاطت الياقة، ولكنى سأضرب سيدني لذلك، وسوف أجعله يدفع الثمن.

لم يكن توم هو الصبى المثالى للقرية، فهو يعرف الصبى المثالى معرفة وثيقة، وكان يكرهه بشدة.

وخلال دقيقتين أو أقل كان قد نسى كل متاعبه، ليس لأن متاعبه كانت أقل ثقلا ومرارة من متاعب الرجال، وإنما لأن ثمة اهتمامات أخرى جديدة وقوية قد أخرجتها من رأسه تماما، كما ينسى الرجال متاعبهم عندما تتوفَّر الإثارة التى تمنحها لهم مغامرات جديدة. كان الاهتمام الجديد هو طريقة للصفير تعلَّمها من صبى أسود، وكان يعانى من عدم القدرة على إتقانها. كان الصفير يشبه صفير الطيور، يحدث عند ملامسة اللسان لسقف الفم في لحظات سريعة، وقد أثمرت المثابرة والمحاولة المستمرة على إكسابه المهارة فى الصفير، وعبر الشارع وهو يصفِّر اللحن الجديد وروحه مليئة بالرضا. أحس بالسرور الذى يحسه الفلكى عندما يكتشف كوكبًا جديداً، كان سروره عميقا وقويا وصافيا.

(٤)

ذات أمسية من أمسيات الصيف الطويلة، ولم تكن الدنيا قد أظلمت بعد، جرَّب توم صفيره فظهر شخص غريب أمامه، كان شخصا أضخم منه جسماً، وكان أي وافد جديد للقرية من أي عمر يمثِّل فضولا عظيماً للقرية البائسة "سان بترسبرج" . كان الوافد صبيا مهندمًا في ملبسه، أنيقًا في هندامه، مما كان يعد أمراً مثيراً للدهشة. كانت قلنسوته أنيقة وسترته الزرقاء جديدة وراقية وكذلك سرواله. كان يلبس حذاءً لامعًا وربطة عنق زاهية أيضا. كان مظهره مظهر فتى من المدينة. وكلما زادت حملقة توم في تلك الأناقة الرائعة زاد إحساسه برثَّة ملابسه. لم ينطق أي منهما بشيء، ولكن كانا إذا تحرك أحدهما تحرك الآخر، وإن ظلا ينظران لبعضهما وجهًا لوجه وعينًا لعين طوال الوقت، وأخيراً قال توم:

– أستطيع أن أضربك..

– أودّ أن تحاول ذلك..

– أستطيع ذلك..

– لا، لا تستطيع..

– نعم، أستطيع..

– لا، لا تستطيع..

– أستطيع..

- لا تستطيع..

ساد بينهما سكون غير مريح قطعه توم قائلا:

- ما اسمك؟

- ليس لك شأن بذلك..

- يمكنني أن أجعل ذلك من شأني..

- ولماذا لا تفعل؟..

- لو نطقت بأكثر من ذلك سأفعل..

- أكثر - أكثر - أكثر ها أنا قلتها..

- تعتقد بأنك شديد الذكاء أليس كذلك؟ أستطيع ضربك بيد واحدة والأخرى مقيدة خلفي لو أردت.

- ولماذا لا تفعل؟ تقول إنك تستطيع..

- سأفعل لو استمررتَ في غبائك معي..

- أرني، لقد رأيت صبية كثيرين مثلك!.

- ما هذا الذكاء! أنت تعتقد في نفسك الكثير، أليس كذلك؟ يا لها من قبُّعة!

- يمكنك ابتلاع تلك القبّعة إذا لم تكن تعجبك وأتحدُّاك أن تسقطها من فوق رأسي.. والويل لمن يحاول ذلك..

- أنت كاذب..

- وأنت الآخر كاذب..

- أنت كاذب ولست نداً للتحدى..

- إذن، عليك بالرحيل بعيدا..

- لو زادت سخافاتك عن ذلك فسوف أحطم رأسك بقطعة من الطوب..

- لا تستطيع أن تفعل ذلك..

- حسن، سأفعل..

- لماذا لا تفعل ذلك إذن؟ لماذا أنت مستمر في قول إنك ستفعل ولا تفعل؟ لابد أنك خائف.

- لست خائفًا..

- أنت كذلك

- أنا لست خائفًا منك..

- بل أنت خائف..

ساد بينهما الصمت ثانية وراح كل منهما يلف حول الآخر مرة أخرى حتى أصبحا متلاصقين كتفًا بكتف، ثم قال توم:

- ابتعد عن هذا المكان..

- ابتعد أنت..

- لن أبتعد..

- وأنا أيضًا لن أتحرك..

وقف الاثنان وقد جعل كل منهما قدمه على قطعة من الحجارة، وكل منهما يدفع الآخر بقوة وعزم وينظران لبعضهما بكراهية. ولكن لم تكن الغلبة لأى منهما، وبعد أن كان التوتر قد بلغ ذروته وجعل كلا منهما ساخن الدم أحمر الوجه، استراح كل منهما وزال توتره. نظر توم إليه وقال بحذر:

- أنت جبان وكلب صغير. سأقول لأخى الأكبر عمًا فعلته وسأجعله يذيقك الأمرّين بإصبعه الصغير. تأكّد بأننى سأجعله يفعل ذلك.

- لا يعنينى شيء من أمر أخيك الأكبر! أنا أيضا لى أخ أضخم منه، والأكثر من ذلك أنه يستطيع أن يقذف بأخيك من فوق السياج. (كان كل منهما يدّعى أن له أخًا وهميًا).

- هذا كذب..

- حين تقول ذلك لا يجعلها كذبة..

رسم توم خطًا على التراب بإصبع قدمه الكبير وقال بغيظ:

- أتحداك أن تتجاوز هذا الخط وإلا ضربتك إلى الحد الذى لا تستطيع معه الوقوف..

قام الصبى بتجاوز الخط فى الحال قائلا:

- الآن أرنى..

- قد أفعل ذلك مقابل قرشين..

أخرج الصبيى الوافد قرشين من جيبه ومدّ بهما يده بتحدٍ. ضرب توم يده فسقط القرشان على الأرض. وفى لحظة، كان الصبيان يتقلبان

ويتصارعان على الأرض المليئة بالقانورات وقد أمسك كل منهما بالآخر وراح يمزق شعره وملابسه ويلكم أنفه إلى أن تمرَّغ جسداهما بالتراب والوحل، وانتهت المعركة بانتصار توم الذى جلس فوق الصبى وراح يضربه بقبضتيه ضربًا موجعًا وهو يقول له مزهوًا:

- أيكفيك ذلك؟ قالها توم للصبى الذى كان يصارع لتخليص نفسه ويبكى من الحنق والغضب.

- أيكفيك ذلك؟ قالها ثانية وهو مستمر فى ضربه بقوة، وأخيرًا قال الصبى الغريب "كفى" فتركه توم قائلا:

- أعتقد أنك تعرف الآن من تشاكس.

(٥)

نهض الصبى وراح يزيل التراب عن ثيابه وهو يبكى بحرقة، ومضى لحاله وهو ينظر خلفه ويهزّ رأسه مهددًا توم بما سوف يفعله به فى المرة القادمة التى سوف يمسك به فيها، فضحك توم وألقى عليه نظرة استهزاء وسخرية، وما إن أدار له توم ظهره حتى التقط الصبى حجرًا، وقذفه ناحيته فأصاب توم فى كتفه وأوجعه ثم أطلق ساقيه للريح وراح يجرى بكل قوته كأنه غزال شارد. طارد توم الصبى حتى منزله وعرف مكان بيته وظل واقفًا أمام البوابة لبعض الوقت منتظرًا أن يخرج ثانية، لكن الصبى كان يقف خلف زجاج النافذة ينظر إليه ويغيظه ثم دخل واختفى.

ظهرت بعدها والدة الصبي وصاحت في توم بغضب ووصفته بالخِسَّة والشر والسوقية وأمرته بالرحيل، فمضى توم لحاله وهو يتوعَّد الصبي بأنه سيضربه حين يلقاه ثانية.

وصل توم إلى البيت متأخرا وتسلق السياج بحذر ليدلف من النافذة للداخل وما إن دخل حتى وجد خالته في انتظاره، وما إن رأته على الحالة المزرية التي هو عليها حتى صاحت في وجهه متوعِّدة إياه بأن تجعل من يوم راحته يوم حبس مع الأشغال الشاقة.

الفصل الثانى

النَّقَّاش البارع

(١)

جاء صباح السبت بنهار صيفي منعش وصحو ومفعم بالحياة، كانت وجوه الناس تضحك وقلوبهم تغنّى، وإذا كان القلب فرحا غنَّى الناس وخرجت الأغنيات من الشفاه. كان كل وجه تملأه البهجة وكل خطوة تتراقص مع نغمات الربيع. كانت أشجار الياسمين مزهرة ويفوح أريج زهورها في الجو. كان تل كارديف المتاخم للقرية والمشرف عليها مُخْضَرًا بالنباتات وعلى مسافة كافية تجعل الناظر إليه عن بعد يراه أنيقًا ورائعًا.

ظهر توم فى الطريق الجانبي وهو يحمل جردلا مليئًا بالطلاء الأبيض، وفرشاة ذات يد طويلة. تفحص السياج فغادره السرور وسكنت روحه الكآبة. فالسياج يمتد ثلاثين مترا ويرتفع لثلاثة أمتار. بدت له الحياة خاوية والوجود كله عبئا ثقيلا، غمس الفرشاة فى البوية بتثاقل

ومرَّ بها على أعلى السور وكرر العمل مرات ومرات حتى نال منه التعب، كانت المساحة التى قام بدهانها من السياج صغيرة مقارنة بما تبقى، فأصابه الإحباط وجلس على صندوق يندب حظه البائس. جاء جيم عبر البوابة حاملا جردلا وهو يصفّر ويغنّى. فى السابق، كان إحضار الماء من طلمبة القرية عملا كريها جدا بالنسبة لتوم. الآن ليس سيئا بالمرة! تذكر أن هناك مجموعة من الصبية عند الطلمبة.. كانوا خليطًا من البيض والسود، وكان العديد من البنات أيضا هناك وفى انتظار دورهن. كان الجميع يتبادلون الأشياء التي يلعبون بها ويضحكون ويصخبون. تذكر أيضًا أن الطلمبة رغم أنها تبعد حوالى مائة متر، فإن جيم لا يعود بالجردل فارغًا بعد ملئه قبل ساعة، ودائمًا يذهب من يستدعيه.. فقال لجيم:

– سأقوم يا جيم بجلب الماء إذا قمت بطلاء جزء من السياج.

– لا أستطيع يا توم، فالسيدة الكبيرة قالت لى إننى يجب أن أعود بالماء وألا أضيع الوقت مع أحد. وقالت أيضا إنها تتوقع أن تسألنى بأن أقوم ببعض الطلاء، وإننى يجب أن أنتبه لعملى فقط. قالت أيضا إنها ستأتى لتراك أثناء عملية الطلاء.

– لا تبالِ بما قالته يا جيم، إنها دائما ما تقول ذلك. أعطنى الجردل ولن أغيب سوى دقيقة وهى لن تعرف بذلك.

– لا يا توم، السيدة الكبيرة ستحطم رأسى لو علمت بذلك، وهى بالتأكيد ستفعل.

– هى لا تضرب بقسوة، وقد تخبطك على رأسك بإصبعها وهذا ليس بشىء. هى تتكلم بعنف ولكن الكلام لا يؤلم، على أى حال هذا لا يؤثر. اسمع يا جيم، سأعطيك بلية من الرخام، بل سأعطيك بلية بيضاء.

بدأ جيم يفكر فى التراجع وقال توم وعيناه تلمعان ليغريه:

– إنها بلية بيضاء يا جيم..

– نعم، إنها بلية رخامية رائعة ولكنى شديد الخوف يا توم من السيدة الكبيرة..

– استطرد توم قائلا بحماس، سأجعلك ترى إصبع قدمى المجروح.

كان الإغراء عظيما بالنسبة لجيم، فوضع الجردل وأخذ البلية البيضاء وانحنى ليشاهد إصبع قدم توم المجروح باهتمام شديد وقد نزعت الضمادة من فوقه، وفى لحظات كان جيم يجرى عبر الشارع والجردل فى يده، بينما أخذ توم فى إكمال الطلاء بقوة، والخالة بولى تعود من الحقل وهى تمسك بخفيها فى يدها وفى عينيها لمعة الانتصار.

(٢)

لم يقوَ توم على الاستمرار وبدأ يفكر فى اللعب الذى كان يخطط له لهذا اليوم فتضاعف حزنه، كان يفكر كيف يمرح مع الصبية الذين كانوا يسخرون منه لأنه يعمل، وكان مجرد التفكير فى ذلك يحرقه كالنار.

أخرج ثروته من قطع اللعب وبعضًا من حبَّات البلى الرخامية وغيرها، وفكر فى أن يعطيها لأحد الصبية ليحل محله ويعمل بدلا منه لبعض الوقت، ولكنها كانت لا تكفى لشراء نصف ساعة من الحرية. أعاد ممتلكاته إلى جيبه وتخلى عن فكرة محاولة شراء غيره من الصبية. فى تلك اللحظة القاتمة اليائسة طرأت له فكرة قوية.

أخذ فرشاته وذهب للعمل بطمأنينة. ظهر بن روجرز قادمًا تجاهه. هذا الصبى بالذات من بين كل الصبية كان يخشى سخريته. كان بن يأكل تفاحة ويصفِّر لحنا سيئا بفمه ويقلد صوت القارب البخارى، وحين اقترب أبطأ من سرعته ووقف فى منتصف الطريق ومال تجاه الجانب الأيمن واستدار بثقله مقلِّدًا السفينة ميسورى الكبيرة وهى ترسو واعتبر نفسه فى الماء. كان هو السفينة والربَّان والمحرك والأجراس فى آن واحد؛ لذا كان عليه أن يتخيل نفسه واقفًا على ظهر المركب يعطى الأوامر وينفذها.

- أوقف المركب يا سيدى! تنج - بنج - لنج..

توقف بن ببطء وصاح:

- المركب توقفت تماما - تنج - بنج - لنج..

ثم أسقط يديه على جانبى جسمه.

استمر توم فى عملية الطلاء ولم يلق بالا لما يفعل بن ولا للسفينة البخارية. نظر إليه بن قائلا:

- أنت فوق جذع شجرة، أليس كذلك؟

لم يجبه توم ونظر إلى السياج متفحصًا آخر ضربات فرشاته بعيني فنان، ثم قام بلمسة خفيفة بالفرشاة ليرى النتيجة، واقترب بن ووقف بجواره. كان توم يشتهي قطعة من التفاحة ولكنه انغمس في العمل. قال له بن:

- ما هذا أيها الفتى الكبير، أعليك أن تعمل؟

أجابه توم متصنعًا الدهشة:

- من! إنه أنت يا بن! لم ألاحظ قدومك..

- أنا ذاهب للسباحة. ألا تود أن تأتي معي؟ أم عليك أن تعمل؟

هرش بإصبعه في رأسه وقال:

- أتسمي ذلك عملا؟

- أليس هذا بعمل؟

عاد توم للعمل مبديا عدم الاهتمام وقال:

- حسن، قد يكون عملا وقد لا يكون. كل ما أعرفه أنه يناسب توم سوير..

- أتريد أن تقول إنك تحبه؟

ردَّ قائلا وهو مستمر في العمل:

- أنا لا أحبه ولا أدري لماذا يجب ألا أحبه. لكن فرصة طلاء السياج لا تأتي كل يوم؟

توقف بن عن الحوار ولم يجد ما يقوله، وكان قد توقف أيضًا عن التهام التفاحة. ضرب توم بالفرشاة بطريقة مسرحية وهو يرجع للخلف، وراح يضيف لمسات من الفرشاة هنا وهناك وينظر لبن الذى كان يلاحظ كل حركة وينظر بانبهار ودهشة للطلاء الذى أتقنه توم، ثم صاح أخيرًا:

– توم، دعنى أستخدم الفرشاة فى الطلاء قليلا. فكر توم وكان على وشك الموافقة ولكنه غير رأيه:

– لا، لا، لن ينفع ذلك يا بن.. خالتى بولى مهتمة بهذا السياج بوجه خاص لأنه يطل على الشارع لو كان السياج الخلفى فلن أمانع وهى لن تمانع أيضا. هى شديدة الاهتمام بهذا السياج، لذا يجب أن يتم طلاؤه بمنتهى الدقة. أعتقد أنه لا يوجد صبى من كل ألف أو ألفين يستطيع أن يقوم بالعمل بدقة، وعلى النحو الذى يجب أن يكون عليه.

– دعك من هذا، أريد أن أحاول ولو قليلا. لو كنت مكانك لسمحت لك يا توم..

– كنت أتمنى يا بن، لكنك تعرف أننى أخاف من خالتى بولى، لقد أراد جيم أن يقوم بالعمل ولكنها لم تسمح له، وهى أيضًا لن تسمح لك. أترى الآن كيف أنى مضطر؟ لو أنك قمت بالطلاء وحدث مكروه لهذا السياج فإننى سوف أكون المسئول وليس أنت.

– لا تخف، سأكون شديد الحيطة. الآن دعنى أحاول وسأعطيك قلب تفاحتى.

- لا تحاول معى، فأنا أخشى..!!

- قاطعه بن بتوسل: سأعطيك التفاحة كلها.

أعطاه توم الفرشاة ورسم على وجهه علامات الامتعاض لكنه كان فى قرارة نفسه يشعر بسرور عظيم، وبينما كان بن يعمل بحماس فى الشمس، جلس توم على برميل فى الظل بالقرب منه وهو يدلى ساقيه ويأكل التفاحة بنهم ويخطط لمكيدة أخرى لصبيان آخرين.

(٣)

فى الحقيقة لم يكن فى حاجة إلى زبائن، فالصبية كانوا كثيرين ويأتون من كل حدب وصوب لكى يسخروا منه ويرجونه لكى يقوموا بالطلاء. بعد قليل كان بن قد تعب فأعطى توم الفرصة لصبى يدعى بيلى فيشر مقابل طائرة ورقية وتبعه الصبى جونى ميللر مقابل فأر ميِّت مربوط بحبل.. وهكذا مضى الوقت ساعة تلو الأخرى، وعندما حل منتصف النهار كان توم قد تحول من صبى فقير لا يملك شيئا فى الصباح إلى صبى ثرى. وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، كان لديه اثنتا عشرة بلية رخامية، وقطعة من الزجاج الأزرق الشفاف، وقطعة من الطباشير، ومفتاح لا يفتح شيئًا، وستة أعواد ثقاب، وقطيطة عوراء، وقبضة باب نحاسية، ومقبض سكّين، وأربع قطع من قشر البرتقال، وزوجان من الضفادع.

كان يقضي وقتا طيبا متمتعا بالصحبة الوافرة وبالسياج الذى تم طلاؤه ثلاث مرات، لكن الطلاء كان قد نفد ولم يتبقَّ منه شيء، ولولا ذلك لكان قد أصبح دائنا لكل صبي بالبلدة.

اكتشف توم قانونا عظيما لعمل الإنسان دون أن يدرى، وهو أنه لكى تجعل رجلا أو صبيا يشتهى شيئا، فالمطلوب فقط أن تجعل ذلك الشيء صعب المنال. وأدرك أننا نعمل حين يضطر الجسد لأن يقوم بالعمل، ونلعب حين لا يكون الجسد مضطرا ليعمل، وقد أعانه ذلك فى تفهم لماذا يعد صبغ بعضٍ من الزهور الصناعية عملا، بينما تسلّق الجبل يعد مجرد تسلية.

ففى إنجلترا يوجد أثرياء يقومون بقيادة عربات تجرّها أربعة خيول لمسافة كبيرة فى الصيف لمجرد النزهة، وهذه النزهة تكلِّفهم مالا، ولكن إذا عرض عليهم أجرٌ مقابلها كان ذلك يحولّها إلى عمل، وبالتالى هم يرفضون.

تأمَّل توم التغيرات التى حدثت فى نصف النهار ثم اتَّجه إلى خالته بولى لكى يقدِّم تقريره.



الفصل الثالث

مشغول بالحرب والحب

(١)

وقف توم أمام خالته التي كانت تجلس بجوار نافذة مفتوحة في الغرفة الخلفية من المنزل والتي تعدّ بمثابة غرفة النوم والفطور والعشاء والمكتبة في آن واحد بالنسبة لها. كان هواء الصيف والهدوء ورائحة الزهور وطنين النحل يجعلها تغفو من آن لآخر، لم يكن بصحبتها سوى القطة التي نامت هي الأخرى في حجرها. كانت قد رفعت نظارتها لأعلى وثبّتتها في شعرها الرمادي من أجل الأمان. كانت تعتقد أن توم سوف يتهرّب من العمل الذي يُكَلَّف به؛ لذا أخذها العجب من وقوفه أمامها وتحت رحمتها مرة أخرى في هذا اليوم. قال توم:

- أأستطيع الذهاب للعب الآن يا خالتي؟

- صاحت بانفعال: ماذا؟ كم من العمل أنجزت؟

- أنجزته بالكامل يا خالتي.

- توم، لا تكذب، فأنا لا أتحمل ذلك.

- أنا لا أكذب يا خالتى، لقد أنجزت العمل بكامله.

كان للخالة بولى القليل من الثقة فى كلامه، فخرجت لترى بنفسها وكان سيرضيها لو أنها وجدته قد أنجز عشرين بالمائة منه فقط، لكنها حين وجدت أن السياج قد تم طلاؤه بالكامل لثلاث مرات، كانت دهشتها عظيمة. قالت لتوم:

- لم أتخيل ذلك أبدا، أنت تستطيع القيام بأى عمل عندما تكون لديك الرغبة يا توم..

ثم استطردت قائلة: ولكن من النادر جدا أن تتوافر لديك الرغبة. حسن، يمكنك الذهاب للعب ولكنى أذكرك بأن تعود فى الوقت المناسب وإلا سلختك.

كانت فرحتها به غامرة لدرجة أنها أخذته إلى خزانة المطبخ وأخرجت تفاحة رائعة وأعطتها له مصحوبة بثرثرة طويلة عن قيمة العمل وطعم المكافأة التى تأتى بعد مجهود شاق. وبينما كانت تنهى حديثها كان توم قد اختلس كعكة دون أن تشعر.

(٢)

خرج توم فرأى سيدنى يصعد السلم الذى يقود إلى الغرف الخلفية فى الطابق الثانى. كانت قطعة من الطين فى متناول يد توم فملأ بها يده فى لحظة وقذفها فى اتجاه سيدنى كعاصفة الجليد، وقبل أن تستطيع الخالة بولى أن تستجمع عقلها لتفهم ما جرى. كان توم يجرى فوق

السياج ويختفى، وقد استراحت نفسه بعد أن سوًى حسابه مع سيدنى الذى لفت نظر خالته إلى أن الخيط الذى ثبُتت به الياقة كان أسود وأوقعه فى ورطة.

دار توم حول المربع السكنى ودلف إلى ممر يؤدى إلى الخلف حيث توجد حظيرة المواشى الخاصة بخالته، وقد أيقن أنه أصبح فى مأمن، ولن يمسكه أحد وسيفلت من العقاب، فأسرع فى اتجاه الميدان العام للقرية حيث كانت فرقتان من الصبية تتأهبان لمعركة وفقًا لموعد سابق.

كان توم قائدا لإحدى الفرقتين وجو هاربر صديق توم قائدا للفرقة الأخرى. لم يكن للقائدينِ العظيمين أن يشتركا فى النزال بشخصيهما.. فهذا يناسب صغار الصبية فقط، فجلسا بعظمة وأشرفا على العمليات بأوامر يصدرها مساعداهما، وانتهت المعركة بانتصار جيش توم انتصاراً باهراً بعد موقعة طويلة ونزال شرس، ثم بعدها تمَّ حصر عدد القتلى وتبادل الأسرى وتحديد موعدٍ للنزال الجديد ثم انصرف الجيشان واتجه توم صوب البيت.

وبينما كان يمر بجوار البيت الذى يقطنه جيف ثاتشر، رأى فتاة غريبة بالحديقة، كانت فتاة جميلة زرقاء العينين لها شعر أصفر مجدول فى ضفيرتين وترتدى ثوبًا صيفيا أبيض اللون. سقط البطل المغوار صريعًا دون أن يطلق طلقة واحدة، واختفت فى لحظة صورة آنى لورنس من مخيلته دون أن تترك أى ذكرى وراءها.

كان توم يعتقد أنه يحبها بجنون وكان يعتبر عاطفته تجاهها حبًا، وقضى شهورًا في محاولة كسب ودّها واعترفت له منذ أسبوع فقط بأنها تبادله المشاعر نفسها، وكان أسعد الصبية وأشدهم فخرًا بذلك لسبعة أيام فقط.. والآن، وفي لحظة واحدة، غربت عن قلبه وكأنها زائر غريب انتهت زيارته.

كان يطالع الملاك الجديد مشدوها وبأعين يملؤها الشغف إلى أن اكتشفت وجوده فلم يهتم، وحاول لفت نظرها إليه بكل الطرق الصبيانية غير المعقولة. وظل على هذا الحال لبعض الوقت، وحينما كان يقوم ببعض الألعاب البهلوانية الخطرة، لمح الفتاة الصغيرة تتجه صوب البيت، فذهب إلى السياج واستند عليه وهو يشعر بالإحباط، وظل واقفًا على أمل أن تتمهل الفتاة قليلا لتراه. توقفت الفتاة لحظة عند عتبة البيت ثم اتجهت مسرعة إلى الباب. أطلق توم تنهيدة عميقة عندما خطت بقدمها للداخل، ولكن وجهه اكتسى بالفرحة لأنها ألقت بزهرة من زهور البانسيه عبر السياج قبل أن تختفي بالداخل.

جرى توم في اتجاه الزهرة وقبل أن يصل إليها وضع يده أعلى عينيه ونظر إلى الشارع وكأنه قد اكتشف شيئا مهمًا بعد قليل، التقط عصا رفيعة وحاول أن يحتفظ بها متوازنة فوق أنفه، وبينما هو يتراقص من جانب لآخر ليحتفظ بتوازنه، اقترب من مكان زهرة البانسيه ووضع قدمه العارية عليها، ممسكًا الزهرة بإصبعي قدميه وأخذ يقفز بعيدا ثم اختفى عند منعطف الطريق، بعدها توقف لحظات ليقوم بتثبيت الزهرة في عروة سترته وبالقرب من قلبه.

(٣)

عاد ثانية ليقف بجانب السياج إلى أن حلّ الليل، كان يعرض حيله ومهاراته مثلما كان يفعل أول مرة، لكن الفتاة لم تظهر مرة أخرى رغم أن توم كان يمنّي نفسه بأنها ربما تكون قريبة من النافذة وتراقبه لتعرف مدى اهتمامه بها، ولكنها لم تظهر البتة، فاتجه إلى بيته بخطى متباطئة ورأسه يموج بالخيالات والأفكار.

كانت روحه عالية خلال العشاء لدرجة كبيرة أدهشت خالته فتعجبت قائلة:

- أيها الصبى، لقد عوقبت عقابًا شديدًا على قذفك سيدنى بالطين ولا يبدو أنك تبالى، ثم حاولت أن تسرق قطع السكر أمام أعين خالتك فضربتك على يدك، ألا تهتم.
- لماذا لا توبخين سيدنى حين يفعل ذلك؟
- سيدنى لا يعذّب الآخرين كما تفعل أنت. ولو لم أمنعك لظللت تأخذ السكر طوال الوقت.

بعد قليل دخلت الخالة إلى المطبخ فاتجه سيدنى إلى وعاء السكر متحصنًا بالحماية التى حصل عليها من خالته ليغيظ توم الذى لم يتحمل ذلك. ولكن أصابع سيدنى أخطأت الوعاء فسقط وانكسر وتناثرت قطع الزجاج على الأرض.

كان توم في نشوة عارمة وكاد يصيح فرحًا، لكنه تحكم في نفسه وظل ساكتا وقال في نفسه إنه لن يتكلم حتى لو جاءت خالته سيبقى ساكتا إلى أن تسأل من فعل ذلك؟ عندها سيقول ويحظى بعطف خالته ويشاهد خالته وهي تعاقب سيدني، لكنه وقع في المحظور، إذ إنه كان مستثارًا لدرجة بالغة ولم يستطع التحكم في نفسه. عندما عادت خالته من المطبخ وقفت أمام الزجاج المتناثر على الأرض وعيناها تشع بالبريق الغاضب. فقال في نفسه "الآن حان الوقت لأتكلم"، وفي اللحظة التالية كان على الأرض وكف خالته القوية ترتفع لتهوى عليه مرة أخرى، فصاح بغضب:

– لماذا تضربينني؟ سيدني هو الذي كسره. توقفت الخالة بولي مضطربة وعندما استعادت توازنها قالت لتوم:

– أنت لم تنل ما تستحقه. لقد قمت بأمور تستحق عليها ذلك عندما لم أكن موجودة.

ولكن ضميرها أنّبها وحاولت أن تقول شيئا طيبًا لترضيه، ولكنها رأت أنها بذلك ستعترف بأنها مخطئة. والتأديب لكي يكون مؤثّرًا يمنع ذلك، وبالتالي ظلت صامتة وانصرفت إلى أعمالها بقلب مضطرب.

ذهب توم إلى ركن الحجرة مهموما. كان يعرف أن خالته تشعر بالذنب في داخلها، فاغتبط وصمّم على ألا يعطي أي إشارة بالتسامح، كما أنه لن يأبه بأية إشارات منها. ورغم أنها كانت تنظر إليه بخجل بين الحين والآخر وبعين دامعة، لكنه رفض أن يعيرها التفاتا.

تخيَّل نفسه وهو يرقد مريضاً وخالته تنحنى فوقه وتتوسل منه كلمة عفو واحدة وهو يعطى وجهه للحائط ولا ينطق بتلك الكلمة. كيف سيكون شعورها آنئذ؟ تخيل نفسه وقد جاءوا به إلى البيت ميتا بعد أن غرق فى النهر وابتلت ملابسه، وكيف أنها ستقذف بنفسها عليه وستنهمر دموعها كالمطر، وكيف ستصلى كثيرا لكى يعيد إليها الله ولدها، وأنها لن تسىء إليه أبدا بعد ذلك، ولكنه سيظل راقــداً بلا حــراك.. بارداً ممتقعــاً، وقد انتهت معاناته للأبد.

(٤)

ظلت تلك المشاعر تراوده وملأته الأحلام المقبضة لدرجة أنه أوشك على الاختناق واغرورقت عيناه بالدموع وسالت على خديه. كان الحزن قد تملَّكه لدرجة لا تحتمل معها أية بشاشة أو سرور من هذه الدنيا، فقد كانت أحزانه أعظم من ذلك بكثير. وحتى عندما عادت مارى ابنة خالته إلى البيت بعد زيارة طويلة للريف، قام هو متدثراً بالغمام والظلام وخرج من البيت غير مبالٍ بما تجىء به دائماً معها من بهجة وفرح وصخب.

سار توم بعيدا عن تجمعات الصبية واختار أماكن معزولة تناسب حالته النفسية. لمح لوحا خشبيا يطفو على سطح النهر فجلس على حافته يتأمل اتساع النهر وتمنَّى لو أنه غرق فى لحظة واحدة بدون أن يعانى من الألم أو يمر بمراحل الموت الذى تُحتِّمه الطبيعة، لكنه فكر فى الزهرة وأخرجها من جيبه فوجدها قد جفَّت وذبلت مما زاد من وحشته وكربه.

تساءل هل ستعطف عليه تلك الفتاة لو عرفت بما حدث له؟ هل ستبكى؟ تمنّى لو أنها طوّقت عنقه بذراعيها وخففت من آلامه. تنازعته الخواطر وراح يقلبها في عقله ويراها فى ضوء جديد ثم قام وغادر النهر وسار فى الظلام قاصداً بيت الفتاة.

كان يسير فى الشارع الخالى من المارة إلى حيث تعيش معشوقته التى لا يعرف اسمها. وقف لحظة، لم يسمع فيها شيئًا، وكان لهب الشمعة يتراقص خلف ستائر نافذة الطابق الثانى وهو يظن أن محبوبته تقيم به. تسلق السياج صاعداً لأعلى حتى أصبح تحت النافدة، نظر داخل الغرفة بعاطفة جياشة فلم يجد أحداً فنزل بسرعة ووقف فى الحديقة ووضع يده على صدره ممسكا بالزهرة الذابلة. تصور أنه سيموت وحيدا فى مكانه حيث لا مأوى له ولا سقف فوق رأسه ولا يد لصديق تمسح الألم عن جبهته الباردة وحيث لا وجه لحبيب ينحنى شفقة عليه حين يأتيه العذاب الأعظم، وهى ستراه عندما تنظر من النافذة فى الصباح السعيد! وستذرف دمعة صغيرة على جسده المسكين وستتنهد تنهيدة عميقة حين ترى حياة غضة زاهية تنتهى قبل الأوان، وبينما هو مستغرق في تصور أن النافذة انفتحت وإذا بطوفان من الماء البارد يغرق جسده الشهيد!!.

انتفض البطل مذعوراً وهو مبلل بالماء. كان هناك صوت كالصفير الحاد مختلطًا بصيحات لعنة وظل الصبى الصغير يقفز من فوق السياج وينطلق فى الظلام! بعد قليل كان فى البيت وقد خلع ثيابه لينام.

تحسَّس توم ثيابه المبتلة على ضوء الشمعة الخافت وهو حزين، استيقظ سيدنى ونظر إليه متسائلا عما جرى له، لكن توم لم تكن لديه رغبة للحديث عما جرى، وقرَّر سيدنى هو الآخر أن يظل ساكتًا حيث رأى الشرر فى عين توم، بعدها نام دون أن يتلو صلواته ولاحظ سيدنى ذلك.. فانقلب نائما هو الآخر.

الفصل الرابع

المباهاة فى مدرسة الأحد

(١)

أشرقت الشمس على عالم هادئ وسطعت على القرية المطمئنة وكأنها تباركها. عندما انتهى الإفطار، أخذت الخالة بولى فى إقامة الصلاة العائلية بترتيل مقاطع من الكتاب المقدس تبعتها بفصل عن القانون الموسوعى. وكان توم يجتهد فى محاولة حفظ أبيات من التراتيل حيث إن سيدنى كان قد حفظها منذ أيام. ركّز توم كل طاقته لكى يحفظ خمسة أبيات اختارها من موعظة الجبل حيث لم يجد ما هو أقصر منها. بعد نصف ساعة كانت لدى توم فكرة بسيطة عن هذا الدرس حيث كان عقله مشغولاً بالفكر الدنيوى ويداه مشغولتان بما يلهيه. أخذت مارى الكتاب لكى يقوم بترديد ما حفظه من تراتيل، وحاول توم أن يقول ما حفظه لكنه تلعثم، وردد بعض الكلمات الناقصة:

- طوبى للـ..

- وداع

- نعم، الوداع، طوبى للوداعة.

- بالروح..

أسعفته ماري بالكلمة التالية لتشجعه:

- بالروح، طوبى للودعاء بالروح لأنهم..

صاح وراءها:

- لأنهم يرثون مملكة السماء. طوبى للبؤساء لأنهم..

- لأنهم سوف..

صاح في ماري:

- لأنهم سوف ماذا؟ لماذا لا تقولين لي يا ماري؟ لماذا أنت شديدة البخل على هذا النحو؟

زمجرت.. وقالت له باستياء:

- أنت غبي يا توم. فأنا لا أغيظك ولكن يجب عليك أن تحفظ النص. لا تجعل شيئا يلهيك عن ذلك. تستطيع أن تحفظه وعندما تفعل سأعطيك شيئا رائعا، هيا الآن أيها الولد الطيب.

- ما هو هذا الشيء يا ماري؟ قولي لي؟

- لا يا توم. أنت تعرف أنني عندما أقول إنه شيء، رائع فهو شيء رائع..

- سأحاول الحفظ إذن..

اجتهد توم ليحفظ بسرعة مدفوعا بإغراء المكسب المتاح وأنجز ذلك بنجاح، ومنحته مارى مطواة جديدة لامعة. كانت الفرحة العارمة التى اجتاحته عظيمة، فالمطواة كانت من ماركة معروفة وغالية، وهذا أمر عظيم حقًا، ورغم أن الصبية فى الغرب لديهم اعتقاد بأن مثل هذه الأشياء الثمينة يسهل تقليدها، فإنه لم يستطع أن يعرف ما إذا كانت مقلدة أم حقيقية. حاول توم أن يخدش الدولاب بها وكان يخطط لأن يفعل ذلك بالمكتب، لكن نودى عليه لكى يرتدى ملابسه للذهاب إلى مدرسة الأحد.. فأجّل المحاولة.

(٢)

أعطته مارى حوضا وقطعة من الصابون فذهب بهما خارجا، حيث وضع الحوض على أحد الكراسى ثم غمس قطعة الصابون فى الماء وشمّر عن ساعديه وصبَّ الماء صبًا خفيفا على الأرض، ثم دلف إلى المطبخ وبدأ فى مسح وجهه بالمنشفة الموجودة خلف الباب. ولكن مارى خطفت منه المنشفة وقالت له بحدة:

- ألا تخجل يا توم؟ يجب ألا تكون بهذا السوء، فالماء لن يضرك.

أعاد توم ملء الحوض ووقف أمامه لبرهة ثم استجمع شجاعته وأخذ نفسًا عميقًا وبدأ فى الاغتسال، وبعد أن انتهى دخل المطبخ وعيناه مغلقتان، وراح يبحث عن المنشفة ويتحسس مكانها، وكانت قطرات الماء تتساقط من فوق وجهه كدليل على أنه قد استحم، هذا الدليل لم يكن كافيا،

لأن ذقنه وفكيه فقط كانا نظيفين، وفوقهما وأسفل منهما كانت توجد مساحات داكنة ومتسخة، وأيضا حول رقبته، فأخذت ماري المهمة على عاتقها وراحت تنظفه وما إن انتهت حتى كان قد أصبح رجلاً نظيفا وقام بتصفيف شعره بعناية وسوّى خصلاته القصيرة على أحسن وجه.

أخرجت ماري حُلّة كان لا يلبسها إلا في أيام الآحاد كانت تسمى "ملابس المناسبات"، وألبسته ماري كما يجب، وقامت بتثبيت الأزرار في العروات الخاصة بالسترة وأسدلت ياقة القميص على كتفيه ووضعت قبعة من القش على رأسه حتى تحسن مظهره، ولكنه كان غير مستريح، لأن النظافة والهندام دائما ما يسببان له الضيق. كان يأمل أن تنسى ماري أمر الحذاء ولكنها لم تفعل وقامت بدهانه وجاءت به إليه. فقد توم أعصابه وقال:

– لماذا ترغمونني دائما على فعل ما لا أريد..؟

فقالت له ماري:

– أرجوك يا توم، كن ولداً طيبا..

وهكذا لبس الحذاء وهو كاره.. كانت ماري مستعدة هي الأخرى، فانطلق الأطفال الثلاثة هو وسيدني وماري إلى مدرسة الأحد، وهي مكان يكرهه توم بكل ذرّة من كيانه، أما سيدني وماري فكانا يحبانه.

(٣)

كانت ساعات المدرسة من التاسعة إلى العاشرة والنصف تتبعها صلاة في الكنيسة، وكان اثنان من الأطفال يبقيان للقداس، وكانت مقاعد

الكنيسة تسع ثلاثمائة شخص تقريبا. تمهَّل توم عند الباب ليقابل رفيقا له اسمه بيلى:

هتف قائلا له:

– بيلى، ألديك بطاقة صفراء؟

– نعم.

– ماذا تريد مقابلها؟

– ما الذى ستعطيه مقابلها؟

– قطعة من الحلوى وسنَّارة للصيد.

– دعنى أراهما.

أخرجهما له توم فأخذهما بيلى وتمت المبادلة. بادل توم بعض الصبية الآخرين أيضا وحصل على ثلاث بطاقات حمراء مقابل بطاقتين باللون الأزرق وأشياء أخرى. واستمرت مقايضة الصبية للحصول على بطاقات بألوان مختلفة لمدة خمس عشرة دقيقة، ثم دخل إلى الكنيسة مع الصبية والفتيات، وجلس إلى مقعده وتاق إلى الشجار فحاول أن يتشاجر مع أول صبى وجده أمامه، لكن المدرِّس الذى كان رجلا طاعناً فى السن تدخل لفضِّ الشجار، وما إن أدار لهما ظهره حتى كان توم يجذب شعر الصبى فى الصف الذى أمامه، فالتفت الصبى خلفه ليرى من يفعل ذلك، فأسرع توم وتظاهر بأنه مستغرق فى قراءة كتابه. بعدها غرس توم دبوساً فى كتف صبى آخر بغية أن يسمع الصبى يصيح من

الألم وبناله التوبيخ. كان ذلك هو السلوك المعتاد لتوم فى مدرسة الأحد.
وحين جاء الوقت لتلاوة دروسهم، لم يكن أى واحد منهم يحفظ الآيات كما يجب، وكانوا يتلقون المساعدة أثناء التلاوة، ورغم ذلك حصل كل واحد منهم على جائزة عبارة عن بطاقات زرقاء صغيرة تحوى كل منها عبارات من الكتاب المقدس، وكل بطاقة كانت مقابل تلاوة آيتين، وكل عشر بطاقات زرقاء كانت تعادل بطاقة صفراء وفى مقابل عشر بطاقات صفراء كان المشرف يمنح حاملها إنجيلا مجلداً. وكم كان ذلك صعبًا على الصبية والفتيات!، فمن له القدرة على حفظ ألفين من الآيات مقابل أن يمنح إنجيلاً؟ رغم ذلك حصلت مارى على إنجيلين بهذه الطريقة، بعد جهد دؤوب لمدة سنتين، كما أن صبيا من أصول ألمانية تمكن من الحصول على أربعة أو خمسة أناجيل، واستطاع فى إحدى المرات تلاوة ثلاث آلاف آية بدون توقف، لكن الخبْل أصابه بعد ذلك مما كان يعد سوء حظ للمدرسة لأنه فى المناسبات الكبيرة وأمام جمهور كبير من الناس، كان المشرف - عادة - ما يأتى بالصبى ليظهر موهبته.

كان التلاميذ الأكبر سنا هم الذين يستطيعون الاحتفاظ ببطاقاتهم والمواظبة على العمل الشاق لكى يكسبوا إنجيلا مما جعل مناسبة إهداء الإنجيل لواحد منهم حدثا نادرا جديرا بالاهتمام، فالتلميذ الناجح كان يعد عظيما وشهيرا، فكان ذلك يلهب قلب كل دارس بالطموح الذى يظل معه لأسبوعين أو أكثر. من الممكن ألا يكون عقل توم قد انشغل بالحصول على واحد من تلك الأناجيل ولكنه بالتأكيد اشتاق كثيراً للمجد الذى يصاحب الحصول على تلك الجائزة.

(٤)

في اللحظة المناسبة، وقف المشرف أمام التلاميذ ومعه كتاب التراتيل مقفل في يده وإصبعه بين صفحاته وطلب منهم الانتباه، وحين يقوم المشرف على مدرسة الأحد بإلقاء خطابه القصير المعتاد، فإن وجود كتاب التراتيل في يده يكون ضروريا، رغم أن تلك الضرورة تعد غامضة حيث إن كتاب التراتيل لا ينظر فيه المشرف على الإطلاق.

كان المشرف رجلا نحيلا في حوالى الخامسة والثلاثين، له لحية صغيرة صفراء، وشعر أصفر قصير ويلبس ياقة منشّاة بيضاء تصل حافتها العليا إلى أذنيه مع انثناء نهايتها المدبّبة للأمام بالقرب من فمه مما كان يضطره للنظر للأمام دائما، والالتفاف بكامل جسمه عندما يحاول النظر جانبا. كان يرتدى ربطة عنق عريضة ذات ألوان مزركشة، أما حذاؤه فكان ملتويا لأعلى على موضة تلك الأيام. كان السيد والترز رجلا جادا وشديد الإخلاص بما يجعله يفصل بين الأشياء والأماكن المقدسة عن سائر الأمور الدنيوية، فاكتسب صوته نبرات خاصة في تلك المناسبات لم تكن لتظهر خلال بقية أيام الأسبوع. بدأ حديثه قائلا:

- الآن يا أطفالي الأعزاء، أريدكم أن تجلسوا منتبهين قدر إمكانكم، وأن تعطوني آذانكم لدقيقة أو اثنتين، هكذا يكون الأمر بالنسبة للصبية والفتيات النجباء. أنا أرى فتاة صغيرة تنظر من النافذة، وأخشى أن تعتقد أنني في مكان ما بالخارج، ربما في واحدة من الأشجار أوجّه خطابي لصغار الطير..

سرت همهمات وضحكات فى القاعة، فأشار بيده ليسكتوا، ثم استطرد قائلا:

- أريدكم أن تعرفوا كيف أكون سعيداً عندما أرى العديد من الوجوه اللامعة النظيفة وقد تجمّعت فى مكان كهذا لتتعلم أن تفعل كل ما هو طيب وأن تكون مطيعة طيبة.

استمر السيد والترز يقول خطبته، وليس من الضرورى إعادة بقية ما قاله لأنه كان من طراز واحد لا يتغير ومعروف. لكن في الثلث الأخير من خطابه حدث شغب وعراك بين بعض الصبية وسيدنى ومارى، ولكن فجأة تلاشت الأصوات حين خفت صوت السيد والترز وهو ينهى خطابه، مما جعل الصبية يستقبلون ذلك بترحاب صامت.

تخلّل الخطاب دخول بعض الزوّار مثل المحامى ثاتشر وكان فى صحبة رجل عجوز، وآخر في منتصف العمر بشعر رمادى، وسيدة وقور هى زوجته، وكانت السيدة تقود طفلة في يدها. استبدّ القلق بتوم فلم يكن يقوى على النظر إلى أنى لورنس ولا نظرة الحب في عينيها. لكنه عندما رأى القادمة الجديدة الصغيرة هزت روحه الفرحة وراح يتباهى أمامها بكل قوته، فكان يصفع الصبية ويشد شعرهم ويقوم بكل ما يمكن أن يلفت إليه نظر الفتاة.

كان السبب هو المهانة التي لحقت به فى حديقة بيتها، وهو ما محا تماما من ذاكرته أي إحساس بالسعادة التى تجتاحه الآن.

(٥)

جلس الضيوف في مقاعد الشرف حتى انتهى السيد والترز من خطابه، ثم قام بتقديمهم إلى الحاضرين، كان الرجل متوسط العمر، هو قاضى البلدة وأعظم من وقعت أعين الأطفال عليه من الرجال، لدرجة أنهم كانوا يتساطون فيما بينهم من أية مادة صنع هذا الرجل؟ كان الرجل من مدينة أخرى تبعد عشرة أميال عن القرية. كان الصمت يخيِّم على القاعة وعيون كل من فيها تنظر إليه بإجلال، وكان هذا هو القاضى العظيم ثاتشر شقيق المحامى الخاص ببلدتهم.

تقدم جيف ثاتشر فى التو إلى الأمام للترحيب بالرجل العظيم تلاحقه عيون كل من فى المدرسة، وكان الهمس الذى ساد القاعة بمثابة الموسيقى فى أذنيه.

همس توم إلى جيم بجانبه قائلا:

– انظر إليه يا جيم! إنه ذاهب لمصافحته، إنه يصافحه! يا إلهى! ألا تتمنى لو كنت جيف؟

بدأ السيد والترز هو الآخر فى التباهى بالقيام بمهامه الرسمية وإصدار الأوامر والتوجيهات هنا وهناك، وفى كل مكان حوله، وأخذ أمين المكتبة هو الآخر فى التباهى بالجرى هنا وهناك وذراعاه تحتضنان الكتب، وكذلك المدِّرسات أيضا تباهين بأن انحنين على التلاميذ برقة، ورفعن أصابعهن تجاه الصبية المشاغبين، بينما كنَّ يربتن برقة على أكتاف النجباء.

المدرِّسون أيضا أخذوا فى التباهى بإظهار الحزم، وكانوا يحثون التلاميذ على الالتزام بالسلوك. ومعظم المدرسين من الجنسين انشغلوا بالعمل بالمكتبة والمنصَّة لدرجة أنهم كانوا يقومون بالعمل الواحد مرتين وثلاثا. أما الفتيات الصغيرات فكنَّ يتباهين بأساليب أخرى، والأولاد كذلك لدرجة أن الجو امتلأ بقصاصات الورق الملونة والهمهمات وآهات الإعجاب.

(٦)

جلس الزائر العظيم وعلى وجهه ابتسامة عريضة وغارقا فى العظمة، لأنه كان يتباهى هو الآخر. كان هناك شيء واحد ناقص لجعل نشوة السيد والترز كاملة، وهو فرصة تقديم إنجيل كجائزة لإظهار مكانته، فالعديد من التلاميذ كانوا يملكون القليل من البطاقات الصفراء ، ولكن ليس من بينهم من يملك منها ما يكفى للفوز بإنجيل، فتمنَّى لو أن الصبى الألمانى عاد مرة أخرى إلى رشده.

وفى اللحظة التى مات فيها الأمل فى نفسه، تقدَّم توم سوير بتسع بطاقات صفراء وتسع بطاقات حمراء وتسع بطاقات زرقاء وطلب منه الحصول على إنجيل. كان ذلك بمثابة شرارة من الرعد فى سماء صافية، فلم يكن والترز يتوقع مثل هذا الطلب من هذا الصبى لعشر سنوات قادمة. ولكن ها هى البطاقات وهى كلها تؤهِّله للحصول على الإنجيل. صعد توم إلى المنصة حيث يجلس القاضى والزائرون، وتم إعلان النبأ

العظيم الذى كان أكبر مفاجأة منذ سنوات عديدة، وكان الإحساس بذلك قويا لدرجة رفعت البطل لمصاف العظماء، وأصبحت المدرسة تنظر إلى عظيمين بدلا من واحد. وكان الحسد يأكل بقية الصبية، ولكن من عانوا أشد المرارة هم من أدركوا متأخرا أنهم قد شاركوا فى ذلك بإعطائهم بطاقات لتوم مقابل السماح لهم بطلاء السور.

(٧)

قدمت الجائزة إلى توم بقدر من المشاعر يتناسب مع الظروف القائمة، وإن خلت من الصدق. كان جميع الحاضرين يتهامسون متسائلين فى دهشة عن قدرة توم على حفظ ألفين من الآيات، وكانوا متأكدين أنه لا يستطيع حفظ عشر آيات فقط لأنها تفوق قدراته.

كانت آنى لورانس فخورة وسعيدة وحاولت أن تجعل توم يرى ذلك على وجهها ولكنه لم ينظر إليها. تعجبت وتحيرت وساورتها الشكوك، وراحت تراقب ما يجرى إلى أن أدركت حقيقة ما حدث، فانكسر قلبها وغرقت فى الدموع وقد كرهت الجميع وعلى الأخص توم.

تم تقديم توم إلى القاضى ولكن لسانه لم يطاوعه وتهدجت أنفاسه فى صدره، وارتجف قلبه وهو يصافح القاضى بعظمته الفائقة، ولكن بصورة أساسية لأنه كان والد آنى. كان يرغب فى أن يسجد أمامه لو كان المكان مظلماً.

وضع القاضي يده على رأس توم ودعاه بالرجل الصغير البارع وسأله عن اسمه فتلعثم توم وقال من بين أسنانه:

- اسمي توم..

قال القاضي ضاحكا..

- لا يا توم.. إنه توماس..

- لم يرد توم وسكت، فاستطرد القاضي قائلا..

- نعم، وأعتقد أن هناك المزيد، فلديك اسم آخر وسوف تقوله لي أليس كذلك؟

قال له والترز "قل للسيد اسمك الآخر يا توماس" وقل يا سيدى، يجب ألا تنسى حسن السلوك".

ردّ توم بسرعة:

- توماس سوير يا سيدى..

قال القاضي بإعجاب:

- أنت ولد طيب ونجيب، ولد فيه سمات الرجولة. ألفان من الآيات شيء كثير وكثير جدا جدا، ولن تندم أبدا على الجهد الذى بذلته لحفظها لأن المعرفة تساوى أكثر من أى شيء فى الوجود. إنك ستكون رجلا عظيما وطيبا يوما ما يا توماس، وعندها سوف تنظر للوراء وتقول إن كل هذا يعود إلى مزايا مدرسة الأحد وأيام طفولتي، وإلى أساتذتي الأفاضل الذين علّموني، وإلى المشرف الذى شجعني ورعاني وأهداني إنجيلا جميلا أنيقا لكى أحتفظ به ويصبح ملكا لى. هذا ما ستقوله يا توماس.

إنك لن تأخذ أى نقود مقابل الألفين من الآيات وهذا أمر مؤكد. أعتقد أنك لا تمانع الآن فى أن تطلعنى أنا وهذه السيدة على بعض الأشياء التى تعلمتها، أعتقد أنك لا تمانع ونحن شديدو الفخر بالصبية الصغار المتعلمين. الآن، لابد أنك تعرف أسماء الرسل الاثنى عشر. هلا قلت لنا أسماء أول اثنين منهما؟

كان توم يعبث بأصابعه فى أزرار سترته وقد أغرقه الخجل، فاحمر وجهه وراح ينظر إلى الأرض. غرق قلب السيد والترز بين ضلوعه وقال لنفسه من غير الممكن أن يجيب الصبى على أبسط سؤال.

أحس السيد والترز بالحرج الشديد وقال بصوت خفيض:

– لماذا سأله القاضى؟.. ولكنه أحس بأنه مضطر لأن يتدخل فقال لتوم:

– أجب على السيد يا توماس ولا تخف..

ظل توم صامتا، فقالت له السيدة:

– ولكنك ستقول لى أنا.. أسماء أول رسولين كانا؟!

صاح توم:

– داود وجوليات.

كانت إجابة توم بمثابة الصاعقة، وأدت إلى فضيحة مدوية.

الفصل الخامس

البقّة القارصة

(١)

بدأ ناقوس الكنيسة الصغيرة يدق حوالى العاشرة والنصف فأخذ الناس يتجمعون لقداس الصباح، وتفرق أطفال مدرسة الأحد وانتشروا حول المكان وأخذوا أماكنهم بصحبة آبائهم ليكونوا تحت إشرافهم. جاءت الخالة بولى وجلس توم وسيدنى ومارى بجوارها، وجلس توم بجوار الممر لكي يكون بعيدا عن النافذة المفتوحة المطلة على المناظر التى قد تلهيه عن القداس. امتلأت المقاعد بالناس وكان منهم رجل البريد العجوز الذى شهد فى البلدة أياما جميلة والعمدة وزوجته وغيرهم..، وكان من بين الحاضرين القاضى والأرملة دوجلاس الشقراء وهى امرأة كريمة طيبة القلب وتتمتع بالثراء حيث يعد منزلها المطل على التل بمثابة القصر الوحيد بالبلدة وأكثرها بهاءً فى الاحتفالات التى تقام بسانت بترسبرج، وأيضا الضابط وارد وزوجته والمحامى ريفرسون الشهير الذى جاء ووراءه كتيبة من الصغار فى زى مميز، ثم بعد ذلك جاء موظفو

البلدة فى جمع واحد، وأخيراً الطفل المعجزة ويلى مفرسون المفرط فى رعايته لوالدته وكأنها مصنوعة من الزجاج، وكان دائما ما يأتى بصحبة أمه إلى الكنيسة، وكان ويلى يحظى بإعجاب الجميع، ولذلك كان الأولاد يكرهونه. كان المنديل الأبيض يتدلى من جيبه الخلفى كما هو معتاد فى أيام الآحاد، ولأن توم لم يكن يملك منديلا فقد كان ينظر إلى من يملكون منديلا على أنهم متغطرسون.

بعد أن انتظم الجميع، دق الناقوس مرة أخرى لتنبيه المتلكئين، ثم خيم الصمت على الكنيسة، ولم تكن تقطعه سوى همسات جوق الإنشاد بالدهليز، والذى كان دائما ما تسمع همساته أثناء القداس.

حدد القس ما سوف يتلى من التراتيل وبدأ فى القراءة بطريقة مؤثرة وأسلوب خاص يثير الإعجاب، فبدأ بصوت هادئ ثم أخذ يعلو بصوته إلى أن وصل إلى درجة معينة تتوافق مع الكلمة الأخيرة ثم عاد إلى الهدوء مرة أخرى وهو يقول:

- هل سأحمل إلى السماء على جناح الراحة والزهور بينما يتقاتل الآخرون لنيل الجائزة ويبحرون عبر بحار الدم.

كان القس قارئًا رائعا وكثيرا ما كان يدعى فى المناسبات التى تقام بالكنيسة لقراءة الشعر، وعندما كان ينتهى كانت السيدات يرفعن أذرعهن ويدعنها تسقط فى حجورهن وكأنهن يقلن "لا يمكن للكلمات أن تعبر عن هذه الروعة. إنها أعظم من أن تنتمى لهذا العالم الفانى".

بعد الانتهاء من التراتيل أقام القس الصلاة، وكان صلاة طيبة، ثم دخل فى الدعاء للكنيسة ولأطفال الكنيسة الصغار وللكنائس الأخرى

وللبلدة وللمقاطعة وللولاية، ولموظفي الولاية، وللولايات المتحدة ولكنائس الولايات المتحدة وللكونجرس وللرئيس ولموظفي الحكومة، وللبحارة المساكين في البحار العاتية، وللملايين المقهورة تحت أقدام الملكيات الأوروبية، وللذين لديهم النور ولكنهم لا يملكون الآذان التي يسمعون بها أو الأعين التي يبصرون بها. ثم أنهى الدعاء متمنيا بأن يكون لكلماته القبول، وأن تكون كالبذرة التي تزرع في أرض خصبة لتؤتي ثمارها الطيبة.

(٢)

لم يستمتع توم بالصلاة وتحملها على مضض وانشغل عنها ولم يستمع لها، لأنه كان يعرف أسلوب القس في إقامة الصلاة لدرجة أنه كان يعرف أي أمر تافه صغير وغير مألوف يأتي به القس في الصلاة، وكان يعتبره خروجا عن النص. وفي أثناء صلاته، حطت ذبابة على مؤخرة المقعد الذي أمامه. كان توم يتحفز للإمساك بها ولكنه لم يفعل، فقد كان يعتقد أن روحه سوف تنال اللعنة إذا ما فعل ذلك أثناء الصلاة، ولكن مع نهاية الصلاة وما إن نطق القس بكلمة "آمين" حتى كانت الذبابة سجينة في يده. ولاحظت خالته بولي ما فعل فعنفته بشدة وجعلته يتركها تطير.

ألقى القس موعظته ثم اندمج في جدل ممل لدرجة أن بعض المصلين أخذوا في النعاس. أحصى توم عدد صفحات الموعظة، ليعرف عددها، ولكنه لم يكن يعرف عما تتحدث. كان مهتما وفهم بعض ما كان يقوله القس الذي كان يرسم صورة حية لتجمع كائنات العالم في العصر الذي

ينام فيه الأسد بجوار الحمل في سلام ويقودهما طفل صغير. لكن توم لم يدرك المعنى الأخلاقى للدرس، أشرق وجهه للفكرة وتمنى أن يكون هو ذلك الطفل فيما لو كان الأسد أليفا.

أصابه الضجر مرة أخرى عندما عاد الجدل ثانية، ولكنه فكر فى شيء يسليه ويخرجه من الضجر فأخرجه للتو. كانت خنفساء سوداء ضخمة ذات أنياب، وكان يسميها "البقَّة القارصة"، وكان يضعها فى صندوق صغير. كان أول ما فعلته الخنفساء أن عضّت إصبعه وفرّت هاربة وقفزت إلى الممر واستقرت على ظهرها بينما وضع توم إصبعه الجريح فى فمه. ظلت الخنفساء على ظهرها وحاولت أن تعدل من وضعها بلا فائدة.

كان توم يراقب الخنفساء ويتوق لكي يمسك بها ولكنها كانت بعيدة عن متناول يده. وجد بعض الناس الذين لم يتحمسوا للموعظة بعض التسلية فى مشاهدة الخنفساء أيضا، لكن بعد لحظة دخل كلب صغير الجسم كثيف الشعر إلى الممر وهو يتمشى بكسل، ونظر إلى الخنفساء بفضول ثم هز ذيله في جذل. تمعن الكلب فى الجائزة ودار حولها وهو يتشممها عن بعد ثم دار حولها ثانية وتشجع فأخذ يتشممها عن قرب ثم أخرج لسانه وحاول التقاطها ولكنه فشل فحاول ثانية وثالثة وبدا وكأنه يستمتع بذلك. جلس على بطنه وأحاط الخنفساء بيديه وراح يلاعبها، وأخيراً ناله التعب وسقطت رأسه شيئا فشيئا فتدلت ذقنه ولامست الخنفساء فأصابه الذعر. ونبح بشدة ثم أطاح بها لمسافة مترين فسقطت على ظهرها مرة أخرى. كان المشاهدون يراقبون ما يجرى باستمتاع،

وأخفى بعضهم وجهه خلف المراوح والمناديل، وكان توم فى غاية السعادة. بدا الكلب غبيا وربما أحس بذلك، وكان قلبه يمتلئ بالرغبة فى الانتقام. ذهب إلى الخنفساء مرة أخرى وبدأ فى مهاجمتها من كل نقاط الدائرة المحيطة بها وحاول الإمساك بها بأسنانه. ولكن الملل أصابه مرة أخرى فتركها لحالها ورجع. تتبع ذبابة ثم نملة ولكن ذلك لم يفلح معه، فتثاءب ونسى الخنفساء تماما وجلس فوقها. تبع ذلك صوت نباح صاخب ثم قام واقفا وجرى عبر الممر مخترقا الطريق أمام المذبح ومارا أمام الأبواب محدثا جلبة شديدة داخل الكنيسة وقد زاد هياجه مع الوقت وراح يبحث عن مخرج بمعاناة من بين أرجل الحاضرين وقفز إلى حجر سيده الذى حمله وألقاه من النافذة، وكانت صيحات الألم تسمع وهو يبتعد عن المكان. كانت وجوه الحاضرين بالكنيسة محتقنة بالضحكات المكتومة وتوقف القس تماما عن الوعظ. عادت الموعظة إلى مسارها بعد قليل ولكنها عادت باهتة وقد ضاع تأثير كلماتها واستقبلت أكثر كلماتها رصانة وجدية بمزاح كما لو كان القس يسرد عليهم قصة فكاهية، ثم جاء الفرج للجميع عندما انتهى القس من الموعظة.

رجع توم إلى المنزل مبتهجا وقد أحس بأن ما حدث أثناء الموعظة قد غيَّر من رتابتها، لكنه كان يتمنى لو أن الكلب قد أطال اللعب مع الخنفساء.



الفصل السادس

توم يقابل بيكى

(١)

حل صباح الاثنين وتوم فى غاية البؤس، وهو دائما ما يكون كذلك فى أيام الاثنين، لأنه يكون بداية أسبوع آخر من الواجبات المدرسية، وهو عادة ما يبدأ اليوم بتثاقل ويتمنى ألا تكون هناك إجازة أسبوعية، لأنها تجعل من الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى أمرا غير محتمل.

استلقى توم وأخذ يفكر، كان يتمنى لو أنه مريض فيتيح له ذلك أن يظل بالبيت بعيدا عن المدرسة، كانت هناك إمكانية ضعيفة لذلك، فلا يوجد ما يشكو منه، تحسس بطنه فشعر بأعراض مغص خفيف، ولكن الأعراض زالت بعد قليل، ولكنه اكتشف أن واحدة من أسنان فكه العلوى على وشك السقوط، فكر فى أن يتأوه ويسمع خالته، لكنه أيقن أنه لو فعل ذلك فإن خالته ستقوم بخلع سنه وسيؤلمه ذلك؛ لذا قرر تأجيل الموضوع إلى وقت آخر. تذكر أنه سمع الطبيب يتحدث عن مرض

يؤدى إلى إعاقة المريض لأسبوعين أو ثلاثة ويؤدى لأن يفقد المريض إصبعًا من أصابعه. أخرج إصبع قدمه من تحت الغطاء وتفحصه ولكنه لم يعرف ما هى الأعراض التى يجب أن توجد. رغم ذلك قرر أن يجرب، فأخذ فى التألم بشدة ليُسمع سيدنى، لكن سيدنى رغم ذلك استمر فى نومه. تألم توم بصوت أعلى وكأنه يحس بالألم فى إصبع قدمه، ولم يستجب سيدنى. أخذ توم فترة من الراحة ثم عاد للتألم بشدة، لكن سيدنى ظل مستمرا فى نومه. اغتاظ توم فأخذ يهز سيدنى قائلا: "سيدنى، سيدنى" تثاءب سيدنى مستيقظا والتفت محملقًا فى توم الذى استمر فى التأوه. سأله سيدنى:

– ما الأمر يا توم؟ .. لم يرد توم، فسأله ثانية:

– ما الأمر يا توم؟ ونظر فى وجهه بقلق.

رد توم:

– لا تهزنى يا سيدنى أرجوك..

– لماذا، ما الأمر يا توم؟ يجب أن أستدعى خالتى.

– لا، سوف يذهب الألم، لا تستدعى أحداً.

– ولكنى يجب أن أفعل، إنك تتألم يا توم. هذا شىء مرعب. كم من الوقت مضى عليك هكذا؟

– لساعات..

– إذن لماذا لم توقظنى؟ أرجوك لا تتألم هكذا فإن ذلك يصيبنى بالهلع. قل لى ما الذى ألمَّ بك؟

– أنا أسامحك عن كل شيء يا سيدني.. كل شيء فعلته بي. عندما أصبح ميتا..

– توم، هل أنت تحتضر؟ لا تفعل يا توم ..

– أنا أسامح الجميع.. قل لهم ذلك ياسيدني. عليك أن تعطي قطتي العوراء للفتاة التي جاءت حديثا إلى القرية..!!

ارتدى سيدني ملابسه وخرج، وكان توم يتألم بالفعل، مما جعل صوته وهو يتألم له رنين .. هبط سيدني الدرج بسرعة وهو يصيح قائلا:

– خالتي بولي، تعالى بسرعة .. توم يحتضر.

صاحت بهلع:

– يحتضر!!

– نعم، أسرعي..

– ماذا تقول؟ أنا لا أصدق ذلك!

أسرعت الخالة تصعد الدرج بصحبة سيدني وماري وقد امتقع لونها وارتعشت شفتاها، وبعد أن وصلت إلى حافة الفراش صرخت:

– توم، ماذا بك؟

– إنني يا خالتي..

– ماذا بك؟ ، ماذا جرى لك يا صغيري؟

– إصبع قدمي يؤلمني بشدة..

ارتمت السيدة العجوز على مقعد وضحكت قليلا حتى استجمعت قواها وصاحت:

– توم، لقد أخفتني، اسكت الآن واخرج من هذه الحالة.

توقف صوت تأوهاته واختفى الألم من إصبعه فجاة، وأحس توم بالغباء وقال:

– يا خالتي، لقد كان يؤلمني بشدة لدرجة نسيت معها آلام أسناني.

– أسنانك! وما الذى أصاب أسنانك هي الأخرى؟

– واحدة منها على وشك السقوط وتؤلمني بشدة..

– اهدأ الآن ولا تتأوه مرة أخرى. افتح فمك.. سِنّتك سائبة بالفعل ولكنك لن تموت بسببها.. أحضرى لى خيطًا حريريًا يا مارى وجذوة نار من المطبخ..

قال توم:

– أرجوك يا خالتي، لا تخلعيها. إنها لا تؤلمنى الآن. أنا لا أريد البقاء بالبيت وسأذهب للمدرسة.

– أنت لا تريد ذلك بالفعل ؟ وكل هذا الهراء لأنك اعتقدت أن بإمكانك البقاء فى البيت وعدم الذهاب للمدرسة، وأن بمقدورك الذهاب للصيد بدلا من مدرستك؟ توم، أنا أحبك جدا، وأنت تجرب كل طريقة لكى تكسر قلبى العجوز بأفعالك المشينة.

(٢)

في هذه اللحظة كانت الأدوات التي ستستخدم في خلع السِّنَّة جاهزة. ربطت السيدة العجوز طرف الخيط بسِنَّة توم وربطت الطرف الآخر بعامود السرير، وأمسكت بجذوة النار وفجأة قربتها بشدة من وجه توم الذي ابتعد برأسه بسرعة للخلف وصارت السنة تتأرجح في الهواء معلقة في طرف الخيط.

ولكن دائما ما تكون هناك تعويضات، فعندما ذهب توم للمدرسة بعد الإفطار، كان محط حسد كل الصبية الذين قابلهم بسبب الفجوة الموجودة في فمه مكان السنة المخلوعة، والتي كانت تمكنه من البصق بطريقة جديدة مثيرة للإعجاب. جمع حوله جمعا من الصبية الذين جذبهم المشهد بما فيهم الصبي الذي جرح إصبعه، وكان ينافسه في الإعجاب، والذي وجد نفسه فجأة بلا صاحب وقد ولى مجده. كان قلبه ثقيلا وقال إن عدم القدرة على البصق مثل توم سوير ليس بالأمر المهم، ولكن صبياً آخر قال له إنما أنت عاجز عن فعل ذلك، مما جعله يبتعد عن المكان كبطل زال مجده.

(٣)

بعد دقائق قابل توم منبوذ القرية، هكلبري فِنْ، ابن سكير القرية. كان هكلبري مكروها من كل الأمهات لأنه كان متسكعا وسوقيا وسيئ الخلق، ولأن كل الأطفال كانوا معجبين به ومسرورين من صحبته

المحرمة عليهم ويتمنون لو أنهم كانوا مثله، كان توم كغيره من الصبية المحترمين يحسده على وضعه كمنبوذ، وكانت لديه أوامر صارمة ألا يلعب معه. لكن توم كان يلعب معه كلما سنحت الفرصة. كان هكلبرى دائما ما يرتدى ملابس قديمة رثة تخص رجالا كباراً وكانت قبعته ممزقة تظهر منها فجوة فارغة من الأمام، أما معطفه الذى كان يلبسه فكان يتدلى إلى كعبيه، وحمالة واحدة تمسك بسرواله الذى كانت أرجله أطول من قدميه، فكانت أرجله تغوص فى القاذورات والوحل عندما لا يطوى أرجل سرواله لأعلى.

كان هكلبرى يروح ويجيء كما يشاء، وينام على سلالم المداخل حين يكون الطقس لطيفا، وأحيانا فى البراميل حين يكون الجو ممطراً، ولم يكن مضطرا للذهاب للمدرسة أو الكنيسة أو ينادى أحدا بـ "سيدى" أو يطيع أوامر أحد، كان يستطيع الذهاب لصيد السمك أو السباحة متى أراد، وأن يظل متسكعًا للفترة التى يريدها. كان هو أول من يسير عارى القدمين عند حلول الربيع، وآخر من يرتدى ملابس نظيفة، وكان يستخدم ألفاظًا غاية فى السوء عندما يسب أحداً. باختصار، يملك كل ما يجعل الحياة كريهة. هذا ما كان يعتقده كل صبى فى سانت بترسبرج.

نادى توم على المنبوذ قائلا:

– ما هذا الذى تحمله؟

– قطة ميتة.

– دعنى أراها. إنها جميلة أين وجدتها؟..

– لقد اشتريتها من صبي..

– كم دفعت فيها؟..

– دفعت بطاقة زرقاء..

– ومن أين حصلت على البطاقة الزرقاء؟

– من بن روجرز منذ أسبوعين مقابل طوق من الخشب..

– وما قيمة القطة الميتة يا هك؟

– إنها تعالج الثآليل الجلدية..

قال توم متعجبا:

– عجيب، ولكني أعرف ما هو أفضل..

– وما هو؟

– ماء الشجاعة!..

صاح هك بسخرية:

– ماء الشجاعة؟ أنا لا أهتم بذلك..

– ولكن هل جربته يوما؟..

– لا، لم أجربه ولكن بوب تانر جربه..

– ومن أخبرك بذلك؟..

– هو قال لجيف ثاتشر، وجيف أخبر جوني بيكر وجوني أخبر صبي زنجي، والصبي الزنجي أخبرني.

– وماذا في ذلك؟ لقد كانوا جميعا يكذبون خاصة الصبي الزنجي. أنا لا أعرفه ولكني لم أرَ زنجيًا لا يكذب. والآن تقول إن بوب تانر جربه..

– لقد غمس يديه في جذع شجرة بها عفن من ماء مطر..

– أكان ذلك في وضح النهار؟..

– بالتأكيد..

– أكان وجهه للجذع؟..

– نعم، أعتقد ذلك..

– وهل كان يردد شيئا عندما فعل ذلك؟

– لا أعتقد أنه كان يفعل.. لا أعرف..

– تتحدث عن شفاء الثآليل بماء الشجاعة بهذه الطريقة الخرقاء التي لا تؤدي إلى شيء. على المرء أن يقوم بذلك بنفسه في قلب الغابة حيث يوجد ماء الشجاعة في جذوع الشجر المقطوع، وعند منتصف الليل تقف في مواجهة الجذع وتضع يدك فيه وتقول:

– شعير.. ذرة.. شعير.. ذرة.. شعير.. ذرة، ماء الشجاعة.. ماء الشجاعة، اشف تلك الثآليل، ثم ابتعد مسرعا لمسافة إحدى عشرة خطوة وعيناك مقفلتان، ثم تلف ثلاث مرات وتسير في اتجاه البيت دون أن تكلم أحدا، لأنك لو كلمت أحداً فإن التعويذة سيفسد مفعولها.

أجابه هيك:

- هذا يبدو أسلوبا طيبا ولكنه ليس ما فعل بوب تانر..

- لا يا سيدى، تستطيع أن تراهن أنه لم يفعل، لأنه أكثر الصبية إصابة بالثآليل فى القرية ولم يكن ليصاب بها لو عرف كيف يعمل ماء الشجاعة. لقد تخلصت من آلاف الثآليل من يدى بهذا الأسلوب. أنا ألعب بالضفادع كثيراً مما يجعلنى أصاب بكثير من الثآليل. أنا أحيانا أتخلص منها بحبة فول.

- نعم، الفول فعّال فقد جربته..

- وكيف فعلت ذلك؟..

- تكسر حبة الفول إلى فلقتين وتشق الثآليل لإخراج بعض الدماء منها ثم تضع الدم على فلقة منها وتحفر حفرة صغيرة ثم تدفن الحبة فيها فى منتصف الليل عندما يكون القمر غائبًا، ثم تحرق الشق الآخر من حبة الفول. الشق الذى يحتوى على الدماء سوف يظل يبحث عن الشق الآخر مما سيساعد على سحب الدم من الدمل وشفائه.

- نعم يا هك هذا هو الحل رغم أنك عند دفنها يجب أن تقول: "إلى أسفل أيتها الحبة ولا تعودى لمضايقتى ثانية". هذا ما يفعله جو هابر الذى ذهب بالقرب من كونفينيل وما حولها.

سكت هك ولم يعقّب.. فسأله توم:

- ولكن أخبرنى كيف تعالج الثآليل بالقطط الميتة؟

قال هيك:

- تأخذ قطتك إلى المقبرة قبل حلول منتصف الليل إلى مكان دفن فيه أحد الأشرار، وعندما يحل منتصف الليل سوف يخرج شيطان وربما اثنان أو ثلاثة، وبالطبع لن تستطيع رؤيتهم، سيمكنك فقط سماع صوت كصوت الريح، أو تسمعهم يتحدثون.. وعندما يأخذون ذلك الشخص بعيداً تقذف بقطتك وراءهم قائلا: "الشيطان يتبع الجثة، والقطة تتبع الشيطان والدمامل تتبع القطة. لقد انتهيت منك ولن تصيبنى أية دمامل.

سأل توم:

- ولكن هل جربت ذلك يا هك؟

- لا، ولكن الأم هوبكنز أخبرتنى.

- أعتقد أن الأمر صحيح لأنهم يقولون إنها ساحرة..

- أنا أعرف أنها كذلك، لقد سحرت أبى وهو يقول إنها فعلت ذلك. لقد رآها يوما تسحره فأمسك بحجر، ولولا أنها هربت لتمكن منها. وفى الليلة نفسها سقط وهو مخمور وكسرت ذراعه..

- هذا مرعب.. وكيف عرف أنها تسحره؟

- أبى يستطيع أن يعرف، فهو يقول إن السحرة عندما يظلون ينظرون إليك بإمعان فإنهم يسحرون لك وخاصة إذا كانوا يهمسون، لأنهم عندئذ يتلون آيات الله معكوسة..

– إذن متى ستحاول استخدام القطة؟

– الليلة، أعتقد أن الشياطين سيأتون لأخذ هوس وليامز الليلة..

– ولكنه دفن يوم السبت. ألم يأخذوه ليلة السبت؟

– وكيف تعمل تعويذتهم قبل منتصف الليل؟ وعندها يكون قد أتى يوم الأحد والشياطين لا يعملون أيام الآحاد كما أعتقد..

– لم أفكر فى ذلك، دعنى أذهب معك..

– بالطبع، ما لم تكن خائفاً..

– خائف!، الخوف ليس من طباعى، هل ستموء كالقطة؟

– نعم، وستموء أنت أيضًا فى المقابل إذا سنحت لك الفرصة. ففى آخر مرة ظللت أموء إلى أن قذفنى هايز العجوز بالحجارة وهو يصيح: اللعنة على هذه القطة.. مما جعلنى أقذف نافذته بالحجارة، ولكن لا تقل ذلك لأحد.

– لن أفعل، أنا لم أستطع المواء في تلك الليلة لأن خالتى كانت تراقبنى، ولكنى سأموء هذه المرة.. وما هذا الشىء؟

– إنها ضفدعة..

– من أين حصلت عليها؟

– من الغابة.

– ماذا تأخذ مقابلها؟

- لا أعرف، فأنا لا أريد بيعها..

- إنها ضفدعة صغيرة جدا على أى حال..

- إنها تناسبنى وأنا سعيد بها..

- هناك الكثير من الضفادع.. يمكننى الحصول على الآلاف منها إذا رغبت.

- ولماذا لا تفعل؟

فكر توم قليلا ثم صاح:

- انظر يا هك، سأعطيك سِنّتى فى المقابل..

- دعنى أرها..

أخرج توم ورقة مطوية وفتحها بعناية. نظر هك إليها وكان الإغراء كبيرًا .. فسأله:

- هل هى أصلية؟

رفع توم شفته وأراه مكانها فى فمه..

صاح الآخر:

- حسن، لقد قبلت المبادلة.

وضع توم الضفدعة فى العلبة ذات الغطاء التى كان يضع فيها البقة القارصة وافترق الصبيان وكل منهما يعتقد أنه اقتنص شيئا من الآخر.

(٤)

عندما وصل توم إلى قرب المدرسة، سار بنشاط كما لو كان ذو عزيمة صادقة. بعد أن دخل الفصل خلع قبعته وارتمى على مقعده.

كان المدرس يجلس في كرسيه العالي وهو ينعس فأيقظه دخول توم.. صاح حين رآه:

– توماس سوير!!

كان توم يدرك أنه يناديه باسمه كاملا يعنى قدوم المشكلات.

– نعم سيدى..

– تعال إلى هنا. الآن، لماذا تأخرت كالعادة؟

كان توم على وشك أن يحتمى بكذبة، عندما رأى الفتاة ذات الشعر الأصفر تجلس في المقعد الخالى الوحيد من الصف المخصص للفتيات فأجاب بسرعة:

– توقفت في طريقي للحديث مع هكلبرى فِنْ.

نظر إليه المدرس بذهول وتوقف الدرس وسرت همهمة بين التلاميذ وراحوا يتساءلون.. هل فقد هذا المعتوه عقله؟

سأله المدرس باستغراب:

– ماذا فعلت؟

– توقفت للحديث مع هكلبرى فِنْ.

– توماس سوير، هذا أسوأ اعتراف سمعته، ولا علاج لهذا الذنب سوى العصا. اخلع سترتك..

أخذ المدرس في ضربه إلى أن تعب فتوقف عن ضربه وصاح:

– الآن، اذهب واجلس مع الفتيات وليكن هذا إنذاراً لك..

كانت الضحكات المكتومة التي سرت في الفصل تضايق توم، وكان ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى وجود معبودته المجهولة في الفصل ومشاهدتها له وهو يضرب.

جلس في مؤخرة الصف وابتعدت الفتاة عنه وأدارت وجهها .. استمر الغمز واللمز في الفصل ولكن توم جلس ساكنا وذراعاه مفرودتان أمامه، وانشغل بالقراءة في كتابه. وانصرف التلاميذ عنه تدريجيا وعادوا إلى الدرس مرة أخرى. أخذ توم في النظر خلسة إلى الفتاة التي لاحظت نظراته وأعطته ظهرها، وعندما أدارت رأسها مرة أخرى وجدت أمامها خوخة فأطاحت بها بعيدا، فأعادها توم مرة أخرى أمامها.. فأطاحت بها مرة أخرى ولكن بقوة أقل. أعادها توم مرة أخرى أمامها فتركتها مكانها!، فقال لها توم هامسا:

– أرجو أن تأخذيها فلديَّ منها الكثير..

نظرت الفتاة إليه ولم تعطه أي اهتمام. انشغل توم برسم شيء في اللوح الخشبي الخاص به وهو يخفيه بيده اليسرى. رفضت الفتاة النظر لفترة ولكن فضولها كان قويا فنظرت إليه محاولة أن تعرف ماذا يفعل، ولكن توم ظل يرسم ولم يبد اهتماما بها، وأخيرا همست له:

– دعني أرى ذلك..

(٥)

أراها توم الرسم الذى كان لبيت يخرج الدخان من مدخنته. بدأ اهتمام الفتاة يتزايد بالرسم ونسيت كل شىء آخر، وعندما انتهى من الرسم نظرت فيه تتأمله ثم همست له:

- إنه لطيف، ارسم رجلا..

رسم توم رجلا أمام المدخل فأعجبها الرسم، همست له ثانية:

- إنه رسم جميل، ارسمنى فى اللوحة..

رسم توم دائرة تخرج منها أربعة أطراف ووضع فى أصابع اليد مروحة. قالت الفتاة:

- إنه رائع، أتمنى لو استطعت أن أرسم مثلك..

- إنه أمر سهل، سأعلمك..

- هل تفعل؟ متى؟

- عند الظهر. أتذهبين للبيت للغداء؟

- سأبقى إذا كنت ستبقى.

- حسن، هذا اتفاق.. ما اسمك؟

- بيكى ثاتشر، وما اسمك؟.. لكن سرعان ما صاحت.. آه.. إننى أعرف، أنت توماس سوير..

قال بتذمّر:

- هذا هو الاسم الذى يضايقوننى به، أنا توم عندما أكون طيِّبا.. نادنى بتوم من فضلك..

- سأفعل..

بدأ توم في رسم شيء في اللوح الخشبي وهو يخفيه عن الفتاة، ولكنها ألحت عليه أن تراه، قال توم:

- إنه لا شيء..

- بل إنه شيء ما.

- لا.. أنت لا ترغبين في رؤيته..

- بل، أرجوك دعني أراه.

- سوف أريه لك بشرط ألا تبوحي بذلك..

- لا لن أفعل..

- لن تقولي لأحد على الإطلاق؟ أبدا طوال حياتك؟

- لن أقول لأحد، الآن أرني ما رسمت..

- أتريدين رؤيته حقا؟

- حيث إنك تعاملني بهذه الطريقة، فسوف أراه..

وضعت الفتاة يدها الصغيرة على يده، وحاول توم المقاومة ولكنه ترك يده في يدها وهمس لها:

- أنا أحبك..

ابتسمت برقة وقالت:

- أنت مشاغب.. ثم دفعت يده برقة وقد اكتسى وجهها بالحمرة وبدت مسرورة رغم ذلك.

في هذه اللحظة أحس توم بقرصة قوية فى أذنه، وسمع صيحات وهمهمة بين التلاميذ.. كان المدرس يقف أمامه في تلك اللحظة، بعدها سار إلى كرسيه دون أن يقول كلمة واحدة. ولكن رغم الألم الذى كان يشعر به في أذنه، كان قلبه مسرورا.

عندما هدأت المدرسة كان توم يبذل جهدا صادقا في الدرس ولكن ما بداخله كان أقوى من ذلك الدافع. أخذ دوره بعد ذلك في القراءة، وفي درس الجغرافيا كان مرتبكًا فجعل البحيرات جبالا والجبال أنهارا، والأنهار قارات. وفي درس الهجاء فشل في تهجي كلمات يعرفها الأطفال الصغار.



الفصل السابع

سباق القراءة.. وقلب كسير

(١)

كان توم كلما حاول التركيز فى القراءة تزاحمت الأفكار فى رأسه، وأخيراً، ترك الكتاب ولم يعد مهتما.. بدا له أن وقت فسحة الظهيرة لن يجيء أبدا. كان الهواء ثقيلا وخانقا وبلا نسمة هواء على الإطلاق. كان يومًا مملا وهمسات التلاميذ تطن فى أذنيه وكأنها طنين الذباب. على مرمى البصر وتحت الشمس المشرقة تبدت له خضرة تل كاردف وبعض الطيور تحوم بكسل فى الهواء ولم يكن هناك بشر أو أى مخلوقات حية سوى بعض الأبقار التى كانت تسترخى فى تكاسل. تاقت نفسه للحرية أو لشيء يسليه ويقطع به الوقت. راح يعبث فى جيبه فأشرق وجهه بالرضا. أخرج العلبة وأطلق الضفدعة على سطح المكتب، وما إن حاولت القفز حتى راح توم يحولها عن مسارها بأصابعه لتبقى مكانها.

كان صديق توم القريب لقلبه يجلس بجواره ويعانى تماما مثله، فاهتم بما يفعله توم. هذا الصديق هو جو هاربر، الذى يظل صديقا له طوال الأسبوع ثم يتقاتلان أيام السبت. أخرج جو دبوساً من جيبه وبدأ يساعده، فزادت حدة الإثارة، ولكن توم قال إنهما يتداخلان مع بعضهما فقام برسم خط على سطح المكتب فى المنتصف تمامًا من القمة إلى القاعدة وقال له:

- الآن، طالما بقيت الضفدعة فى الجانب الخاص بك يمكنك اللعب معها وسأترك لك ذلك، ولكن إذا جاءت إلى الجانب الخاص بى فعليك أن تتركها.

رد الآخر موافقا على اقتراحه:

- أوافق، وعليك أن تبدأ..

هربت الضفدعة من توم وعبرت الخط المرسوم، وقد أثارها جو فهربت منه وعبرت الخط. تكرر ذلك كثيرا وقد أحنى كل منهما رأسه تجاه المكتب ونسوا كل شىء حولهما .. أخيراً حالف الحظ جو، الذى استطاع أن يبقى الضفدعة فى المساحة الخاصة به بلمسات دبوسه. لم يحتمل توم ذلك فأمسك بالضفدعة وهى فى المساحة الخاصة بجو، الذى غضب قائلا:

- توم، اتركها لحالها..

- أريد فقط أن ألعب بها قليلا يا جو..

- لا يا توم، هذا ليس عدلا، اتركها لحالها.

– لن آخذ وقتا طويلا.

– اتركها لحالها.. أرجوك.

– لن أتركها..

– سوف تفعل، فهى فى الجانب الخاص بى،

– أنت تعلم أنها ملك لى..

– لا يهمنى.. إنها فى الجانب الذى يخصنى ولن تلمسها..

– سوف أفعل، فهى تخصنى أنا وسأفعل ما يحلو لى بها..

سقطت قبضة هائلة على كتف توم ومثلها على كتف جو، لدرجة أنها أثارت الغبار من سترتيهما، وكان الفصل كله يراقب ذلك المشهد. كان الصبيان مستغرقين تماماً فى اللعب مع الضفدعة لدرجة أنهما لم يلاحظا الصمت الذى خيم على المكان عندما دخل المدرس على أطراف أصابعه إلى الفصل ووقف أمامهما. كان قد راقب المشهد لفترة قبل أن يوقع ضرباته المفاجئة على كتفيهما.

(٢)

عندما دقَّ جرس الفسحة، أسرع توم إلى بيكى ثاتشر وهمس فى أذنها:

– ضعى قلنسوتك وكأنك ذاهبة إلى المنزل وعندما تصلين إلى المنعطف، تخلّصى من رفاقك وعودى إلى هنا وسأفعل مثلك..

ذهب كل منهما مع رفاقه من التلاميذ وبعد فترة قصيرة عادا إلى فناء المدرسة الذى خلا تماما إلا منهما. جلسا أمام لوح خشبى، أعطى توم قلما لبيكي وأمسك بيدها في يده يوجهها لترسم بيتا آخر، وبعد أن قضيا وقتًا فى الاستمتاع بالرسم، أخذ الاثنان يتجاذبان الحديث، وكان توم يسبح فى السعادة فسألها:

- هل تحبين الفئران؟

- لا، أنا أكرهها..

- وأنا أكرهها أيضا، خاصة عندما تكون حية. أما الفئران الميتة فأنا لا أطيقها.

- أنا لا أهتم بالفئران إطلاقا.. أما ما أحبه هو اللبان..

- كنت أود لو كان معي شيئا منه الآن..

- لديَّ بعض منه.. سأدعك تمضغه لبعض الوقت وعليك أن تعطيه لي ثانية.

واتفقا على ذلك وراحا يمضغان اللبان بالدور وقد وضعا أرجلهما على المقعد فى رضا.

سألها توم:

- هل ذهبت يوما إلى السيرك؟

- نعم، وسيأخذنى أبى ثانية إلى السيرك في وقت ما إذا كنت حسنة السلوك..

- لقد ذهبت إلى السيرك ثلاث أو أربع مرات. الكنيسة لا تشبه السيرك.. ففي السيرك أحداث تجرى طوال الوقت. سأصبح مهرجًا فى السيرك عندما أكبر..

- سيكون ذلك لطيفا، فالمهرجون ظرفاء بألوانهم المبهجة.

- نعم، ويحصلون على الكثير من المال.. هكذا يقول بن روجرز.

ثم سكت لحظة وسألها:

- هل خطبت يا بيكي..؟

- وما هو ذلك؟

- خطبت لتتزوجي!

- لا..

- أتحبين أن تكون مخطوبة؟

- لا أعرف كيف يكون ذلك؟

ضحك مستغربا لسؤالها وقال:

- كيف يكون؟ إنه ليس كأى شيء آخر، فعندما تقولين لأحد الأولاد بأنك لن تكونى أبدا لأى شخص آخر سواه ثم تعطيه قبلة .. هذه هى الخطوبة..

- أعطيه قبلة؟ لماذا؟

- هذا ما يفعله الناس عادة..

- كل الناس؟!

- نعم، كل الناس الذين يحبون.. أتذكرين ما كتبته في اللوح الخشبي؟

- نعم..

- وماذا كان؟

- لن أقول..

- هل أقول أنا؟

- نعم، ولكن في وقت آخر..

- متى..؟

- غدا..

- سأقول الآن، أرجوك يا بيكي.. سأهمس بها فقط..

ترددت بيكي وفهم توم من سكوتها أنها لا تمانع، فوضع ذراعيه حول خصرها ووضع فمه عند أذنها وهمس لها برقة ثم أضاف:

- الآن عليك أن تهمسي بها كما فعلت أنا..

قاومت قليلا ثم قالت:

- أدر وجهك حتى لا ترى، وسأفعل ولكن عليك ألا تخبر أحداً يا توم..

- بالتأكيد لن أفعل. الآن هيا يا بيكي..

مال بوجهه بعيداً ومالت الفتاة تجاهه وهمست له "أحبك".

(٣)

أفلتت بيكي منه وأخذت تعدو وتدور حول المكاتب وتوم وراءها، ثم وقفت في ركن من الفصل وقد غطت وجهها بيديها.. لحق بها توم وابتسم لها وقال:

- لقد تم كل شيء فيما عدا القبلة، عليك ألا تخافي من ذلك.. إنها لا شيء بالمرة.. أرجوك يا بيكي..

أخيرا استسلمت بيكي وسمحت لذراعيها أن يسقطا إلى جانبها وقد احمر وجهها. فقام توم بتقبيلها.. وبعد أن انتهى.. قال:

- لقد تم كل شيء الآن يا بيكي.. من الآن لن تحبي أحداً سواي ولن تتزوجي من غيري أبدا أبدا. أليس كذلك؟

- لا، لن أحب أحداً سواك يا توم ولن أتزوج من غيرك وأنت لن تتزوج من غيري..

- بالتأكيد.. فهذا طبيعي وعند الذهاب للمدرسة أو البيت ستسيرين معي عندما لا يراقبنا أحد، وعندما نكون في حفل ستختارينني وأختارك، لأن هذا هو الحال عندما نكون مخطوبين.

- هذا رائع ولم أكن أعرفه من قبل..

- لم يكن بهذه الروعة عندما كنت مع آني لورنس..

أدرك توم من نظرتها سقطته الكبرى.. فتوقف عن الكلام مضطربا.

- إذن فلست أنا أول من تخطب يا توم.

بدأت الفتاة في البكاء.. فقال توم:

- لا تبكي يا بيكي فلست مهتما بها الآن..

- بل أنت مهتم بها..

حاول توم أن يضع ذراعه حول رقبتها ولكنها دفعته بعيدا وأعطت وجهها للحائط وهي تبكي .. حاول توم مرة أخرى بكلمات الاستعطاف ولكنها صدته، فغلبه كبرياؤه وانسحب من أمامها وخرج، ووقف حائراً ينظر للباب بين الحين والآخر على أمل أن تندم وتخرج تبحث عنه. ولكنها لم تفعل. كان يحس بالخوف من أن يكون قد ارتكب غلطة وزل لسانه وأحس بالندم قويا في داخله، خشي أن يدخل ويكلمها مرة أخرى، ولكنه تشجع ودخل الفصل ثانية. كانت لا تزال تقف في الركن تنتحب ووجهها للحائط. ذهب توم إليها ووقف مرتبكًا لا يعرف كيف يتصرف، وأخيرا قال بتردد:

- بيكي، أنا لست مهتمًا بأحد إلا بكِ..

لم تجبه.. واستمرت في البكاء.. فقال بخجل:

- بيكي، ألا تقولين شيئا؟

لم تجبه أيضا، فأخرج توم أغلى ما يملكه وهو مقبض نحاسي لامع ومرره أمام عينيها لتراه قائلا:

- أرجوك يا بيكي أن تأخذيه..

ضربت بيكى يده فسقط المقبض على الأرض وخرج توم من الفصل وعبر التل وذهب بعيداً عازما على عدم العودة للمدرسة فى ذلك اليوم.
جرت بيكى إلى الباب، ولكنه لم يكن هناك، ذهبت إلى الفناء ولم تجده.. فصاحت بأعلى صوتها:

- توم، عد يا توم..

ولكنها لم تسمع إجابة.. لم يكن هناك سوى الصمت والوحدة. جلست تبكى ثانية إلى أن بدأ التلاميذ فى العودة للمدرسة، وكان عليها أن تخفى أحزانها وتداوى قلبها الكسير وتُمضى بقية اليوم وهى تتألم.



الفصل الثامن

مولد قرصان شجاع

(١)

تجوَّل توم هنا وهناك عبر الطرقات إلى أن ابتعد عن طريق عودة التلاميذ، وكان فى حالة مزاجية سيئة. عبر قناة مائية ضيقة مرتين وثلاثا على أمل أن يتحسن مزاجه وفقا للتعويذة الشائعة بين الصغار عن أن العبور فوق الماء يبدل المزاج السيئ. بعد نصف ساعة كان يختبئ خلف منزل آل دوجلاس على قمة تل كاردف حيث لا تكاد المدرسة تظهر فى الوادى الذى يقع خلفه. دخل إلى منطقة كثيفة النباتات وأخذ طريقه إلى منتصف الغابة وجلس فى منطقة كثيفة الأشجار تحت شجرة ضخمة. لم تكن هناك نسمة هواء وأدت حرارة الظهيرة إلى أن تأوى الطيور إلى أعشاشها، وسقطت الطبيعة فى صمت مطبق لا يقطعه صوت سوى الصوت الناجم عن نقيق الضفادع الذى زاد من إحساسه بالوحدة والعزلة. كانت روحه مضطربة، فجلس طويلا ضامًا ركبتيه بمرفقيه يتأمل ما حوله. بدت له الحياة فارغة وما هى إلا متاعب متصلة.

كان يفكر في الموت ويحسد صديقه جيمي هودجز الذى مات في العام الماضي، وكان متأكدا أنه ينعم بالسلام حيث يرقد حالما للأبد والريح تهمس له عبر الأشجار وتهدهد العشب والزهور فوق قبره، ولا شيء إذن يستلزم أن يهتم أو يحزن عليه. فلو أن سجله في مدرسة الأحد كان جيدا لكان على استعداد للموت والتخلص من كل شيء يزعجه. والآن، ما بال تلك الفتاة؟! هو لا يدرى ما الذى فعله لها؟ لقد كان قصده طيبا، ولكنها عاملته كالكلب، وهي ستندم يوما ما. كان في داخله يتمنى لو استطاع أن يموت مؤقتا.

(٢)

تجاوز توم أحزانه واسترجع اهتمامه بالحياة مرة أخرى، كان يفكر فيما لو أدار ظهره لها واختفى في غموض! ماذا سيكون عليه الأمر لو فرَّ بعيداً وبعيداً جدا إلى بلاد مجهولة وراء البحار ولم يعد ثانية، كيف ستشعر عندئذ؟ كانت فكرة أن يصبح مهرجا قد عادت إلى عقله ثانية، ولكنه لم يستسغها، وملأته بالسخط لأن تلك الشخصية تعد حقيرة بالنسبة لروح كانت تتسامى في رومانسية رائعة. إنه سيصبح جنديا، وسيعود بعد سنوات طويلة بعد أن تنهكه الحروب. لا.. من الأفضل أن يذهب إلى الهنود الحمر ويصطاد معهم الجاموس، ويحارب معهم في الجبال والسهول ويعود زعيما عظيما يلبس الريش وفي يده رمح ويدخل إلى مدرسة الأحد في صباح يوم صيفيٍّ ليخطف أبصار رفاقه وينتزع

إعجابهم. ولكن لا، فهناك ما هو أعظم من ذلك. سوف يصبح قرصانا. هذا هو الحل. الآن أصبح المستقبل واضحاً، بالنسبة له، يلمع فى عقله، سوف يملأ اسمه آفاق العالم ويجعل الناس ترتعد خوفا، سوف يذهب ليركب أمواج البحر الصاخبة فى قارب طويل سوف يسميه "روح العاصفة" وعلمه سوف يخفق فى مقدمته، وفى قمة شهرته سيظهر فى القرية القديمة ويدخل الكنيسة وقد لوحته الشمس، وسوف يلبس ثوبا أسود وحذاء طويل الرقبة وحزاما لامعًا به المسدس ويتدلى منه سيفه إلى جانبه والعلم الأسود يرفرف بالجمجمة والعظمتين المتقاطعتين ويسمع بنشوة همسات الناس وهم يقولون "إنه توم سوير القرصان، المنتقم الأسود.. ملك البحار الإسبانية".

نعم، لقد حسم الأمر وتقرر مستقبله، سوف يهرب من البيت ويصبح قرصانا وسيبدأ على الفور فى صباح الغد، لذا فعليه الاستعداد من الآن وسوف يجمع كل مايملكه فى مكان واحد. ذهب إلى لوح خشبى قريب وبدأ يحفر أسفله بالمطواة إلى أن وصل إلى منطقة جوفاء حيث وضع يده وردد الكلمات التالية:

"ما لم يأتِ إلى هناك، فليأت وما هو هنا، فليبق". ثم كشف جذع شجرة على شكل صندوق من الخشب وبداخله بلية رخامية، لكن دهشته كانت بلا حدود، هرش رأسه مضطربا وقال:

هذا يتجاوز كل ما هو معقول!..

(٣)

قـذف بالبلية بعـيـدا ووقف يفكر. كـانت تعـويذته قـد فـشلت رغم اعتقاده هو ورفاقه أنها لا تفشل. فقد كان يعتقد أنه لو قام بدفن بلية من الرخـام مع تلاوة التعـويذة وتركهـا أسبوعـين ثم فـتح المكان مـع ترديد كلمـات التعويذة التى سبق وأن قـالهـا، فسوف يجد كل البلى الذى فقده وقد تجمع معا، مـهمـا كانت المسافات التى تفصل بينه. ولكن هذا الأمر قد فشل تمامًا .. الأمر الذى جعل إيمانه يتزلزل من جذوره. لقد سـمع كثيرا عن نجاح ذلك الأمر ولم يسمع مطلقا عن فشله. أدرك أنه حاول من قبل ولكنه لم يهتدِ إلى أمـاكن الإخـفـاء مـرة أخرى. أربكه الموقف قليلا.. وأخيـرا اهتدى إلى فكرة أنه ربما تكون إحدى السـاحـرات قـد تدخلت وعطلت التعويذة. تجول قليلا إلى أن وجد تلاً رمليا منخفضًا على شكل قمع، انحنى ووضع يده على فمه، وقال بصوت منخفض:

"ياخنفساء الحقل، ياخنفساء الحقل، قولى لى ما أريد أن أعرف".

بدأ الرمل فى الانحسار وظهرت خنفسـاء سوداء وجرت وعـادت للاختفاء تحت الرمل مرة أخرى. قال توم فى نفسه:

- لم تقل الخنفسـاء شيئا .. إذن لقد أفسدت ساحرة تلك التعويذة كما قلت.

كان يعرف عدم جدوى الصراع مع الساحرات، فترك الأمر برمته، ولكن فكر فى أن يحصل على البلية التى طوح بها بعيدا، فذهب للبحث عنها ولكنه لم يجدها. عاد إلى الشجرة التى بها الصندوق الخشبى،

ووقف في المكان نفسه الذى كان يقف فيه عندما طوح بالبلية بعيدا، وأخذ بلية أخرى من جيبه وألقى بها بالطريقة نفسها وقال:

– اذهبى وعودى بأختك..

انتظر وراقب المكان الذى سقطت فيه وذهب إلى هناك ونظر لكنه لم يجد البلية، فكر فى أنها قد تكون ذهبت لأبعد من ذلك.. بحث مرة أخرى فذهب لأبعد قليلا، فوجد البليتين على بعد قدم من بعضهما.. لكنه سمع صوتًا خفيفًا لطبلة من الصفيح وهى تدق. خلع سترته وسرواله وأبعد بعض الأغصان عن اللوح الخشبى كاشفًا عن قوس وسهم وسيف وطبلة من الصفيح، أمسك بهذه الأشياء وأسرع الخطى وليس عليه سوى القميص. توقف تحت شجرة وبدأ فى السير على أطراف أصابعه وهو ينظر بحذر هنا وهناك وصاح:

– تماسكوا أيها الرجال، واختبئوا إلى أن أضرب.

(٤)

ظهر جو هاربر مسلحا مثل توم. قال له توم بدهشة:

– ما الذى جاء بك إلى الغابة بدون إذنى؟

– رجال جيزبورن لا ينتظرون إذنًا من أحد. من أنت؟

رد الآخر غاضبًا:

– أتجرؤ على الكلام معى بهذه الطريقة؟ أنا روبن هود.

– أأنت طريد العدالة الشهير؟ إذن سوف أنازلك.

أخذ كل منهما سيفه، واتخذا وضع النزال، وبدءا في صراع مرير.

أخيرا قال توم:

– اسقط يا جو، لماذا لا تسقط؟

– لن أسقط، لماذا لا تسقط أنت؟

– لا يمكنني أن أسقط، فليس هذا ما هو موجود في قصة روبن هود.. القصة تقول: "وبضربة واحدة من الخلف قتل الرجل الذي من جيزبورن". عليك أن تستدير وتدعني أضربك من الخلف.

لم يكن هناك مفر، فاستدار جو وضربه توم وسقط. قال جو وهو ينهض:

– الآن عليك أن تدعني أقتلك..

– لا، ليس ممكنا، إنه غير مذكور في الكتاب..

– هذا ليس عدلا..

– يمكنك يا جو أن تكون الأب تك أو تتشى ابن الطحان أو أن أكون مأمور نوتنجهام وأنت روبن هود وتقوم بقتلي.

اتفقا على ذلك وقاما بالمغامرة، ومرة أخرى تقمص توم شخصية روبن هود وفقد قوته من الجرح النازف الذي أهمله. وأخيرا، وحين كان جو يمثل قبيلة الخارجين على القانون المقهورين، سحبه جو للأمام وهو

حزين واضعًا قوسه فى يده وقال توم بضعف "أينما سقط هذا السهم تدفنون روبن هود تحت الشجرة المورقة الخضراء".. ثم أطلق السهم وكان عليه أن يموت، ولكنه قفز واقفًا بمرح.

(٥)

ارتدى الصبيَّان ملابسهما وأخفيا أشياءهما وسارا وهما آسفان على عدم وجود خارجين على القانون، وكانا يتعجبان من الخسارة التى لحقت بالمدنية الحديثة بغيابهم، وما يمكن أن يحدث لو عادوا. قال الاثنان إنهما يفضلان أن يكونا طريدين للعدالة لمدة عام فى غابة شيروود عن أن يكونا رئيسين للولايات المتحدة للأبد.

الفصل التاسع

مأساة عند المقابر

(١)

عند التاسعة والنصف من مساء تلك الليلة، ذهب توم وسيدنى إلى الفراش كالمعتاد، قاما بتلاوة صلواتهما، وغط سيدنى فى النوم، أما توم فظل مستيقظا وينتظر الفجر بنفاد صبر. عندما بدا له أن الفجر قد لاح، كانت الساعة تشير إلى العاشرة، وكان ذلك فوق احتماله. كاد أن ينفجر من الغيظ لكنه ظل على هدوئه خشية إيقاظ سيدنى، ظل يحملق فى الظلام وكل ما حوله فى هدوء وسكون. بعد قليل سمع ضوضاء خافتة وأعادته دقات الساعة إلى الانتباه. لمح ضوءًا خافتا وصوت صعود السلم ووقع أقدام على درجاته الخشبية ثم صوت شخير خالته بولى فى حجرتها، وصوت صرصار الليل الذى لا يستطيع أحد أن يعرف مصدره، وتلاه صوت نباح كلاب أت من مكان بعيد. كان توم قلقا، لكنه كان مستريحًا لفكرة أن الزمن قد توقف وأن الأبدية قد حانت. بدأ النوم يغالبه بالرغم من محاولاته البقاء صاحيا، دقت الساعة لتعلن الحادية

عشرة ولكنه لم ينتبه لها. انتبه على صوت نافذة تفتح وصوت يصيح "انصرف أيها الشيطان" وصوت زجاجة فارغة تسقط على المظلة الخشبية الملاصقة للبيت. بعد دقيقة كان قد لبس ملابسه وزحف من النافذة إلى السطح على أطرافه الأربعة وقفز إلى سقف المظلة الخشبية ومنها إلى الأرض. كان هكلبرى واقفا هناك ممسكًا بقطته الميتة. تحرك الصبي واختفى في الظلام، وبعد نصف ساعة كان الاثنان يسيران عبر الحشائش في طريقهما إلى المقابر.

كانت المقابر مبنية على الطراز القديم وتقع فوق التل على بعد ميل ونصف من القرية وحولها سياج خشبي والحشائش والأعشاب تنمو بغزارة حول المقابر. لم تكن هناك شواهد من الحجر للقبور، وإنما لوحات خشبية متآكلة تحمل عبارات مضحكة ولا يمكن قراءتها حتى لو في ضوء الشمس.

هبّت رياح خفيفة عبر الأشجار، وخشي توم أن تكون أرواح الموتى تشكو من الإزعاج. لم يتكلم الصبيان كثيرا، فقد كانت الوحشة والرهبة تضغطان على أعصابهما. عثرا على المقبرة الجديدة التي كانا يبحثان عنها واختبئا وراء بعض الأشجار القريبة منها.

انتظرا في صمت وكان صوت بومة يقطع صمت المكان. أحس توم بالرهبة، فهمس لزميله:

– أتعتقد أن الموتى يرحّبون بوجودنا هنا؟

همس هكلبرى:

- لا أعرف، لكن المكان هنا مخيف جدا، أليس كذلك؟

- إنه كذلك بالفعل..

ساد بينهما الصمت ثانية والصبيان يفكران فى الأمر، ثم همس توم:

- هكي، أتعتقد أن هوس ويليامز يسمع حديثنا؟

- بالطبع، على الأقل روحه تسمعنا..

- كنت أود أن أقول السيد ويليامز ولكننى لم أقصد أية إهانة فالجميع يسمونه هوس..

- لا يمكن أن يكون الناس حريصين عند الحديث عن الموتى كل هذا الحرص يا توم..

ساد الصمت بينهما ثانية، وبعد قليل أمسك توم بيد رفيقه قائلا:

- اسمع!

- ما الأمر يا توم؟ التصق الصبيان ببعضهما وقلوبهما ترتجف..

- هل سمعت؟ لقد سمعتها مرة أخرى.. إنها أصوات أناس قادمين إلينا.. ها هى، الآن يمكنك سماعها..

صاح هكلبرى بخوف:

- يا إلهى، إنهم قادمون.. إنهم قادمون بالتأكيد، ماذا سنفعل؟

- لا أعرف، أتعتقد أنهم سيروننا؟

– نعـم، فـهـم يسـتطيـعون الـرؤيـة فى الظـلام مـثل القطـط. ليتنى ما جئت!

صاح توم مشجعا:

– لا تخف، لا أعتقد أنهم سيبالون بنا، فنحن لا نسبب أى أذى، ولو احتفظنا بسكوننا فلربما لا يلاحظون وجودنا على الإطلاق.

– سأحاول يا توم ولكن يا إلهى.. إننى أرتعد.

– اسمع..

مال الولدان برأسيهما معا وقد حبسا أنفاسهما. سمعا أصواتًا قادمة من الجانب الآخر للمقابر.

– انظر إلى هناك! ماذا ترى؟

ردَّ توم بصوت خائف:

– إنها نيران الشياطين! هذا مرعب..

تقدم عبر الظلام عدة أشخاص أحدهم يحمل فانوسًا يلقى بنوره على الأرض هنا وهناك. بعد هنيهة همس هكلبرى مرتعداً:

– إنها الشياطين بالتأكيد. ثلاثة منهم! يا إلهى أتستطيع الصلاة يا توم؟

– سأحاول، ولكن لا تخف، فهم لن يؤذوننا.. وبدأ توم صلاته..

– اصمت.. صاح هكلبرى.. ردَّ توم حانقا:

– ما الأمر يا هكى؟

– إنهم بشر، على الأقل واحد منهم. إنه صوت بوتر..

– لا، لا يمكن أن يكون هو!

– أنا أعرفه. لا تخف، فهو ليس ذكيـاً لدرجة أن يلاحظ وجودنا. هو سِكِّير ولابد أنه سكران الآن..

همس توم:

– سأظل ساكنا إذن. ها هم يجيئون مرة أخرى. أنا أعرف واحداً آخر منهم، إنه إنجن جو..

– هذا القاتل الشرير. كنت أعتقد أنهم الشياطين من النظرة الأولى. ترى ماذا هم فاعلون؟

سكت الاثنان عندما وصل الرجال الثلاثة إلى القبر، وقفوا على بعد أقدام قليلة من مكان اختباء الصبيان..

– ها هو.. صاح الرجل الثالث الذى كان يحمل الفانوس وانكشف وجهه، فكان الطبيب روبنسون.

(٢)

كان بوتر وإنجن جو يجران عربة يد مثبت بها حبل وجاروفين. أوقف الرجلان العربة وشرعا فى فتح المقبرة. وضع الطبيب الفانوس على رأس المقبرة وجلس وظهره للشجرة التى كان يختبئ وراءها الولدان، فكان قريبا منهما لدرجة كبيرة ثم صاح:

– أسرعوا أيها الرجال.. سوف يبزغ القمر فى أى لحظة..

أخذ الرجلان في الحفر وكان لا يسمع إلا صوت الفئوس وهي تزيل التراب والحصى برتابة. أخيرا اصطدم الفأس بالتابوت وبعد دقيقة أخرج الرجلان التابوت من الأرض وفتحا الغطاء وأخرجا الجثة وألقيا بها على الأرض. بزغ القمر من خلف السحب وكشف عن وجهها الشاحب، وضعا الجثة في العربة وقاما بتغطيتها ببطانية وتثبيتها في مكانها بالحبال. أخرج بوتر سكينا كبيرا وقطع به طرف الحبل المتدلي قائلا:

– الآن أنجزنا المهمة وعليك أن تدفع لنا خمسة دولارات إضافية وإلا سنترك لك الجثة هنا.

قال الطبيب: انظرا، ماذا يعني هذا؟ لقد طلبتما الدفع مقدماً وقد دفعت لكما..

قال إنجن جو وهو يتقدم نحو الطبيب: "نعم ولقد فعلت أكثر من ذلك. فمنذ خمس سنوات طردتني من مطبخ والدك ذات ليلة حين جئت أسأل عن شيء آكله، وقلت لي إنني إنسان سيئ، وقتها أقسمت أن أحاسبك على ذلك ولو بعد مائة عام، بعدها قام والدك بحبسي في السجن حبسا انفراديا.. فهل تظن أنني نسيت؟ إنني من عائلة إنجن، والآن ظفرت بك وحان وقت تسوية الحساب".

كان إنجن يهدد الطبيب بقبضته، وفجأة ضربه الطبيب ضربة قوية ألقته على الأرض، أسقط بوتر سكينه من يده قائلا للطبيب:

– لا تضرب الرجل، ثم أمسك بالطبيب وتصارع الاثنان بعنف وسقطا فوق الحشائش.

قام إنجن جو وعينه تشتعل بالغضب والتقط سكين بوتر وأخذ يزحف حولهما كالقط وينتظر فرصة للانقضاض على الطبيب.

خلص الطبيب نفسه وأمسك بشاهد القبر الخشبى وضرب به بوتر فسقط على الأرض. انتهز إنجن جو الفرصة وأغمد السكين فى صدر الطبيب الشاب، فسقط على بوتر وغمره بدمائه. شاهد الولدان ما حدث، وهربا بسرعة فى الظلام.

(٣)

عندما بزغ القمر ثانية من خلف السحب، كان إنجن جو يقف مذهولا أمام الرجلين. كان الطبيب يئن ويتألم ثم سكت تماما، تمتم بعدها إنجن جو قائلا بصوت خفيض:

- الآن سويت الحساب، عليك اللعنة.

قام إنجن جو بسرقة ما فى جيب الطبيب، ثم وضع السكين فى يد بوتر اليمنى وجلس على حافة التابوت. بعد عدة دقائق بدأ بوتر يئن ويتحرك محاولا الوقوف فلم يتمكن، كانت يده تمسك بالسكين، فرفعها إلى عينيه ثم تركها تسقط على الأرض، نظر حوله وتقابلت عيناه مع عينى جو، فقال مستغربا:

- يا إلهى ما الذى حدث يا جو؟!

قال جو دون أن يتحرك:

- إنه عمل قذر، لماذا فعلت ذلك؟

صاح الآخر:

- أنا لم أفعل ذلك.

أشار إلى جثة الطبيب وقال:

- انظر هنا! لا فائدة من هذا الكلام.

هز بوتر رأسه بأسى وقال:

- ظننت أننى سأفيق من السكر، لم يكن من المناسب أبداً أن أشرب هذه الليلة، فأنا مازلت أشعر بأن رأسى ثقيل أكثر مما كان حين شرعنا فى العمل. إننى فى ورطة ولا أتذكر ما حدث. قل لى يا جو، وبشرف الصداقة التى بيننا، هل أنا فعلت ذلك؟ أنا لم أقصد يا جو. قل لى كيف حدث، إنه شىء مخيف، فالرجل صغير السن والمستقبل لا يزال ممتدا أمامه.

صاح إنجن:

- أنتما الاثنان تعاركتما، وضربك هو بشاهد القبر فسقطتَ أنتَ على الأرض، ثم قمت وخطفت السكين وطعنته بها.

نظر الآخر إلى الأرض فى حزن وتمتم:

- لم أكن أدرى ما أفعل، أنا أتمنى أن أموت الآن، لقد كان الخمر هو السبب، أنا لم أستعمل سلاحًا فى حياتى من قبل. الجميع سيقول ذلك يا جو، أرجوك لا تخبر أحداً.. قل إنك لن تخبر أحدا يا جو، فأنت صديق طيب. لقد أحببتك دائما ودافعت عنك أيضا. ألا تتذكر؟ لن تقول لأحد يا جو، أليس كذلك؟

سقط المسكين على ركبتيه أمام القاتل الآثم ومدَّ يديه في ضراعة، ربت على كتفه وقال:

- لقد كنت دائمًا صريحًا وعادلا معي يا بوتر ولن أخذلك.

- أنت مـلاك يا جـو. سـأبارك لك ذلك ما دُمْتُ حيًا. وبدأ بوتر في البكاء.

- لا عليك! كفى. هذا ليس وقت البكاء، أنت ستذهب من هذا الطريق وأنا من الطريق الآخر. تحرك الآن ولا تترك أثرًا خلفك.

بدأ بوتر في السير ثم جـرى بسـرعة، ووقف إنجـن يتابعه وهو يقول لنفسه:

- بما أنه خائف لهذه الدرجة وسكـران إلى هذا الحد، فلن يفكر في السكين، ولن يعـود للبحث عنها في هذا المكـان وحده.. ذلك الجبان.

بعد دقيقتين أو ثلاث، كان القتيل والجثة الملفوفة في البطانية والتابوت والقبر لا يـراهم أحد سـوى القمر، وعاد السكون شـاملا مرة أخرى.

الفصل العاشر

نباح الكلب والنبوءة الفظيعة

(١)

جرى الصبيَّان إلى القرية وهما في غاية الرعب، وكانا ينظران خلفهما في خوف من آن لآخر خشية أن يكون وراءهما أحد، ويظنَّان أن كل جذع شجرة في طريقهما رجل سيقبض عليهما، فازداد خوفهما وراحا يجريان بأقصى سرعة.

عندما وصلا إلى كوخ قريب من البلدة كان نباح الكلب الحارس للكوخ حافزا أكبر لهما على الجرى بسرعة. همس توم..

– آه لو أمكننا الوصول إلى المدبغة قبل أن ننهار.. فأنا لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك.

رد هكلبرى وهو يلهث "لم يبقَ إلا القليل يا توم". ثبت الصبيان عيونهما على الهدف وهما يجاهدان للوصول إليه. أخيرا.. اندفعا إلى باب الكوخ المفتوح وقد أحسَّا بالاطمئنان.

عندما دخلا المدبغة كان التعب قد بلغ منهما، فارتميا على الأرض، وهمس توم لصديقه:

- هكلبرى، ماذا تعتقد أن تكون عاقبة ذلك؟

- لو مات الطبيب روبنسون، فإن الشنق هو العاقبة.

- أتظن ذلك؟

- أجل يا توم.

فكر توم قليلا ثم سأله:

- ومن الذى سيقول؟ نحن؟

- ما الذى تقوله؟ افترض أن شيئا حدث ولم يشنق إنجن جو؟ إنه سيقتلنا.

- هذا ما كنت أفكر فيه بالفعل.

- لو قال أحد فهو بوتر، ولو أنه مغفل كبير وسكران معظم الوقت.

لم ينطق توم وظل يفكر.. وأخيرا همس:

- هك، إن بوتر لا يعرف ما حدث، فكيف يقول إذن؟

- ولماذا تظن أنه لا يعرف؟

- لأنه كان غائبًا عن الوعى عندما قام إنجن جو بفعلته. أتعتقد أنه رأى أى شىء أو يعرف أى شىء؟

– يا إلهى، الأمر غريب حقا.

– وربما أثرت الضربة التى تلقاها على عقله.

– لا، ليس هذا مرجحًا يا توم. لقد كان سكران، عندما كان أبى يسكر كان بوسعك أن تضربه بالحزام على رأسه ولا يأبه لذلك.. هو يقول ذلك عن نفسه، وهذا هو الحال أيضا مع بوتر. ولكن إذا كان الرجل فى كامل وعيه فلربما أثرت تلك الضربة عليه. لا أعرف حقا.

بعد فترة من التأمل والسكوت قال توم:

– هكى، بالتأكيد سنلتزم الصمت.

– يجب علينا ذلك يا توم، هذا الشيطان إنجن يستطيع قتلنا كقطين لو تكلمنا ولم يشنق لفعلته، والآن يا توم فلنقسم على ألا نبوح بشىء.

– أنا موافق، فهذا أفضل شىء نفعله. هلا مددت يدك وأمسكت بيدى لنقسم على ألا نقول شيئا.

– لا، لا ينفع ذلك. قد يكون هذا مناسبًا مع الفتيات لأنهن غالبا ما يرجعن فى كلامهن ولكن فى حالتنا هذه يجب أن يكون الأمر مكتوبا بالدم أيضًا.

رحَّب توم بالفكرة، فالأمر كان مظلماً ومرعبًا خاصة وأن الظروف حولهما كانت كلها مقبضة. التقط توم فرع شجرة نظيفا، وأخذ حِبْراً أحمر من جيبه وعلى ضوء القمر كتب السطور التالية على الفرع:

"هك فِنْ وتوم سوير يقسمان أن يظلا صامتين ولا يتكلمان عما حدث وإلا ماتا إذا باحا بشيء".

(٢)

كان هكلبري شديد الإعجاب بقدرة توم على الكتابة بوضوح، أخرج في الحال دبوساً وأوشك على غرسه في لحمه، فصاح توم:

– لا تفعل ذلك، فالدبوس من المعدن وقد يوجد عليه صدأ.

– وما ضرر الصدأ؟

– إنه سم. إذا ابتلعت منه القليل فسوف تموت.

أخرج توم إبرة كانت مشبوكة في سترته، وغرس كل صبي الإبرة في إصبعه وضغط عليه فخرجت قطرات من الدم وتمكن توم من التوقيع بالأحرف الأولى لاسمه مستخدما إصبعه الصغير كقلم، ثم أوضح لهكلبري كيف يكتب "هـ ، ف" وبذلك أتما القسم. قاما بدفن فرع الشجرة بالقرب من الجدار واعتبرا بذلك أن فميهما قد أغلقا على الموضوع للأبد.

كان هناك من يتحرك متلصصًا عند الطرف الآخر من المبنى المتهدم ولكنهما لم يلاحظاه.

همس هكلبرى:

- توم، هل سيمنعنا ذلك من البوح بصفة دائمة؟

- بالتأكيد.. مهما حدث سنظل على الكتمان وإلا متنا، ألا تعرف ذلك؟

- أجل، أعرف ذلك.

استمرا في الهمس بعض الوقت، وبعد قليل سمعا نباحًا بالخارج على مقربة عدة أقدام منهما، أمسك الصبيان ببعضهما فجأة في خوف مرعب.

- ما الذى يجرى؟ همس هكلبرى.

- لا أعرف، انظر عبر فتحة الباب بسرعة.

- لا، انظر أنت يا توم.

- لا أستطيع أن أفعل يا هك.

- أرجوك يا توم، ها هو النباح يعود مرة أخرى.

نظر توم بسرعة ثم صاح:

- يا إلهى، أنا أعرف صاحب الصوت، إنه بيل هاريسون.

- هذا أمر طيب، لقد كنت خائفًا لدرجة الموت.. كنت موقنا من أنه كلب.

نبح الكلب ثانية وسقط قلباهما في أرجلهما مرة أخرى.

- لا، ليس هذا بيل هاريسون. همس هكلبرى. وافقه توم على ذلك وهو في قمة الخوف ووضع عينه على فرجة الباب لينظر وهمس له:

- إنه كلب يا هك.

- بسرعة يا توم، من منا يلهث وراءه؟

- نحن الاثنين.

- أعتقد أننا قد انتهينا يا توم.. لا شك في ذلك، فأنا كنت شرّيرًا دائما.

قال توم معقبا:

- هذا ما يؤدي إليه لعب الهوكي وفعل كل ما هو سيئ. كنت سأصير إنسانًا طيبا مثل سيدنى، لو أننى حاولت، لكننى لم أفعل بالطبع. ولكننى لو خرجت من هذا المأزق فسأنتظم في مدرسة الأحد. وبدأ توم في البكاء قليلا.

صاح هكي:

- أنت سيئ؟ وأخذ في البكاء أيضًا.

- ماأنت يا توم إلا أحمق مثلى تماما، يا إلهى، يا إلهى، كمن كنت أتمنى لو أن لى نصف حظك في الحياة؟

همس توم بصوت تخنقه الدموع:

- انظر يا هكي، لقد أعطانا ظهره.

نظر هكي بقلب مبتهج وصاح:

- نعم.. لقد فعل ذلك.

توقف النباح، وأنصت توم ثم همس:

- ما هذا الصوت؟

- إنه لشخص يغط في النوم!

- أهذا كل ما في الأمر يا هك؟

- نعم، أظن أنه في الجانب الآخر من المكان، اعتاد أبي على النوم هنا أحيانا مع المشردين.

عادت روح المغامرة إلى الصبيين مرة أخرى، وقال توم:

- هكي، إذا تقدمت أنا هل تتبعني؟

- لا أحب ذلك يا توم، قد يكون إنجن جو.

ولكن روح المغامرة والإغراء القوي دفعا الصبيين إلى محاولة الفرار جرياً إذا توقف الشخير. سارا على أطراف أصابعهما، أحدهما خلف الآخر، وعندما صارا على بعد خطوات من مصدر الشخير، تعثر توم في غصن شجرة، فسقط محدثًا صوتًا. تحرك الرجل وظهر وجهه في ضوء القمر. كان الشخص النائم هو بوتر، وكاد قلباهما يتوقفان عندما تحرك الرجل، ولكن الخوف زال عنهما حين استمر في نومه، فخرجا على أطراف الأصابع عبر الباب المتهالك، ثم توقفا لحظات لتبادل كلمات الوداع. ولكن النباح الطويل عاد ليشق صمت الليل مرة أخرى. التفتا ناحية الصوت فرأيا الكلب الغريب يقف على بعد خطوات قليلة من بوتر ويتشممه بأنفه.

- إنه هو.. همس الصبيان في نفْس واحد.

- يقولون يا توم إن كلبًا غريبًا كان ينبح بالقرب من بيت جوني ميللر عند منتصف الليل منذ أسبوعين، ولكن لم يمت أحد بعد.

- أعرف ذلك، ولكن ألم تسقط جراسي ميللر في نار المطبخ وأصيبت بحروق فظيعة يوم السبت التالي؟

- نعم، ولكنها لم تمت. والأغرب من ذلك أنها تتحسن أيضا.

- إذن انتظر وسترى.. إنها ستموت مثلما سيموت بوتر. هذا ما يقوله السود. هم يعرفون عن مثل هذه الأمور الكثير يا هك.

(٣)

افترقا بعد ذلك، فتسلل توم إلى غرفة النوم عبر النافذة بعد أن انتهت مغامرة الليلة. خلع ملابسه بحذر لئلا يوقظ سيدني. واستسلم للنوم وهو مغتبط لأن أحداً لم يشعر بمغامرته. لم يكن يعرف أن سيدني مستيقظ ومنذ ساعة مضت.

عندما استيقظ توم كان سيدني قد ارتدى ملابسه وخرج. أحس توم بالقلق. وتساءل مستغربا لماذا لم يتم استدعاؤه لمساءلته وتركوه ينام، وكالعادة أقلقته الفكرة، وشعر بالخوف. في خمس دقائق كان قد ارتدى ملابسه وهبط الدرج وهو يشعر بالمرارة.

كانت الأسرة لا تزال حـــوال المـــائدة بعد أن انتهت من الفطـــور. لم تكن هناك إشارات باللوم، ولكن أعين الجميع كانت تتجنبه والصمت

مخيم والصرامة البادية تصيب قلبه بالخوف. جلس محاولا افتعال المرح ولكن أحداً لم يبتسم أو يستجيب، فغرق في صمته، وغاص قلبه بين أضلعه.

بعد الإفطار، أخذته خالته جانبا، فارتجف وتوقع أنها سوف تجلده، ولكن الأمر لم يكن كذلك. بكت خالته وسألته برقة كيف يخرج ويكسر قلبها بهذه الكيفية، وأخيراً طلبت منه بحزم أن يتوقف عن سلوكه السيئ الذي يدمر به نفسه ويدفع بها إلى الموت لأنها لا ترى أية فائدة من المحاولة معه. كان هذا بالنسبة له أسوأ من ألف جلدة، وكان قلبه أكثر تألما من جسمه. بكى توم وسألها المغفرة ووعدها بإصلاح نفسه، وأخيرا انصرف وقد أحس بأنه قد فاز بمغفرة غير كاملة وثقة ضعيفة.

كان بؤسه شديدا لدرجة أنه لم يحس بالرغبة في الانتقام من سيدني.

توجه إلى المدرسة واجما حزينا وناله العقاب هو وجو هاربر لأنهما لعبا الهوكى فى اليوم السابق، وكان لعبهما بليدا.

جلس توم في مقعده مستنداً بمرفقيه على المكتب ومحملقًا إلى الجدار في معاناة شديدة حيث كان مرفقه يضغط على شيء صلب. بعد برهة قام بتغيير وضعه ببطء، وأخذ ذلك الشيء الذي كان مغلفًا بالورق. قام بفضّ الورق من علبة وتنهَّد بحسرة شديدة. لقد كان المقبض النحاسي الذي أعطاه للفتاة، وقد أعادته إليه. كان ذلك هو القشة التي قصمت ظهر البعير.

الفصل الحادى عشر

الضمير يعذِّب توم

(١)

فى ساعة الظهيرة، كانت القرية بكاملها قد تكهربت بالنبأ المزعج.. وسرت القصة من شخص لآخر ومن مجموعة لأخرى، ومن بيت لآخر بسرعة لا تقل عن سرعة التلغراف، وأعلن ناظر المدرسة أن بقية اليوم إجازة للتلاميذ، فالقرية كانت ستعتبره أمرًا غريبا إن لم يفعل ذلك.

وجدت السكين بجوار جثة القتيل وتم التعرف على صاحبها بوتر. وقيل إن أحد المواطنين قد شاهد بوتر يغتسل فى الترعة فى حوالى الواحدة أو الثانية صباحا وبأنه قد اختفى بعدها.. وهى ملابسات مريبة، حيث لم يكن ذلك من عادات بوتر. قيل أيضًا إنهم بحثوا عنه فى القرية ولم يعثر له على أثر، حيث كان الرجال يبحثون عنه على ظهور الخيل عبر كل الطرق وفى كل الاتجاهات. قيل أيضا إن المأمور كان واثقا من أنه سيقبض عليه قبل حلول الظلام.

كانت القرية كلها تتجه صوب المقابر، واختفت المشاعر الجريحة لتوم وانضم للحشد، ليس لأنه لا يرغب بشدة فى الذهاب إلى أى مكان آخر، ولكن لأن أحساسًا غريبًا وغير مريح كان يشده للمكان. عندما وصل للمقابر، التحم بالجمع ونظر إلى المنظر المفجع. بدا له أن زمنًا طويلا قد انقضى منذ أن كان هناك. لكزه شخص فى ذراعه، فالتفت إليه وتقابلت عيناه بعينى هكلبرى، ثم نظر كلاهما بعيدًا فى الحال، وقد خافا أن يكون أحدًا قد لاحظ شيئًا فى نظراتهما لبعضهما، ولكن كان الجميع مهتمين بالمنظر البشع الذى أمامهم.

"يا له من مسكين"!، "يا له من شاب صغير مسكين !"، "هذا درس للصوص المقابر"، "بوتر سوف يشنق إذا أمسكوه". كانت هذه بعض العبارات التى يقولها الناس، وقال القس: "لقد كان حكمًا إلهيا، إن يد الله كانت هنا".

ارتعد توم من رأسه لقدمه عندما وقعت عيناه على وجه إنجن جو. كان الجمع فى تلك اللحظة قد بدأ فى الصياح "ها هو! إنه قادم بنفسه".

– "من؟ من القادم"؟ صاح جمع غفير من الناس.

– بوتر..

– مرحبًا به! لقد توقف، احترسوا، إنه يرجع! لا تدعونه يفلت..

قال بعض الناس كانوا قد تسلقوا شجرة فوق توم "إنه لا يحاول الفرار، لكنه مذهول ومرتبك".

– وقاحة فظة. صاح أحد الواقفين. لقد أتى ليلقى نظرة على ما فعله، ولم يتوقع أن يجد أحدًا هنا.

(٢)

اخترق المأمور الجمع وهو يقود بوتر من ذراعه. كان وجه المسكين ممتقعًا والخوف ظاهر في عينيه، وعندما وقف أمام القتيل، ارتعد ووضع وجهه بين كفيه وانهمرت دموعه وصاح في أسى:

- لم أفعل ذلك يا أصحابي، بشرفي لم أفعلها.

صاح أحد الواقفين: وهل اتهمك أحد بذلك؟

رفع بوتر وجهه ناظرًا حوله بيأس فرأى إنجن جو فهتف قائلا:

- لقد وعدتني إنك لن ....!

وضع المأمور السكين أمامه قائلا:

- هل هذه السكين تخصك؟

كاد بوتر أن يسقط لو لم يمسك به الناس من حوله ويريحونه على الأرض حيث قال:

- شيء ما دفعني إلى القدوم إلى هنا.. ثم أشاح بيده قائلا: قل لهم يا جو.. قل لهم، لا فائدة من الإنكار.

وقف توم وهكلبري مشدوهين وهما يستمعان إلى إفادة الكاذب ميّت القلب، وقد توقعا أن تنشق السماء في تلك اللحظة عن صاعقة إلهية تسقط فوق رأسه، وكانا يتعجبان من تأخر وقوع ذلك!

عندما انتهى إنجن من إفادته كان لا يزال يقف حيًا، وتلاشى داخلهما الدافع للحنث باليمين لإنقاذ حياة بوتر المسكين البرىء، فقد كان من الواضح أن المجرم قد باع روحه للشيطان، وأن من العبث التدخل في هذا الأمر الآن.

صاح أحد الواقفين:

– لماذا لم تهرب؟ لماذا جئت إلى هنا مرة أخرى؟

أجاب بوتر: لم أستطع الهرب.. لم أستطع، أردت ذلك ولكننى لم أستطع الذهاب إلا إلى هنا. ثم انخرط فى البكاء مرة أخرى.

كرر إنجن جو إفادته بالهدوء نفسه تحت القسم وقد رأى الصبيان أن الصاعقة لم تنزل بعد، مما أكد لهما أن جو قد باع نفسه الشيطان، وأصبح جو فى نظرهما أكثر الشخصيات إثارة ولم ينزلا أعينهما عنه طوال الوقت، وقررا مراقبته كلما سنحت لهما الفرصة.

ساعد إنجن جو فى رفع جثمان الرجل المقتول ووضعه فى عربة لأخذه بعيداً، وتهامس الجميع بأن الجرح قد نزف القليل من الدم. اعتقد الصبيان أن ذلك قد يلقى بالشك فى الاتجاه الصحيح، ولكنهما أصيبا بخيبة أمل عندما صاح أحد الواقفين:

– لقد كان على بعد ثلاثة أقدام من بوتر عندما أصابه بالسكين.

كان السر المخيف ثقيلا على ضمير توم، فلم ينم لأسبوع كامل، وعلى الإفطار فى صبيحة أحد الأيام قال سيدنى:

– توم، أنت تتقلب فى نومك وتتكلم كثيراً فتوقظنى معظم الوقت.

سكت توم ونظر إلى الأرض ولم يجب، فقالت خالته بولى بأسف:

– هذه علامة سيئة، ما الذى يدور فى عقلك يا توم؟

– لا شىء، لا شىء بالمرة، ولكن يده كانت ترتعش بشدة لدرجة أنه سكب القهوة أمامه. استرسل سيدنى قائلا:

– أنت تقول أشياء عجيبة. الليلة الماضية كنت تقول إنه دم، إنه دم، لقد قلت ذلك مرارًا وتكرارًا، وقلت لا تعذبنى فسأقول.. تقول ماذا؟ ما الذى ستقوله؟

كان كل شىء أمام توم يهتز، ولم يكن من الممكن أن يقول شيئا عما حدث الآن، ولكن لحسن حظه زال الاهتمام عن وجه الخالة بولى وقالت:

– إنها تلك الحادثة البشعة. لقد حلمت بها تقريبا كل ليلة، وأحيانا كنت أحلم أننى التى ارتكبتها. وقالت مارى إنها تأثرت بالحادث بالطريقة نفسها.

(٣)

خرج توم من هذه الصحبة بسرعة وبعدها أخذ فى الشكوى من أسنانه لمدة أسبوع، وكان يقوم بربط فكّه كل ليلة. لم يكن يعرف أن سيدنى كان يراقبه وهو يفك الرباط ويعتمد على مرفقيه لفترة طويلة، ثم يعيد الرباط إلى مكانه مرة أخرى. كان عقله المعذب قد تخلص

تدريجيا من اضطرابه وخفَّت آلام أسنانه، وقد استراح لفكرة أن سيدنى لو كان قد استنتج شيئا مما يقوله فى أحلامه، فقد احتفظ بها لنفسه.

بدا لتوم أن أن رفاق المدرسة لن يوقفوا تساؤلاتهم أبداً عن القطط الميتة وبالتالى ظلت متاعبه قائمة فى عقله. لاحظ سيدنى أن توم لم يلعب دوراً فى هذه التساؤلات رغم أنه دائمًا ما يأخذ دوراً رئيسيا فى مثل تلك الأمور، ولكن التساؤلات قلت أهميتها ولم تعد تعذب توم.

كان توم كل يوم أو يومين خلال تلك الفترة يترقب الفرصة ويذهب إلى نافذة السجن ويقوم بتهريب بعض الأشياء "للقاتل" كلما سنحت له الفرصة. كان السجن عبارة عن مبنى من الطوب على حدود القرية وبلا حراس، فقد كان من النادر أن يوجد به سجناء. ساعدت تلك العطايا التى كان يمنحها لبوتر فى إراحة ضميره.

كانت رغبة القرويين شديدة فى تجريس إنجن جو بالريش والقار لقيامه بسرقة الجثث، ولكن لخوفهم الشديد منه لم يجرؤوا على القيام بذلك، وبالتالى نسوا الأمر تماما. كان إنجن حريصًا على أن يبدأ إفادته بالمعركة التى نشبت دون أن يعترف بسرقة الجثة التى سبقت ذلك، وبالتالى كان من الحكمة أن يؤخذ الأمر إلى المحكمة كما هو.

الفصل الثانى عشر

القط ومُزِيل الألم

(١)

وجد توم أمرًا جديدًا يشغله، فقد توقفت بيكى ثاتشر عن الحضور للمدرسة. ظل توم يصارع كبرياءه لأيام وحاول أن يرسل لها رسالة بالصفير لها فى الهواء، ولكنه فشل. وجد نفسه يحوم حول بيت أبيها ليلا وهو يشعر بالبؤس الشديد. كانت بيكى مريضة وظن أنها ستموت. كانت الفكرة تعذبه ولم يعد مهتمًا بالمشاجرات ولا بالقرصنة، فقد ضاعت لديه بهجة الحياة ولم يبقَ غير المرارة والبؤس. ترك الطوق والمضرب حيث لم يعودا يثيران اهتمامه. كانت خالته مدركة لما يحدث وحاولت بشتى الطرق إخراجه من هذه الحالة. كانت من الذين تهمهم العلاجات الجديدة والأدوية المستحدثة وتجربها، ليس على نفسها، لأنها لا تمرض أبدًا، وإنما على أى شخص آخر. كانت مشتركة فى المجلات الصحية وتعتبر ما يقال عن التهوية، كيفية الخلود للنوم وكيفية النهوض منه،

ماذا يأكل الإنسان وماذا يشرب وما هي التدريبات الرياضية التي يجب القيام بها والتي تحافظ على صحة الفرد، وما هي نوعية الملابس التي يجب أن يرتديه.. كل ذلك كان مقدساً بالنسبة لها، لكنها لم تلاحظ أن المجلات الصحية للشهر الجاري تشير إلى عكس ما أوصت به في الأشهر السابقة. كانت طاهرة القلب نقية الضمير، مما جعلها ضحية سهلة لتلك الوصفات. جمعت مجلاتها معا وأدويتها وحملتها معها على صهوة جوادها لتعالج جيرانها من المرض. لم تشك لحظة في أنها الملاك المعالج.

كان العلاج بالماء حديثا وحالة توم المتردية تؤرقها. كانت تقوم بإخراجه كل صباح فتوقفه في الكوخ الخشبي وتغرقه بالماء البارد ثم تجففه بمنشفة وتلفه في ملاءة مبللة وتضعه في الفراش تحت الأغطية إلى أن يغرق في العرق ظنا منها أن كل متاعبه ستخرج مع العرق من مسام جلده، لكن رغم ذلك، زاد شحوب الصبي واضطرابه، وظل على ما هو عليه. بدأت في تغذيته على الشوفان ووضع اللزقات الحارة على جسمه. لكن توم لم يتحسَّن، وهو ما ملأ قلب السيدة العجوز بالمرارة. كان لابد من إيجاد طريقة لعلاجه بأي ثمن. سمعت عن مسكِّن قوي للألم لأول مرة، فأرسلت لشرائه في الحال. قامت بتذوقه أولا فوجدته كالنار. أسقطت العلاج بالماء وكل شيء آخر وعلَّقت آمالها على مُسكِّن الألم. أعطت توم ملعقة وراقبت بقلق بالغ نتيجة ذلك. أخيراً استراحت من متاعبها وعاد السلام لروحها مرة أخرى لأن حالته تحسنت بعد تناوله.

(٢)

أحس توم بأن الوقت قد حان لكى يستيقظ. فكر فى العديد من الخطط وأخيراً استقر فكره أن يصبح مغرماً بمسكّن الألم. كان يطلبه دائما لدرجة أصبحت مزعجة وطلبت منه خالته فى النهاية أن يساعد نفسه ويتوقف عن مضايقتها. لو كان الأمر يخص سيدنى لكانت سكتت عن ذلك ولكن لأنه يخص توم، فقد كانت تراقب زجاجة الدواء باستمرار ووجدت أن الدواء بها ينقص، ولم يخطر ببالها أن الصبى يلصق بما بها شرخاً فى أرضية غرفة الجلوس.

فى أحد الأيام، وبينما كان توم مشغولا بلصق الشق، اقترب منه قط خالته ونظر إلى الملعقة فى يده وكأنه يطلب أن يتذوق ما بها. قال توم للقط:

– لا تطلب ذلك ما لم تكن تريده فعلا يا بيتر.

أصدر القط مواءً مستمراً معرباً عن إصراره على تذوقه، فصاح فيه توم:

– من الأفضل أن تكون متأكداً من ذلك.

استمر بيتر فى المواء بصورة مزعجة فرضخ توم وقال له:

– لقد طلبت ذلك، وسأعطيك إياه لأننى لست بخيلا، ولكن إذا وجدت أنك لا تحبه فلا تلمنى، وعليك أن تلوم نفسك.

كان بيتر مطيعا عندما أمسك توم بفمه وفتحه وصب المسكن فيه. قفز بيتر في الهواء، وبعد أن سقط على الأرض أخذ يجرى حول الغرفة مرات ومرات مصطدما بقطع الأثاث وهو يصدر أصواتًا مرعبة، ثم وقف على رجليه الخلفيتين وراح يمشى بسعادة ورأسه لأعلى كأنه فى سعادة غامرة، بعد ذلك انطلق فى البيت مثيرًا الفوضى والدمار فى طريقه.

(٣)

دخلت الخالة بولى فى الوقت المناسب ورأت القط وهو يقفز فى الهواء بحركات بهلوانية ثم ينطلق كالسهم عبر النافذة المفتوحة. وقفت السيدة العجوز تنظر بدهشة من وراء نظارتها وتوم منبطح على الأرض وغارقًا فى الضحك. صاحت مستغربة:

– توم، ما الذى أصاب القط؟

– لا أعرف يا خالتى..

– لم أرَ فى حياتى شيئا مثل ذلك. ما الذى يجعله يتصرف بهذه الكيفية؟

– لا أعرف يا خالتى. فالقطط دائمًا ما تتصرف هكذا عندما تستمتع بشىء ما.

– أهو يفعل ذلك حقا؟ هناك شىء فى صوته يثير الخوف يا توم.

– نعم يا سيدتى.. هو كذلك.

– تعتقد ذلك إذن.

– نعم.

أخذت السيدة العجوز زجاجة الدواء من فوق السرير وكان توم يراقبها باهتمام وقلق، ثم أمسكت خالته بسرعة بأذنيه وضربته على مؤخرة رأسه وقالت بانفعال:

– لماذا تعامل هذا القط الطيب بهذه الكيفية؟

– فعلت ذلك إشفاقا عليه، فليس له خالة طيبة مثلك.

– ليس له خالة طيبة أيها الغبي! ما علاقة ذلك بما فعلت؟

– لأنه لو كانت له خالة طيبة مثلك لكانت قد أحرقته، كما لو كان إنسانا.

أحست الخالة بولى بالندم، فقد أوضح ذلك الأمر، فما هو حارق قاس بالنسبة لقط قد يكون بنفس القسوة بالنسبة لصبى. بدأت تعانى من الشعور بالندم وتأنيب الضمير وطفرت الدموع من عينيها، فوضعت يدها على رأس توم وقالت برقة:

– كنت أفعل ما اعتقدت أنه الأفضل يا توم، وقد أفادك بالفعل.

نظر توم في وجهها وقال بنبرة صوت مليئة بالأسى:

– أعرف أنك كنت تريدين ما هو أفضل يا خالتي وكذلك كنت أنا مع بيتر. لقد أفاده ذلك أيضا. لم أره من قبل بهذه الروعة.

– لا فائدة منك يا توم. حاول أن تكون ولداً طيبا لمرة واحدة ولن تحتاج لأن تأخذ الدواء ثانية.

(٤)

وصل توم إلى المدرسة مبكرا، وكان يفعل ذلك كثيراً في الأيام الأخيرة. وقف عند البوابة بدلا من أن يلعب مع رفاقه بالفناء. كان يبدو عليه المرض فوقف شارداً ينظر إلى الطريق، وبعد قليل ظهر جف ثاتشر، فانفرجت أسارير توم ولكنه أشاح بوجهه عنه بعد لحظات. وصل جف وحاول توم استدراجه للحديث عن بيكي، ولكن الفتى مضى لحاله وتركه. ظل توم يراقب الطريق على أمل أن تظهر، وعندما لم تظهر أحس بيأس مرير ودخل إلى الفصل الخالي وجلس وحده يتعذب. أخيراً، مرت مجموعة تلاميذ من البوابة فقفز قلب توم من بين أضلعه فرحًا، وفي لحظة كان خارج الفصل يلعب.. وأخذ في الضحك والصراخ والجري وراء الصبية والقفز فوق السور رغم مرضه، وأحيانا كان يقف على رأسه ويفعل كل الأمور البطولية التي يستطيعها وعيناه تنظران ما إذا كانت بيكي ثاتشر تراه. لكن بيكي لم تكن تشعر بذلك على الإطلاق، فلم تنظر إليه إطلاقا، إنها غير مدركة لوجوده. اقترب من مكانها وراح يلف حولها ثم خطف قبعة أحد الصبية وقذف بها إلى أعلى ثم سقط أخيراً تحت قدمي بيكي التي أشاحت بوجهها عنه، وسمعها تقول:

– بعض الناس يعتقدون أنهم أذكياء جدا، ودائما ما يتباهون بأنفسهم.

احمرٌ وجه توم بشدة وجمع شتات نفسه وانسحب من أمامها في خجل ومضى لحاله.

الفصل الثالث عشر

طاقم القراصنة يبدأ الإبحار

(١)

كان توم قد اتخذ قرارًا بأن يخاصم الجميع، فقد أصبح منبوذًا، ولا يحبه أحد، وكان يظن أنهم عندما يدركون ما دفعوه لأن يفعل، فربما يحسون بالأسف، فقد حاول أن يفعل الصواب ويكون طيبا مع الجميع، ولكنهم لم يمنحوه الفرصة لأن لا شيء يرضيهم الآن سوى التخلص منه، فليكن ذلك إذن.. ولِمَ لا؟ لقد أجبروه على ذلك أخيرًا واضطروه لأن يعيش حياة الجريمة ولا خيار له في ذلك.

في ذلك الوقت كان قد سار طويلا في الطريق إلى خارج البلدة، وكان صوت جرس المدرسة يصل بالكاد إلى سمعه، أخذ في البكاء لإحساسه بأنه لن يسمع هذا الصوت المألوف بعد ذلك أبدًا أبدًا، ولكن ذلك مفروض عليه لأنه طرد إلى العالم البارد ويجب أن يرضخ، ومع ذلك فإنه يسامحهم، وتساقطت دموعه غزيرة على وجهه.

في هذه اللحظة قابل رفيق روحه، جو هاربر، الذي بدت عيناه جامدتين وكان واضحًا أن في نفسه شيئا. كانا هو وتوم روحًا لهما فكر واحد، مسح توم دموعه بكم سترته وبدأ في الحديث عن قراره الذي اتخذه بالفرار من العالم القاسي وانعدام التعاطف في المنزل بالهرب إلى العالم الواسع على ألا يعود إليه أبدًا، منتهيا بأمله في ألا ينساه جو.

بدت علامات الدهشة في وجه توم.. فقد كان جو هو الآخر قد جاء إليه للغرض نفسه. كانت أمه قد جلَدَته لشربه بعض القشدة التي لم يذقها أبدا، فسرق بعضا منها وشربها من وراء أمه. كان من الواضح أن أمه قد تعبت منه وترغب في أن يرحل، ولم يكن أمامه إلا الرضوخ لها، آملا أن تصبح مسرورة وألا تندم على طرد طفلها المسكين إلى العالم القاسي لكي يعاني ويموت.

سار الصبيان غارقين في الأسى، عقدا اتفاقا بأن يساند كل منهما الآخر وأن يكونا أخوين وألا ينفصلا أبدا إلى آخر العمر، وبدأ الصبيان بعد ذلك في وضع الخطة. كان جو يرغب في أن يصبح ناسكا يعيش على الكفاف في أحد الكهوف ويموت في وقت ما من البرد والحاجة والأسى، ولكنه بعد أن استمع إلى توم اقتنع بأن هناك ميزة واضحة في حياة الجريمة، وبالتالي وافق على أن يصبح قرصانًا.

على بعد ثلاثة أميال من سان بترسبرج، وعند نقطة يكون فيها نهر المسيسبي بعرض ميل واحد، توجد جزيرة ضيقة كثيفة الشجر وضحلة المياه، وليست مأهولة، تسمى جزيرة جاكسون.

اختار الصبيان هذه الجزيرة ليعيشا فيها، لم يفكرا فيمن سيكون موضع قرصنتهما.

(٢)

تصيدا هكلبرى الذى لحق بهما لأن كل الأمور تتساوى فى نظره. افترق الثلاثة على أن يلتقوا عند بقعة منعزلة على ضفة النهر عند منتصف الليل، حيث كان هناك قارب خشبى صغير عزموا على الاستيلاء عليه. كان على كل منهم أن يأخذ منه خطاطيف وحبالا وما يستطيع سرقته من مؤن. قبل أن ينتصف النهار، استمتعوا جميعا بإشاعة أن البلدة على وشك أن "تسمع شيئا"، وكل من سمع بتلك الإشاعة الغامضة تم تحذيره "أن يصمت وينتظر".

عند منتصف الليل وصل توم حاملا لحما وبعض الطعام وتوقف عند بقعة كثيفة النبات تشرف على مكان اللقاء. كان الليل مضيئا بالنجوم وشديد السكون، والنهر العظيم هادئ كأنه محيط ساكن. أصدر توم صفيرا مرتين وأجيبت إشارته بنفس الطريقة، ثم سمع صوتًا يقول:

- من هناك؟

- توم سوير المنتقم الأسود للبحر الإسبانى، أفصحوا عن أسمائكم.

- هك فِنْ، ذو اليد الملطخة بالدم، وجو هاربر، المرعب. كان توم قد أطلق عليهم هذه الأوصاف من عنده.

- حسن، ما هي كلمة سر الليل؟

همس صوتان بالكلمة المخيفة في اللحظة نفسها..

- الدم.

ألقى توم بما يحمله من لحم الخنزير من على حافة النهر ونزل خلفه. كان هناك ممر سهل عبر الشاطئ ولكنه ليس خطيراً.

أتى "مرعب البحار" بجزء من فخذ الخنزير، وسرق هك "ذو اليد الملطخة بالدم" مقلاة وكمية من ورق التبغ وقليلا من الخشب ليصنع غليونا، ولكن لم يكن من بين القراصنة من يدخن سواه.

قال المنتقم الأسود للبحار الإسبانية إنه لن يكون من المناسب البدء بدون إشعال النار، وكانت فكرة صائبة. رأوا ناراً مشتعلة على سطح قارب كبير يبعد عنهم مائتى متر، فذهبوا إليه وعادوا بكتلة خشب مشتعلة، وجعلوا من ذلك مغامرة، فكانوا يتهامسون "هس" بين الحين والحين ويتوقفون عن الكلام، ويضعون أصابعهم على شفاههم، وكانوا يضعون أيديهم على خناجر خيالية، واتفقوا على أنه إذا كان هناك عدو فليكن نصيبه الطعن بالخنجر حتى مقبضه لأن "الميت لا يروى قصصا". كانوا يعرفون أن الرجال أصحاب القوارب ذهبوا إلى بيوتهم ليناموا، ولكن ليس هذا عذراً مناسبًا لعمل شيء بأسلوب لا يتفق مع القرصنة.

(٣)

انطلقوا معا وكان توم فى موقع القيادة وهك عند المجداف الخلفى وجو عند المجداف الإمامى. وقف توم عاقد الذراعين في مقدمة القارب يصدر أوامره بصوت خفيض:

– الجانب المواجه للريح، اجعل القارب فى مواجهته.

– سمعا يا سيدى.

– بثبات

– بثبات يا سيدى.

– دع السفينة تنطلق.

– انطلقت يا سيدى.

وبينما الصبية يقودون القارب بثبات إلى وسط النهر، كان مفهوما أن هذه الأوامر تصدر ليكون كل شىء مشابهًا تماما لما يفعله القراصنة، وليس مقصودا منها أى شىء على وجه الخصوص.

– ما الذى تحمله السفينة؟

– مؤن، وخيوط وأشرعة يا سيدى.

– انشر الأشرعة إلى أعلى وبهدوء.

– سمعًا وطاعة يا سيدى.

– حرك الشرا ع الرئيسى والشدادات الآن.

- نعم، نعم، سيدى.

- سفينة هيلوم أرلى فى طريقنا، قف لمقابلتها عندما تصل إليها. قف، الآن.

- وهو كذلك ياسيدى.

تجاوز القارب منتصف النهر ووجهه الصبية إلى اليمين ثم أخذوا فى التجديف. لم يكن الموج عاليا فى النهر وبالتالى لم يكن التيار جارفا لأكثر من ميلين أو ثلاثة. لم يتبادل الصبية أية كلمة حوالى الساعة حتى أصبح القارب على مقربة من البلدة التى ظهرت لهم أضواؤها من بعيد، كانت البلدة تنام فى سلام بعيدا عن المياه الكاسحة للنهر، ولا أحد يعلم شيئا عن الحدث الرهيب الذى يقع. وقف المنتقم الأسود عاقداً ذراعيه ملقيا نظرة أخيرة على البلدة، وتمنى لو أن الفتاة تستطيع أن تراه الآن على صفحة البحر الهائج مواجها العواصف والموت بقلب من حديد، ذاهبا إلى مصيره بابتسامة على شفتيه. كان القرصانان الآخران يلقيان بنظراتهما الأخيرة أيضا، وتمنيا أن يجرفهم التيار ويقذف بهم بعيدا عن محيط الجزيرة.

(٤)

فى حوالى الثانية صباحًا، رسا القارب على بعد مائتى متر من رأس الجزيرة، وجاهد الصبية حتى تمكّنوا من الرسوّ به. كان جزءاً من شحنة القارب عبارة عن قلوع قديمة، قاموا بنشرها على خطاف فوق

شجرة على شكل خيمة ليحفظوا فيها المؤن، وناموا في العراء كما يفعل القراصنة، ثم أوقدوا نارا بجوار جذع شجرة كبير داخل الغابة، وقاموا بإعداد بعض اللحم في المقلاة للعشاء وأتوا على نصف كمية الخشب الجاف التي جاءوا بها معهم. كان رائعا بالنسبة لهم الاحتفال بهذا الأسلوب في الغابة البكر غير المأهولة، بعيدا عن البشر، واتفقوا فيما بينهم على ألا يعودوا أبدا للمدنية.

أضاءت النار التي أوقدوها وجوههم وتصاعد دخانها لأعلى فأحسوا بأنهم قد بدءوا حياة اللصوص والقراصنة كما يجب أن تكون.

عندما انتهى القراصنة من عشائهم، تمددوا على العشب وقد ملأتهم مشاعر الرضا. قال جو:

– أليس هذا جميلا؟ أجاب توم:

– إنه كذلك، ما الذى كان سيقوله الأولاد لو كان بمقدورهم رؤيتنا؟

– كانوا سيرغبون لدرجة الموت أن يكونوا هنا.. أليس كذلك يا هكى؟

– أعتقد ذلك. وعلى أى حال أنا مرتاح ولا أريد ما هو أفضل من هذا، وهنا لا يستطيع أحد أن يأتى ليضايق أحد كما كانوا يفعلون.

قال توم:

– إنها الحياة التى تناسبنى، لست مضطراً للنهوض مبكرا فى الصباح، ولا لأن تذهب للمدرسة وأن تفعل كل الأشياء الغبية الأخرى.

القرصان لا يجب عليه أن يفعل أى شيء يا جو عندما يكون على الشاطئ، ولكن الناسك عليه أن يصلى كثيرا ولا يحصل على أى متعة وهو منفرد بنفسه، تماما على ذلك النحو.

- نعم، هذا صحيح، ولكنى لم أفكر كثيرا فى ذلك. من الأفضل لى أن أكون قرصانًا، خاصة بعد أن جربت ذلك.

قال توم:

- أرأيت، لا يرغب الكثير من الناس فى أن يصبحوا نساكا فى هذه الأيام كما كان فى الماضى، فالقرصان محترم دائما. الناسك ينام فى مكان خشن ويضع الرماد على رأسه ويقف تحت المطر ..

- ولماذا يضع الرماد على رأسه؟ قال هك مقاطعاً.

- لا أعرف، ولكن النساك يفعلون ذلك، وكنت ستفعل ذلك إذا صرت ناسكا.

- لن أفعل ذلك أبدا..

- وماذا كنت ستفعل؟

- لا أعرف، ولكننى لن أفعل ذلك أبدا.

- لماذا يا هك؟ كيف ستتملص من فعل ذلك؟

- فقط، لن أفعل ذلك . سأهرب.

- إذا هربت فسيلحق بك العار.

لم يرد صاحب اليد المخضبة بالدم، فقد كان مشغولا بحفر قطعة من الخشب ثم ملأها بالتبغ ووضع فوقها قطعة مشتعلة من الفحم وراح يدخن، وأطلق سحابة من الدخان المعطر وقد أحس بالرضا والراحة.

(٥)

أحس القرصانان بالحسد تجاهه لأنه يدخِّن مثل الرجال، وقررا أن يجربا ذلك فيما بعد. بعد هنيهة قال هك:

– ما الذى يجب على القراصنة فعله؟

قال توم:

– الاستيلاء على السفن وحرقها والحصول على ما بها من أشياء ثمينة، ودفنها فى أماكن مخيفة حيث توجد أشباح لتحرسها ويقتلون كل شخص على متن السفينة.

أردف جو:

– ويحملون النساء إلى الجزيرة لأنهم لا يقتلون النساء.

– لا، صاح توم، لا يقتلون النساء لأنهم نبلاء ولأن النساء جميلات أيضاً.

تساءل جو بحماس:

– ألا يلبسون الملابس الغريبة؟ المرصعة بالذهب والفضة والماس؟

– من؟ سأل هك.

قال توم:

– القراصنة.

نظر هك إلى ملابسه قائلا:

- إنني لا أرتدي ملابس تناسب قرصانا ولكني لا أملك سواها.

أخبره الصبيان الآخران أن الملابس الجميلة ستأتي بعد أن يبدءوا مغامراتهم، وجعلاه يعتقد أن ملابسه الرثة تصلح في البداية رغم أن المعتاد للقراصنة أن يبدءوا مغامراتهم بملابس تناسبهم.

سكت الحديث بينهم تدريجيا، وبدأ النعاس يسرق أجفانهم وسقط الغليون من أصابع "اليد الملوثة بالدماء"، ونام نوما هانئا، ولكن "مرعب البحار" و "المنتقم الأسود للبحر الإسباني" لم يستطيعا النوم بسهولة، فقاما بتلاوة صلواتهما في صمت، وتمددا حيث لم يكن هناك من يملك إجبارهما على الانحناء وتلاوة الصلوات بصوت مرتفع، وفي الحقيقة كانا لا يريدان أن يقوما بتلاوة أي صلاة ولكنهما كانا يخشيان من عدم القيام بذلك، فلربما انشقَّت السماء عن صاعقة تصيبهما. بعد لحظات كانا على وشك النوم، ولكن ضميرهما كان صاحيا وتدخل ليحرمهما من ذلك، فقد شعرا بخوف غامض من أن يكونا قد ارتكبا خطأً بهروبهما ثم أكلهما اللحم المسروق، وبدأ عذاب الضمير يؤرقهما. حاولا التخلص من هذه الأفكار وتذكر كل منهما بأنه كثيرا ما سرق اللحم والتفاح من قبل، ولكن ضميرهما لم يهدأ. بدا لهما أنه لا يمكن التملص من الحقيقة وبأن ذلك يعد سرقة، وأن هناك وصايا في الإنجيل تحرم السرقة. قررا في النهاية أنهما إذا ظلا في هذا العمل، فلن تكون أعمال القرصنة التي سيقومان بها تتضمن السرقة، فهدأ ضميرهما لذلك وناما.

الفصل الرابع عشر

المخيَّم السعيد للأحرار

(١)

عندما استيقظ توم فى الصباح، تعجب من مكان وجوده. جلس وفرك عينيه ونظر حوله، ثم بدأ يدرك ما هو فيه. كان الفجر البارد الرمادى يطل على الوجود مع إحساس لذيذ بالسلام، وخيم الهدوء والصمت على الغابة، فلا ورقة تتحرك ولا صوت إلا صوت الطبيعة العظيمة. كانت قطرات الندى تبلل الأوراق والحشائش، وطبقة بيضاء من الرماد تغطى بقايا النار ويتصاعد منها خيط رفيع من الدخان فى الهواء، وكان جو وهك لا يزالان نائمين.

فى مكان بعيد داخل الغابة، صاح أحد الطيور وأجابه طائر آخر، ثم سمع صوت طائر نقَّار الخشب، وشيئا فشيئا أضاء النهار وجه الصبح البارد وتعالت الأصوات وأعلنت الحياة عن نفسها.

كانت الطبيعة تنهض من سباتها وتبدأ العمل. زحفت دودة صغيرة خضراء على سطح ورقة يبللها الندى أمام توم وكانت ترفع جسمها فى

الهواء من وقت لآخر وتتشمم ما حولها، وعندما اقتربت منه كان يحدوه الأمل فى أن تأتى الدودة إليه ولا تأخذ طريقا آخر، وعندما قررت أخيراً أن تقفز على رجل توم وتبدأ رحلتها فوقه، كانت السعادة تغمر قلبه، لأن ذلك يعنى أنه سيحصل على ثياب جديدة.. أى زى قرصان جديد. ظهرت بعدها كتائب من النمل من مكان ما وسارت فى طريقها، وكانت واحدة تحمل على ظهرها عنكبوتا ميتا يصل حجمه إلى خمسة أمثال حجمها وتجاهد لتدخل به إلى جذع شجرة. جاءت فراشة ملونة وحطت على ورقة من أوراق الشجرة بجانبه، فانحنى توم وقال لها: "أيتها الفراشة، أيتها الفراشة، طيرى عائدة لبيتك، فبيتك أمسكت به النار، وأطفالك وحدهم". فأشرعت جناحيها وذهبت لترى ما يحدث وهو ما لم يثر دهشة الصبى، لأنه يعرف من قديم أن الفراشة تصدق ما يقال لها. حَطَّ طائر الشمال المرح على الشجرة فوق رأس توم ثم هبط ووقف على فرع فى متناول يده، ومال برأسه إلى توم وراح يتأمله بفضول. ظهر سنجاب رمادى وآخر أحمر وراحا يجريان ويجلسان بين الحين والحين وينظران إلى الصبى، فعلى ما يبدو لم ترَ الحيوانات البرية إنسانا من قبل ولا تعرف إن كانت يجب أن تخاف منه أم لا. كانت الطبيعة بكاملها قد استيقظت واخترقت أشعة الشمس خضرة الغابة الكثيفة هنا وهناك.

أيقظ توم القرصانين النائمين وذهبوا معًا إلى الشاطئ الرملى حيث خلعوا ملابسهم وأخذوا يطاردون بعضهم البعض فى مرح. لم يشعروا بالحنين للبلدة النائمة خلف النهر. حمل تيار النهر القارب الخاص بهم بعيداً، ولكنهم شعروا بالسعادة لأن ذلك قطع الطريق بينهم وبين الناس.

عادوا إلى المخيم منتعشين يغمرهم السرور، فأشعلوا النار مرة أخرى، ووجد هك نبعًا من الماء الصافى على مقربة منهم، فصنعوا أكوابًا من لحاء الأشجار والأوراق وشربوا من الماء الذى أكسبه خشب الغابة طعمًا لذيذًا. وبينما كان جو يقوم بتقطيع شرائح لحم الخنزير ويعدها للإفطار، سأله توم وهك أن يتوقف لحظات، واتجهوا معا إلى شاطئ النهر وألقوا فى الماء بالسنانير، وكان حظهم طيبًا، فقد عادوا بصيد وفير.

قاموا بشوى السمك مع لحم الخنزير، وكان طعم السمك رائعا، فهم لم يكونوا يعرفون أن شوى السمك الطازج بعد صيده مباشرة يعطيه أفضل مذاق، كما أنهم لم يكونوا يعرفون أن النوم فى الهواء الطلق والتريض فى الهواء المنعش والاستحمام فى ماء النهر والجوع.. لهم فعل السحر على الشهية، فكانوا يأكلون بنهم شديد.

(٢)

رقد الصبية فى الظل بعد تناول الفطور، وأخذ هك يدخّن غليونه ثم ذهبوا إلى الغابة فى مهمة استكشافية. تجولوا بمرح فوق جذوع الأشجار المتساقطة وفوق الحشائش الكثيفة، وكرمات العنب البرى، وبين الحين والآخر كانت تصادفهم مساحات من الزهور البرية الجميلة.

وجدوا الكثير من الأشياء التى تسعدهم وتدهشهم، واكتشفوا أن الجزيرة طولها حوالى ثلاثة أميال وعرضها ربع الميل، والشاطئ القريب

يفصلها عنه قناة ضيقة يصل عرضها إلى مائتى ياردة. كانوا يسبحون كل ساعة، ثم يعودون إلى المخيم.

كانوا أحيانا لا يصيدون سمكا فلا طاقة لهم على الصبر، فكانوا يأكلون اللحم البارد بسرعة ثم يتمددون فى الظل ويتبادلون الحديث.

وبمرور الأيام بدأ الحديث بينهم يقل ويحل محله الصمت والوحشة والسكون والإحساس بالوحدة، وبدأت أرواحهم تتعب من العزلة، وزحف عليهم شعور جارف بالحنين، حتى إن هك صاحب اليد الملوثة بالدم بات يحلم بدرجات سلم بيته واللعب فوق البراميل الفارغة، ولكنهم كانوا يخجلون من هذا الضعف، ولم يكن عند أى منهم الشجاعة الكافية ليعبر عن إحساسه.

ومن آن لآخر كان الصبية يسمعون صوتًا مميزًا آتيًا من بعيد كما لو كان دقات ساعة، وكانوا لا يهتمون بمعرفة كنهه، ولكن الصوت أصبح أكثر حدة وأجبرهم على الانتباه إليه، فزع الصبية فى أول الأمر ونظروا إلى بعضهم البعض وبدءوا ينصتون.

– ما هذا؟ سأل جو رفاقه..

– إننى أتعجب، همس توم..

– ليس هذا رعدًا!

– انصت ولا تتكلم، صاح هك.

انتظروا لبعض الوقت، ثم عاد الصوت يقطع الصمت مرة ثانية.

قال توم:

– فلنذهب ونرَ..

أسرعوا إلى الشاطئ المواجه للبلدة، وقفوا خلف الشجيرات ونظروا عبرها إلى ما وراء المياه. كان المركب البخارى الصغير الذى يعبر النهر من الشاطئ حيث البلدة إلى الشاطئ الآخر للنهر يسير مع التيار وعلى متنه جمع من الناس وعدد كبير من الزوارق يبحر مع التيار حول المركب البخارى، ولكن لم يتمكن الصبية من معرفة ما يفعله الرجال الذين يقودونها. بعد قليل انبعثت سحابة من الدخان الأبيض من جانب المركب البخارى وتبعها نفس الصوت الهادر.

صاح توم:

– أنا أعرف الآن، لقد غرق شخص ما.

رد هك قائلا:

– هذا هو الأمر، لقد فعلوا ذلك الصيف الماضى عندما غرق هيل ترنر، فقد أطلقوا مدفعًا فوق الماء مما جعله يطفو إلى السطح، ثم أخذوا رغيفًا من الخبز ووضعوا فيه زئبقا وقذفوا به على سطح الماء، فإذا كان هناك غريق فى المكان فإنه يطفو إلى السطح عنده.

قال جو:

– نعم، لقد سمعت عن ذلك، وأتعجب ما الذى يجعل الخبز يؤدى إلى ذلك؟.

قال توم:

- ليس الخبز هو ما يفعل، ولكنى أعتقد أنه تأثير ما يتلونه من كلمات على الخبز قبل قذفه إلى الماء.

- ولكنهم لا يتلون شيئا على الخبز. قال هك.

قال توم:

- هذا غريب حقا، ربما كانوا يفعلون ذلك بالتلاوة الصامتة، لابد أنهم يفعلون ذلك.

(٣)

وافق الصبيان الآخران على أن ما قاله توم يعد معقولا لأن قطعة من الخبز لا تأتمر بتلاوة معينة، وليس من المتوقع أن تؤدى المهمة التى أوكلت لها. قال جو:

- كم أتمنى لو كنت هناك الآن.

- وأنا أيضًا. قال هك، فأنا أود أن أعرف من الذى غرق؟

ظل الصبية ينصتون ويراقبون المشهد، وفجأة لمعت فى ذهن توم فكرة.. فصاح قائلا:

- أنا أعرف من غرق، إنه نحن!!

أحسوا كما لو أنهم أبطال، فقد كانوا مفقودين ويقام عليهم الحداد وتنفطر القلوب حزنا عليهم، وتذرف الدموع على الصبية المفقودين،

وأصبح أمرهم حديث البلدة كلها وموضع حسد الأولاد الآخرين. كان هذا طيبا بالنسبة لهم، فمن الشرف أن يصبح المرء قرصانا.

بعد برهة عاد المركب البخارى لعمله المعتاد واختفت الزوارق، وعاد القراصنة إلى المخيم يملؤهم الزهو على عظمتهم الراهنة والمشاكل التى تسببوا فيها. قاموا بصيد السمك وأعدوا طعام العشاء وأكلوا، ثم بدءوا يخمنون ما تعتقده البلدة وتقوله عنهم، وصورة المحنة العامة التى تسببوا فيها، وعندما احتواهم الليل فى ظلمته لفّهم الصمت تدريجيا وجلسوا يحملقون فى النار وعقولهم كانت فى أماكن أخرى. كانت الإثارة قد خفت حدتها ولم يستطع توم وجو إبعاد أفكارهم عن أناس فى البلدة لا يرضيهم ما يحدث، وغمرهم إحساس بالاضطراب والتعاسة وراحا يتنهدان فى سكون.

بدأ جو يفكر تدريجيا فى العودة إلى البلدة، ليس بالضرورة الآن، لكن لابد من العودة. أنبه توم بحدة وتبعه هك هو الآخر، حيث لم يكن قد حزم أمره بعد، وشرح جو موقفه من جديد وتم احتواء التمرد فى حينه.

عندما أوغل الليل، بدأ هك فى النعاس ثم نام جو أيضًا، أما توم فكان مستلقيا يراقب الصديقين النائمين، ثم قام بحذر وزحف على ركبتيه وأخذ طريقه بين العشب على الضوء المنبعث من نار المخيم. التقط غصنان مناسبان، وجلس بجوار النار وكتب بصعوبة عليهما

بالمداد الأحمر أشياء، ثم وضع أحدهما فى جيب سترته ووضع الآخر فى قلنسوة جو وأبعدها قليلا عن رأسه، ووضع أيضا فى القلنسوة بعض كنوز صبيان المدرسة ذات القيمة الكبيرة، كان من بينها قطعة من الطباشير، وكرة مطاطية وثلاث سنانير وبلية من الكريستال. ثم سار على أطراف أصابعه بحذر بين الأشجار إلى أن أحس أنه قد ابتعد عن المخيم وأخذ طريقه جريا فى اتجاه الشاطئ الرملى.



الفصل الخامس عشر

زيارة توم المتلصِّصة للبيت

(١)

بعد دقائق وصل توم إلى المياه الضحلة للحاجز الرملي المفضي إلى شاطئ إلينوي، نزل ومشى في الماء، وقبل أن يصل الماء إلى وسطه كان قد تخطى منتصف النهر حيث لا يمكن السير في الماء فبدأ في السباحة لتخطي المائة متر المتبقّية. كان يسبح مع التيار الذي كان يشده لأسفل بسرعة أكبر مما كان يتوقع، ولكنه وصل إلى الشاطئ وبحث عن مكان منخفض ليخرج منه، وبعد قليل خرج من الغابة إلى مكان مفتوح يواجه البلدة ورأى المعدية راسية على الشاطئ. زحف على الرمال وعينه تراقب المكان، ثم انزلق إلى الماء وقام بالسباحة لذراعين أو ثلاثة، ثم تسلق حافة الزورق الذي كان راسيا بالقرب من مقدمة السفينة وتمدد تحت المجدافين في باطن الزورق.

بعد قليل دق الناقوس محدثًا صوتا نبّه البحارة للإبحار. مرَّت دقيقة أو دقيقتان، بعدها بدأت رحلة السفينة. أحس توم بالسعادة على

نجاحه فى مهمته لأنه كان يعرف أنها آخر رحلة للسفينة هذه الليلة. بعد حوالى خمس عشرة دقيقة توقفت السفينة ودلف توم إلى السطح وسبح تحت جنح الظلام إلى الشاطئ دون أن يلحظه أحد.

(٢)

أسرع الخطى عبر مسار غير مألوف، وبعد قليل وصل إلى السور الخلفى لبيت خالته. تسلق السور، وصعد إلى السطح ونظر عبر نافذة غرفة الجلوس، فوجد نار المدفأة موقدة، ووجد خالته بولى وسيدنى ومارى وأم جو هارير متجمعين حولها ويتحدثون. ذهب توم إلى الباب وبدأ فى فتح الباب بخفة، فانفتح فتحة صغيرة، فاستمر يدفع الباب إلى أن صارت الفتحة تسمح بمروره على ركبتيه. وضع رأسه عبر فتحة الباب فسمع خالته تقول:

– ما الذى يجعل الشمعة تتراقص هكذا؟

ثم أردفت:

– ما الذى فتح الباب؟ يبدو أنه لا نهاية للأحداث الغريبة! اذهب واقفل الباب يا سيدنى.

أخفى توم نفسه تحت الفراش فى اللحظة المناسبة. ظل لبرهة ساكنًا ثم زحف إلى أن أصبح بالقرب من قدمى خالته، وسمعها تقول:

– وكما كنت أقول، لم يكن توم سيئا، وإنما كان طائشًا ومتهورًا. لم يكن لديه إحساس بالمسئولية وكأنه جحش، ولكنه لم يكن

يتعمد الإيذاء وكان أطيب الأولاد قلبًا. ثم بدأت في البكاء. قالت والدة جو:

- كان هذا هو وضع جو، كان هو الآخر شيطانا صغيرا ومستعداً لكل عمل طائش، ولكنه لم يكن أنانيا أبدا، وكان متسامحا وطيب القلب إلى حد كبير، وليسامحني الرب لأنني جَلَدته ذات مرة لأكله القشدة، فساعتها لم أتذكر أنني ألقي بها في القمامة، لأنها كانت تتلف في العديد من المرات. ولكني لن أراه مرة أخرى في هذا العالم أبدا، أبدا، يالطفلي المسكين! وبدأت السيدة هاربر في النحيب كما لو أن قلبها يتمزق.

قال سيدني:

- آمل أن يكون توم أكثر سعادة في المكان الذي ذهب إليه، ولكنه لو استطاع أن يكون أفضل بشكل ما فسوف...!

رمقته خالته بنظرة حادة من عينيها وصاحت:

- سيدني!

أحس توم بالنظرة الحانقة في عيني خالته وهي تقول:

- ولا كلمة أخرى. لقد ذهب توم وسيرعاه الله، فلا شأن لك بذلك يا سيدني. آه يا سيدة هاربر، لا أعرف كيف أنساه. لقد كان مسليًا لي رغم تعذيبه لقلبي العجوز.

- الله أعطى والله أخذ، مبارك اسم الرب. ولكنه أمر شديد الصعوبة.. شديد الصعوبة. يوم السبت الماضي فجَّر جو صاروخا تحت أنفي

وضربته ضربا مبرحا. لم أكن أدرى حينئذ أنه فى القريب!! آه، لو فعل ذلك ثانية لاحتضنته وقبلته.

- نعم، نعم، نعم.. أعرف كيف تشعرين يا سيدة هاربر. أعرف تماما كيف تشعرين. منذ فترة ليست طويلة، ظهر أمس فقط، أخذ توم القط وأعطاه مسكن الألم. وأحسست أن القط سيمزق أثاث البيت إربا. وليسامحنى الله، ضربت توم على رأسه بقوة.. آه.. الفتى المسكين، الفتى المسكين، ولكنه بعيد عن كل هذه المشاكل الآن.

(٣)

كانت هذه الذكريات شديدة الأثر على قلب السيدة العجوز، فانهارت تماما. كان توم يشعر بالحزن من أجل نفسه أكثر من أى فرد آخر. كان باستطاعته سماع مارى وهى تبكى وتقول كلمات طيبة عنه من وقت لآخر. بدأت تكوّن له تصورات نبيلة عن نفسه أكثر من أى وقت آخر، ولكنه كان متأثرا بأحزان خالته لدرجة جعلته يودّ أن يندفع من تحت الفراش ويحتضنها بفرح. كان هذا الإحساس الجميل من طبيعته ولكنه قاومه وظل ساكنًا.

ظل توم يستمع لهم، وأدرك من البداية أنهم يعتقدون أن الصبية قد غرقوا عندما كانوا يمارسون السباحة ثم وجدوا أن القارب الصغير قد اختفى، وقال البعض إن الصبية المفقودين قد توعدوا البلدة بأنها

"سوف تسمع شيئا" عن قريب. وضع الحكماء هذا مع ذاك معًا وقرروا أن الصبية هربوا على متن القارب، وأنهم سوف يظهرون في البلدة التالية لبلدتهم عن قريب، ولكن عند الظهيرة ظهر القارب راسيا بجوار شاطئ ميسوري على بعد خمسة أميال بعد البلدة، فماتت الآمال وأيقنوا أنهم غرقوا وإلا لكان الجوع قد دفعهم إلى الرجوع للبلدة في المساء، وظنوا أن البحث عن أجسادهم في النهر غير مجدٍ، لأن الغرق حدث في منتصف النهر، وأن الصبية لو كانوا يجيدون السباحة لكان بإمكانهم الوصول إلى الشاطئ، وكان ذلك في ليلة الأربعاء، ولو بقيت الأجساد في الماء حتى يوم الأحد، فسوف تتلاشى الآمال تماما في العثور عليهم وتعقد مراسم الجنازة في الصباح. ارتعد توم لذلك، وألقت السيدة هاربر التحية وهي تبكي واتجهت للخروج، وبلهفة متبادلة ألقت السيدتان كل بين ذراعي الأخرى وهما تذرفان الدموع بشدة، ثم افترقتا. كانت الخالة بولي في غاية الرقة حين ألقت بتحية المساء لكل من سيدني وماري التي كانت تبكي من قلبها بحرقة.

(٤)

انحنت الخالة بولي وأخذت تصلي من أجل توم بطريقة مؤثرة وبحب خالص بدا في كلماتها وفي صوتها المرتعش لدرجة جعلت توم يغرق في الدموع قبل ذهابها لتنام. كان عليه أن يظل ساكنا بعد ذهابها لأنها ظلت تنهنه وتصدر أصواتًا تمزق القلب من وقت لآخر وهي تتقلب بلا ارتياح في فراشها. أخيراً سكنت حركتها ونامت.

خرج الصبى من تحت الفراش ووقف بجوارها وعلى ضوء الشمعة نظر إليها فانفطر قلبه وطفرت الدموع من عينيه وقلبه يمتلئ إشفاقا عليها. أخذ فرع الشجرة من جيبه ووضعه بجوار الشمعة، ولكن شيئا طرأ بباله فتوقف، وخطرت له فكرة فأشرق وجهه. وضع الفرع بسرعة فى جيبه مرة أخرى وانحنى وقبّل خالته وخرج بسرعة وأغلق الباب.

سار عائدا إلى مكان المعدية فلم يجد أحداً، فصعد بشجاعة إلى سطح المعدية لأنه كان يعرف أن لا أحد هناك فيما عدا الحارس الذى عادة ما يدخل لينام. فك الزورق الصغير المربوط بمقدمتها، ونزل إليه وبدأ في الإبحار بحذر مع التيار إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر بسهولة، فقد كان ذلك مألوفًا له. كان يريد الاستيلاء على الزورق واعتباره غنيمة مشروعة لقرصان، ولكنه كان يعرف أن بحثًا دقيقا سوف يجرى لإعادته قد ينتهى بانكشاف أمرهم، فأسقط الفكرة وقفز إلى الشاطئ ودخل إلى الغابة.

جلس يستريح وحاول أن يظل مستيقظا، ثم بدأ رحلة العودة، كان معظم الليل قد انقضى وبدأت تباشير الصباح قبل أن يصل إلى الحاجز الرملى. استراح إلى أن أشرقت الشمس، ثم ألقى بنفسه فى النهر وسبح مع التيار إلى أن وصل بالقرب من المخيم وسمع جو يقول:

– توم سوف يعود يا هك ولن يهرب، فهو يعرف أن ذلك يعد عاراً بالنسبة لقرصان وتوم يمنعه كبرياؤه من ذلك. هو على الأرجح يفعل شيئا ما ولكن لا أعرف ما هو!

– حسن، هذه الأشياء ملكنا، أليس كذلك؟

– تقريبا، ولكن ليس بعد يا هك. القواعد تقول إنها ملكنا إذا لم يعد إلى هنا قبل الإفطار.

دخل توم إلى المخيم صائحا: "وها هو يعود".

تم إعداد وجبة الإفطار من السمك ولحم الخنزير وأثناء تناولهم الإفطار قصَّ عليهم توم مغامرته، فانتابتهم حالة من الزهو واعتقدوا أنهم من الأبطال، وحين انتهى توم من قصته ذهب لينام واستعد الآخران للصيد والاستكشاف.



الفصل السادس عشر

أول غليون.. "لقد فَقَدْتُ سِكِّينى"

(١)

بعد الغداء اتجهت العصابة إلى صيد بيض السلاحف على الشاطئ، فكانوا يغرسون العصى في الرمل وعندما يجدون موقعًا لينا يحفرون بأيديهم ليخرجوه. كانوا يجمعون خمسين أو ستين بيضة من حفرة واحدة. كان بيض السلاحف يشبه إلى حد كبير بيض الحمام، واستمتعوا بأكله على العشاء في تلك الليلة، وفى صباح اليوم التالى بعد الإفطار توجهوا إلى الشاطئ يمرحون ويطارد بعضهم البعض، ويخلعون ثيابهم إلى أن أصبحوا عراة. استمروا في صخبهم ولهوهم في مياه الشاطئ الرملي الضحلة، وكانوا يغرسون أرجلهم في الرمال والماء يغمرها من وقت لآخر، مما زاد من سعادتهم.

أحيانا كانوا يقفون قبالة بعضهم ويرشون الماء على وجوه بعضهم البعض، ثم يتصارعون إلى أن يتمكن القوى من إسقاط الضعيف ثم

يسقطون معا وقد تشابكت أرجلهم وأيديهم لينهضوا ضاحكين في سعادة، وكانوا حين يشعرون بالتعب يستلقون على الرمل ويغطون به أنفسهم، ثم يعودون مرة أخرى إلى الماء ويكررون المشهد نفسه مرات ومرات. أخيرا، رسموا دائرة على الرمل ودخل البهلوانات الثلاثة إليها ضاحكين وأخرجوا البلى وبدأوا في اللعب إلى أن فرغوا من تلك المتعة فأسرع جو وهك للسباحة بينما لم يذهب توم، فلم يكن لديه رغبة في السباحة. ذهب الجميع بعد ذلك للتجوال على الشاطئ بعيداً وقد أرسلوا أبصارهم تجاه البلدة باشتياق عبر النهر الواسع. وجد توم نفسه يكتب "بيكي" على الرمل بإصبعه وأحس بالغضب من ضعفه، ولكنه كتب الاسم مرة أخرى بالرغم من ذلك ومسحه ثانية. وأخيراً قرر التوقف عن ذلك فجرى ليلحق برفيقيه اللذين كانا قد ابتعدا.

كان جو في حالة معنوية سيئة، فقد اشتد حنينه للوطن لدرجة لم يعد يتحمل معها البؤس الذي يشعر به. كانت دموعه على وشك النزول، وكان هك مضطرباً هو الآخر، وكان توم يعاني مثلهم، ولكنه حاول ألا يظهر ذلك. كان لديه سر ولم يكن على استعداد بعد للبوح به، وقرر أن يقول لهم إذا لم ينقشع هذا الإحباط:

– أراهن أن هذه الجزيرة جاءها القراصنة من قبل، وعلينا استكشافها من جديد. لقد أخفوا كنوزاً في مكان ما. كيف ستشعرون عند العثور على صندوق مليء بالذهب والفضة؟

ولكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى القليل من الحماس الذي اختفى بسرعة. حاول توم إغراءهم مرة أخرى ولكنه فشل.

(٢)

جلس جو يعبث في الرمل بعود من الخشب وهو شديد التجهّم، وأخيرا قال:

- فلندع الأمر كله يا أصدقائي، أريد الذهاب للبيت. الوحدة شديدة هنا.

قال توم:

- لا يا جو، سوف يتحسن شعورك رويداً رويداً، فكر فقط في الصيد الوفير هنا.

قال جو بانفعال:

- أنا لا يهمني الصيد، أريد الذهاب للبيت.

- ولكن يا جو، لا يوجد مكان مثل هذا للسباحة.

- السباحة ليست بالأمر الطيب وأنا غير مهتم بها. أنا أريد الذهاب للبيت.

قال توم بنبرة لوم:

- يا أيها الصغير، أتريد رؤية أمك؟

- نعم، أريد رؤية أمي وأنت أيضا كنت تريد ذلك لو كانت لك أم، ولست أصغر منك.

قال جو ذلك وأخذ في النشيج.

- سنترك الطفل الباكى ليعود إلى أمه. أليس كذلك يا هك؟ يا للفتى المسكين! يريد أن يرى أمه؟ فليكن ذلك. ولكنك تحب المكان هنا يا هك وستبقى أليس كذلك؟

قال هك "نعم" ولكن بلا قلب. صاح جو بغضب:

- لن أتكلم معكما أبدا ما حييت! وسار بعيداً، وبدأ فى ارتداء ملابسه.

قال توم:

- ومن يهتم، لا أحد يريدك هنا. اذهب إلى البيت وتحمَّلْ أن تصبح أضحوكة. أنت قرصان طيب وهك وأنا لسنا أطفالاً. وسوف نبقى، أليس كذلك يا هك؟ دعه يذهب إذا أراد. أعتقد أننا نستطيع العيش هنا بدونه.

(٣)

كان توم مضطربا بالرغم من ذلك وأزعجه رؤية جو يكمل ارتداء ملابسه ثم أصبح الأمر أكثر صعوبة حين رأى هك يتابع ما يفعله جو فى صمت. بعد قليل وبدون كلمة وداع، بدأ جو السير فى اتجاه شاطئ إلينوى، وغاص قلب توم بين أضلعه. نظر إلى هك، ولم يتحمل هك نظرته فأسقط عينيه إلى الأرض وقال بخجل:

- أنا أيضا أريد العودة يا توم، الحياة هنا تزداد صعوبة، والآن بعد ذهاب جو ستكون أكثر وحشة، فلنذهب معه يا توم.

صاح توم بانفعال:

- لن أفعل ذلك، تستطيعان الذهاب إذا أردتما، ولكنى سأبقى.

قال هك:

- توم، من الأفضل أن أذهب.

- اذهب إذن - ما الذى يمنعك؟

بدأ هك فى جمع ملابسه المبعثرة ثم قال:

- توم، أود أن تأتى معنا أنت أيضا. فكر فى الأمر، سوف ننتظرك عندما نصل إلى الشاطئ.

قال بسخرية:

- سوف تنتظران كثيرا إذن.

بدأ هك السير فى اتجاه الشاطئ وتوم يتابعه بنظراته، كان بداخله رغبة قوية ليتنازل عن كبريائه ويرحل معهما. كان لديه أمل فى أن يتوقف الصبيان ولكنهما كانا مستمران فى السير. فجأة أحس توم بالوحدة الشديدة والسكون القاتل وحاول مرة أخرى أن يقهر كبرياءه، فجأة انطلق يجرى وراء رفيقيه وهو يصيح:

- انتظرا! انتظرا! أريد أن أقول لكما شيئا.

توقف الاثنان إلى أن وصل إليهما ثم بدأ يحكى لهما سره. انصتا بإمعان إلى أن أدركا ما يقصده ثم قررا أن الخطة رائعة، وأنه لو كان قد قال لهما ذلك من البداية لما كانا قد قررا العودة. اعتذر لهما بأنه

كان يخشى ألا ينجح السر فى إبقائهما معه لمدة أطول وبالتالى حاول الاحتفاظ بالسر كورقة أخيرة.

أصبح الصبية مرحين مرة أخرى ومارسوا كل رياضاتهم بشغف وهم يتكلمون طول الوقت عن خطة توم ويبدون إعجابهم بها، وبعد أن تناولوا الغداء وكان من البيض والسمك، أبدى توم رغبته فى تعلم التدخين، وتبعه جو، فقام هك بصنع غليونين وملأهما بالتبغ، كانا لم يُجرِّبا التدخين من قبل سوى بعض السيجار المصنوع من ورق العنب وعندما عَضَّ ألسنتهما توقفا.

رقد الاثنان مستندين على مرفقيهما، وبدآ فى التدخين بمرح ولكن بقليل من الثقة، كان مذاق الدخان غير ممتع. وقال توم:

– إنه أمر سهل، ولو كنت أعرف ذلك لتعلمته من فترة طويلة.

رد جو

– وكذلك أنا، إنه لا شىء بالمرة.

– قال توم:

– لقد راقبت المدخنين كثيرا من قبل وفكرت فى أن أفعل ذلك، ولكنى لم أعتقد أننى سأحبه.

– هذا هو الحال معى أيضا، أليس كذلك يا هك؟ لقد سمعتنى أقول ذلك.

رد هك:

– "نعم، العديد من المرات.

صاح توم:

– وكذلك أنا ولثات المرات، وإحدى المرات كانت بجوار السلخانة. ألا تتذكر يا هك؟ كان بوب تانر موجوداً وجوني ميللر وجيف ثاتشر عندما قلت ذلك. ألا تتذكر أنني قلت ذلك؟

– نعم، كان ذلك يوم فقدت البلية البيضاء، لا بل كان قبل ذلك بيوم.

– لقد قلت لك ذلك، وهك يتذكر.

قال جو:

– أعتقد أن بإمكاني التدخين طوال اليوم، فأنا لا أشعر بالغثيان.

– ولا أنا، وأعتقد أيضا بأنني أستطيع التدخين طوال اليوم.

قال توم:

– ولكني أراهن أن جيف ثاتشر لا يستطيع.

ردّ هك قائلا:

– جيف ثاتشر كان سيسقط مغشيا عليه عند أول تجربة للدخان، فقط دعه يجرب وسترى.

– وكذلك جوني ميللر، كم أودّ أن أرى جوني ميللر يجرب التدخين مرة.

أجابه جو:

– جوني ميللر لا يستطيع فعل ذلك، نَفَس واحد من الدخان يقضي عليه.

قال هك بفخر:

- بالتأكيد يا جو، كم أتمنى لو استطاع الأولاد رؤيتي وأنا أدخن.

- وأنا كذلك.

- لا تقولوا أي شيء عن ذلك وفي وقت ما عندما نعود سوف آتي إليكما وأقول، جو، ألديك غليون؟ أريد التدخين، وستقول بلا اهتمام كما لو أن الأمر بسيط، نعم، لدي غليوني القديم وغليونٌ آخر، ولكن التبغ ليس بهذه الجودة، وسأقول، لا عليك إذا كان قويا بدرجة كافية، وعندما ستعطيني الغليون وأشعله بهدوء وسترى كيف سيبدون.

- يا إلهي! سيكون ذلك مُسَلِّيًا، كم أود لو حدث ذلك الآن يا توم.

- وكذلك أنا. وعندما نقول لهم إننا تعلمنا حين كنا نمارس القرصنة، وسيتمنون لو أنهم كانوا قد جاءوا معنا!

- أراهن أنهم سيفعلون ذلك.

(٤)

وهكذا استمر الحديث ولكنه انقطع بعد قليل وخيَّم عليهم السكون وزاد السعال بعد أن أصبح حلق كل منهما محترقا بالدخان. كان كلاهما يبدو شاحبًا ويكاد يختنق، وسقط غليون جو من بين أصابعه وتبعه غليون توم. كان صدر كل منهما يمتلئ بالدخان ويسعلان بشدة. قال جو بصوت ضعيف:

– لقد فقدت سكّيني وأعتقد أنه من الأفضل أن أذهب للبحث عنها.

قال توم بشفاه مرتعشة:

– سأساعدك، اذهب من هذا الطريق وسأذهب إلى النبع، لا تأتِ يا هك. نستطيع أن نجدها.

جلس هك وانتظر لأكثر من ساعة واستبدت به الوحدة فذهب يبحث عن رفيقيه. كانا بعيدين عن بعضهما في الغابة وكلاهما شديد الشحوب وفي حالة خمول. كان هك موقنًا بأنه لو أن بهما أى سوء لما قاما وذهبا للبحث عن السكين.

لم يتحدث الصبية خلال العشاء.. كانت حالتهم مزرية ومنظرهم مثيراً للشفقة، وعندما جهز هك غليونه بعد العشاء وبدأ في إعداد غلايينهم، رفضا بشدة لإحساسهما بالإعياء.

عند منتصف الليل، استيقظ جو ونادى على الصبيين، كان الهواء ملبداً بشيء يثير الرعب. اندفع الصبية يتماسكون معا حول النار، ولكن المناخ القاتم كان يزداد قتامة. جلسوا ساكتين وينتظرون.

استمر الإحساس بالخوف والرهبة، فكل شيء حولهم غارق في سواد الظلمة. بعد قليل ومضت دفقة من الضوء ثم تلاشت بسرعة، جاءت بعدها ومضة أخرى أشد قوة ثم أخرى تبعها صوت مخيف قادم عبر الأشجار. وأحس الصبية برياح شديدة تلفح خدودهم، وأرعبتهم فكرة أن "روح الليل" قد مرت بجوارهم. ساد السكون لفترة، ثم أحال الوميض الليل إلى نهار مظهراً كل شيء بما في ذلك العشب تحت أقدامهم،

وكذلك أضاءت وجوههم البيضاء الخائفة. كان صوت الرعد مرعبا ويجيء على فترات ويزمجر في الأفق ومرت ريح باردة تصفر بقوة وتضرب الشجر في عنف وتنثر رماد النار حولهم. أضاء البرق مرة أخرى في الغابة وتبع ذلك صوت تكسر أفرع الشجر فوق رءوسهم. أمسك الصبية ببعضهم في ذعر وبدأ المطر يهطل كالسيل.

هتف توم:

- بسرعة إلى الخيمة.

اندفع الصبية يدوسون أفرع الشجر والجذور في الظلام، ومرقت ريح عاتية عبر الأشجار وتبعتها ومضات البرق وصوت الرعد، واشتد سقوط المطر وازدادت شدة الإعصار. نادى الصبية على بعضهم، ولكن الريح الصاخبة والرعد العاتي أغرقا أصواتهم تماما. ولكنهم تمكّنوا في النهاية من الاحتماء بالخيمة، وقد أحسوا بالبرد والخوف وبشلالات الماء تنهمر من فوقهم. لم يكن باستطاعتهم الكلام، وكان الشراع القديم الذي يحتمون به يهتز بقوة مع زيادة قوة العاصفة، وأخيراً انفصل الشراع وطار بعيداً مع الريح أمسك الصبية بأيدي بعضهم البعض وأسرعوا للاحتماء بشجرة بلوط كبيرة تطل على الشاطئ؛ كانت الموقعة في أشد لحظاتها احتداما، وتحت ضوء البرق الذي لا ينقطع ظهر كل شيء بوضوح وبلا ظلال، فظهرت الأشجار المتمايلة بشدة، والنهر الهائج.. والحواف القاتمة للتلال القائمة على الجانب الآخر من النهر. كانت بعض الأشجار تخسر المعركة وتسقط على الأرض وأصبح البرق يأتي في

صورة انفجارات شديدة تصمُّ الآذان. تصاعدت حدة العاصفة إلى الحد الذى كادت فيه أن تمزق الجزيرة إلى شظايا وتحرقها وتنسفها نسفًا. كانت ليلة ليلاء للصبية الصغار.

(٥)

انتهت الموقعة وهدأت العاصفة مع اقتراب الفجر وعاد السلام ثانية. رجع الصبية إلى المخيم وهم خائفون، لكنهم وجدوا شيئا يستحق الشكر لأن شجرة البلوط الضخمة التى كانت تحمى الفراش قد احترقت تماما ودمرها البرق ولحسن الحظ لم يكونوا تحتها عندما وقع ذلك.

كان كل شيء فى المخيم قد ناله الخراب، فقد كان الصبية بلا عقل كبقية جيلهم، ولم يحتفظوا بأية مؤن بعيدا عن اتلاف المطر. كان وضعهم سيئا وقد ابتلوا تماما وغمرتهم البرودة. اكتشفوا أيضا أن النار قد أتت على معظم اللوح الخشبى الذى كان بجوارها. قاموا بجمع بعض لحاء الأشجار وأوقدوا فيه النار وجمعوا كومة من الأفرع الجافة ليزيدوا النار اشتعالا، وعادت إليهم السعادة مرة أخرى، ثم قاموا بتجفيف لحم الخنزير وأعدوا الطعام. بعد الأكل جلسوا حول النار يتأملون فى مغامرة منتصف الليل التى مروا بها، ولكن للأسف لم يكن هناك مكان جاف ليناموا فيه.

حينما بدأ ضوء النهار يتسلل إلى المخيم، كان النعاس يداعب جفونهم، فذهبوا إلى الشاطئ الرملي وناموا هناك، وبعد أن استيقظوا أعدوا طعام الإفطار وأكلوا، ثم عاودهم الحنين للوطن مرة أخرى.

حاول توم رفع روح القراصنة المعنوية بقدر ما يمكنه، ولكنهما لم يلقيا بالا لذلك. قام بتذكيرهم بالسر فنجح إلى حد ما وجعلهم يهتمون بأمر جديد هو التخلي عن كونهم قراصنة لبعض الوقت وأن يصبحوا هنودا لمجرد التغيير. جذبتهم الفكرة وسرعان ما خلعوا ملابسهم من الرأس للقدم وتلطخوا بالطين، وساروا عبر الغابة ليهاجموا مستعمرة إنجليزية.

قسموا أنفسهم إلى ثلاث قبائل متعادية واندفعوا تجاه بعضهم فى معركة استغرقت معظم النهار وكان يوما مسليا وممتعا.

(٦)

تجمَّعوا فى المخيم عند العشاء، كانوا جائعين ولكن سعداء، لكن كانت هناك صعوبة وهى أن الهنود الأعداء لا يتصالحون ولا يأكلون معا إلا بعد أن يعقدوا مجلس صلح، وهذا المجلس لا يبدأ إلا بتدخين الغليون، ولم يكن هناك سبيل آخر. وَدَّ اثنان منهما لو أنهما ظَلاَّ قراصنة، ولكن تظاهرا بالمرح، وطلبا تدخين الغليون.

كانوا مسرورين لفكرة أن يصبحوا متوحشين، لأنهم كسبوا شيئا، وبإمكانهم الآن أن يدخّنوا. لم يكن هناك بدٌّ من ذلك فجربوا التدخين مرة أخرى بعد العشاء بنجاح وبالتالى أمضوا ليلة سعيدة. كانوا فخورين وسعداء بذلك الإنجاز.



الفصل السابع عشر

القراصنة فى جنازتهم

(١)

كانت البلدة الصغيرة الوادعة فى حزن ظهيرة يوم السبت. كان آل هاربر وأسرة الخالة بولى يرتدون ملابس الحداد ويغمرهم الكثير من الأسى ويبكون بالدموع. استولى هدوء غير عادى على سكانها وأظهر السكان احتمالهم فتحدثوا عنهم قليلا وتنهدوا كثيرا. بدت عطلة السبت عبئا على الأطفال، فلم يكن لديهم حماس للعب. وجدت بيكى ثاتشر نفسها تتجول فى فناء المدرسة وهى مضطربة ولم تجد فيه ما يهدئ خاطرها. همست لنفسها:

– آه، لو كان عندى مقبض نحاسى مرة أخرى! ولكنى لا أملك الآن شيئا لأتذكره به، وانفجرت فى البكاء. توقفت بعد قليل وقالت لنفسها:

– لقد حدث ذلك هنا! آه لو حدث ذلك مرة أخرى، لم أكن سأقول ما قلت، ما كنت لأقولها فى مقابل العالم بأسره، ولكنه ذهب الآن ولن أراه بعد ذلك أبدا أبدا.

تملَّكها الحزن فبكت وخرجت والدموع على خدِّها. ظهر أمامها مجموعة من الصبية والبنات اعتادوا اللعب مع توم وجو، توقفوا ينظرون من خلف السور ويتحدثون عما فعل توم، ومتى رأوه آخر مرة، وكيف قال جو هذا وذاك.. وكأنه كان يتنبأ بالنبوءة الفظيعة آنذاك. كان كل منهم يشير إلى المكان المحدد الذى كان الصبية المفقودون يقفون فيه، وصاح أحدهم: "وكنت واقفًا هنا كما أقف الآن وقريبا منه وقد ابتسم هكذا.. وأحسست بشىء غريب يحدث لى، ولكنى لم أدرك ما يعنيه!".

حدث بينهم جدال عمَّن رأى الصبية لآخر مرة وهم أحياء، وادَّعى بعضهم أنه كان آخر من رآهم، وعندما عرف من رآهم لآخر مرة وتبادل معهم آخر الكلمات، أحسوا بأهميته وحسدوه على ذلك. قال أحد الصبية الذى لم يكن لديه شىء يفاخر به:

– لقد ضربنى توم سوير ذات مرة.

ولكنه فشل فى أن يلفت إليه الأنظار، فمعظم الصبية كان بإمكانهم أن يقولوا ذلك مما جعل الأمر لا يستحق الاهتمام. انصرف الجميع والذكريات عن الأبطال المفقودين تتداعى.

(٢)

عندما انتهى وقت مدرسة الأحد فى اليوم التالى، دقَّت الأجراس دقات مختلفة عن الدقات المعتادة. كان سبتًا ساكنًا على غير المعتاد اتحدت فيه أصوات الحداد مع الصمت المخيم، وبدأ أهل البلدة يتجمعون

وأخذوا يتهامسون فيما بينهم عن الحدث الحزين وهم يسيرون في الطريق، ولكن الهمس توقف في الكنيسة، وسمع حفيف ثياب النساء وهن يأخذن أماكنهن. لا أحد يتذكر مناسبة كانت فيها الكنيسة مليئة بهذه الكيفية. كانت هناك لحظة انتظار تبعتها لحظات صمت كنيبة دخلت بعدها الخالة بولي يتبعها سيدني ومارى ثم عائلة هاربر وهم يرتدون ثياب الحداد. وقف الجميع بما فيهم القس احتراما لهم إلى أن جلسوا في المقاعد الأمامية وساد الصمت مرة أخرى، وكان لا يقطعه سوى بكاء خافت ثم فتح القس ذراعيه وأخذ في تلاوة الصلاة. قام الأطفال بغناء مزمورٍ مؤثرٍ ثم تبعوه بتلاوة "أنا القيامة والحياة".

وبينما تقام المراسم، رسم القسّ صورة للقدرة الإلهية وكيفية الفوز في الحياة، والوعد الذى كان ينتظر الصبية المفقودين، وأن كل أهل البلدة يشعرون بالصدمة لأنهم أغمضوا أعينهم عنهم قبل ذلك ولم يروا سوى أخطائهم. ذكر القسّ العديد من المواقف المؤثرة في حياة الصبية المفقودين أيضا، والتي توضح طبيعتهم الطيبة واستطاع أن يقنع الناس بأنهم كانوا نبلاء وذكَّرهم - بأسى - بأنهم في الوقت الذى بدوا فيه فاسدين كانوا يستحقون الرثاء والشفقة. تأثر الجميع وبكى بعضهم والقس ماضٍ في حديثه إلى أن انفجر الكل في البكاء بما في ذلك القس الذى أخذ في البكاء وهو على المنبر.

(٣)

كان هناك صوت حفيف ثياب عند الردهة لم يلحظه أحد وبعد لحظة سمع صوت باب الكنيسة وهو يفتح، رفع القس عينيه الغارقتين بالدموع ونظر إلى الباب فأصابه الذهول وكاد يسقط مغشيا عليه، نظرت عيون الجميع إلى حيث ينظر القس الذى وقـف يحملق فى الصبيـة الثلاثة وهم يدخلون إلى الكنيسة. كان توم في المقدمة يتبعه جو ثم هك وجلسوا في المؤخرة. كانوا قد ظلوا مختفين في الردهة الخالية يستمعون إلى موعظة جنازتهم.

القت الخالة بولي ومـاري وعـائلة هاربر بأنفسـهم على الولدين العائدين، يغمرونهم بالقبلات ويطلقون آيات الشكر لله بينما وقف هك المسكين خجلان وغير مستريح، حيث لم يعرف ماذا يفعل أمام العديد من الأعين غير المرحِّبة التى تنظر إليه بجفاء. حاول الخروج ولكن توم أمسك به قائلا:

– "خالتي بولي، ليس هذا عدلا. يجب أن يشعر شخص ما بالسعادة من أجل هك!

قالت خالته:

– أنا سعيدة لرؤيته، هذا اليتيم المسكين.

وجعله الاهتمام الذى أولته الخالة بولى لشخصه أكثر اضطرابا من ذى قبل.

وفجأة صاح القس بأعلى صوته: "اشكروا الرب الذى يتدفق من عنده الخير كله، غنّوا من قلوبكم".

وغنَّى الجميع وارتجت أرجاء الكنيسة بأصوات الفرحة. نظر توم حوله إلى الوجوه الحاسدة، واعترف فى قلبه بأن هذه هى أكثر لحظات حياته فخراً.

عندما خرج الجمع قالوا إنهم على استعداد لأن يكونوا ضحية الخداع مرة أخرى ليظفروا بمثل هذا الغناء القوى.

حصل توم على الكثير من الأحضان والقبلات فى ذلك اليوم أكثر مما حصل عليه فى عام كامل، ولم يكن يعرف أيها كانت تعبر عن الامتنان لله وأيها تعبر عن مشاعر ما تجاهه.

الفصل الثامن عشر

توم يفصح عن سِرِّه

(١)

كان سر توم هو مخطط العودة للبلدة مع رفاقه القراصنة لحضور جنازتهم. قاموا بالتجديف إلى شاطئ ميسورى فوق لوح خشبى فى يوم السبت ونزلوا قبل البلدة بحوالى خمسة أميال وناموا فى الأحراش المطلة على البلدة حتى صباح الأحد، ثم زحفوا عبر الطرقات الخلفية وأكملوا نومهم فى الردهة الخلفية للكنيسة بين المقاعد.

فى صبيحة الاثنين، كانت الخالة بولى ومارى عطوفتين على توم بشكل خاص وملبيتين لرغباته. كان الحديث فياضاً خلال الأفكار وقالت الخالة بولى:

- أعترف بأنها كانت خدعة ظريفة يا توم أن تجعل الجميع يعانون لأسبوع كامل، وأنت والأولاد تستمتعون بوقت طيب، ولكن من المؤسف أنك كنت قاسى القلب بتركى أعانى لهذه الدرجة، وكان بإمكانك أن تخبرنى بطريقة ما أنك لم تمت ولكنك لم تفعل.

– نعم، كان بإمكانك فعل ذلك يا توم. قالت مارى معقبة. "وأعتقد أنك كنت ستفعل لو فكرت فى ذلك".

سألت الخالة بولى ووجهها يشرق بالفرحة:

– أكنت ستفعل ذلك يا توم؟ قل لى الآن، أكنت ستفعل لو فكرت فى الأمر؟

رد توم:

– لا أعرف، فقد كان ذلك سيفسد الأمر كله

قالت الخالة بولى بنبرة حزينة:

– كنت أمل أن تكون تحبنى إلى ذلك الحد يا توم، كان الأمر سيختلف لو أنك اهتممت وفكرت فى ذلك حتى لو لم تفعله.

صاحت مارى قائلة:

– لم يحدث أى ضرر يا خالتى، فتوم مجرد ولد أرعن، وهو دائمًا مندفع ولا يفكر فى أى شىء.

ردت الخالة قائلة:

– وهذا يزيد أسفى، فقد كان سيدنى سيفكر فى ذلك ويأتى ليخبرنى لو كان مكانه. أما أنت يا توم، فستفكر يوما ما فيما فعلت، وستتمنى لو أنك اهتممت ولو قليلا بحالى وأن ذلك لم يكن سيكلفك الكثير.

ردّ توم:

- أنت تعرفين يا خالتي أنني مهتم بك.

- كنت سأدرك ذلك لو أنك حاولت.

قال توم:

- كم أتمنى لو أنني فكرت في الأمر، ولكني حلمت بك، وهذا يعد طيبا، أليس كذلك؟

- ليس كثيرا، القط يفعل ذلك ولكنه أفضل من لا شيء. قل لي إذن بماذا حلمت؟

- حلمت ليلة الأربعاء بأنك جالسة هناك بجوار الفراش وسيدني بجوار النافذة وماري بجانبه.

- هذا ما فعلناه وهذا ما نفعله دائما. أنا سعيدة لأن أحلامك تهتم بنا.

- وحلمت أن والدة جو هاربر كانت هنا أيضا.

- نعم، لقد كانت هنا. هل حلمت بشيء آخر؟

- نعم، حلمت بالكثير، ولكن من الصعب تذكره كله الآن.

- حاولت أن تتذكر.

- أتذكر أن الريح أطفأت ..

- حاول يا توم، فالريح أطفأت شيئا بالفعل.

ضغط توم بأصابعه على جبهته للحظة ثم قال:

- أطفأت الشمعة.

صاحت الخالة بفرحة:

- فلترحمنا السماء، استمر يا توم.

- ويبدو لي أنك قلت "أعتقد أن الباب..

صاحت لتشجعه:

- استمر يا توم.

- دعيني أتأمل لدقيقة فقط، نعم.. لقد قلت إنك تعتقدين أن الباب مفتوح.

- لقد قلت ذلك بالفعل، أليس كذلك يا ماري.

- عندئذ.. عندئذ.. لست متأكدا، ولكن يبدو أنك قلت لسيدني أن يذهب .. و..

- ماذا قلت لسيدني يا توم؟ ماذا جعلته يفعل..؟

- لقد جعلتيه يغلق الباب.

صاحت بدهشة:

- يا للسماء! أنا لم أسمع مثل ذلك طوال حياتي! لا تقل لي إن الأحلام لا تعني شيئا. سوف أخبر سيرين هاربر بذلك في التو. كم أودّ أن أرى كيف ستفسر ذلك، بالرغم من عدم اعتقادها في الروحانيات. استمر يا توم:

- الأمور تتضح أمامي كما لو أنها في وضح النهار، لقد قلتِ بعدها إنني لست سيئا ولكني مجرد شقي ومتهور ولا أتحمل المسئولية أكثر من الجحش أو شيء كهذا.

- هذا ما حدث. يا إله السماء. استمر يا توم..

- ثم بدأتِ في البكاء.

- لقد فعلت ذلك. فعلته بالفعل. ثم ماذا؟

- ثم بدأت السيدة هاربر في البكاء قائلة إن جو هو الآخر مثلي تماما، وتمنَّت لو أنها لم تضربه لأخذه القشدة التي كانت ستلقي بها في القمامة.

- توم، لقد كانت الأرواح تتقمصك، لقد كنت تتنبأ، وهذا ما كنت تفعل.. استمر..

- ثم قال سيدني.. قال..

- لا أعتقد أنني قلت أي شيء. ردَّ سيدني.

- نعم، لقد قلت شيئا. أجابت ماري.

- اسكتا ولندع توم يكمل. ماذا قال سيدني يا توم؟

- أعتقد أنه قال إنه يأمل أن أكون في وضع أفضل حيث ذهبت، وأنني أفضل مما أنا عليه أحيانا..

- لقد كانت هذه كلماته بالحرف الواحد!

- وقد أمرتيه عندئذ بالتوقف عن الكلام.

- فعلا فعلت ذلك. لا بد أن ملاكا كان هنا. إن ملاكا كان هنا في مكان ما.

- وقالت لك السيدة هاربر إن جو أفزعها بصاروخ من الألعاب النارية وتحدثت عن القط بيتر ومسكن الألم.

صاحت الخالة بدهشة شديدة:

- هذا حقيقي..

- ثم كان هناك الكثير من الحديث عن البحث في النهر عنا وعن الجنازة يوم الأحد ثم احتضنت السيدة هاربر وبكيت، ثم ذهبت السيدة هاربر.

- لقد حدث هذا تماما. لم يكن بمقدورك أن تكون أكثر وضوحا لو أنك رأيت ما حدث بالفعل. ثم ماذا حدث، استمر يا توم.

- ثم قمت بالصلاة من أجلي، وكنت أستطيع رؤيتك وسماع كل كلمة قلتيها. ثم ذهبت للفراش وكنت أشعر بالأسف لدرجة أنني كتبت على فرع شجرة .. "نحن لم نمت، لقد ذهبنا لنصبح قراصنة" ووضعت الفرع على المائدة بجوار الشمعة وكنت نائمة فذهبت إليك وقبلتك.

- هل فعلت ذلك يا توم؟ إنني لذلك أسامحك على كل شيء.

(٢)

أمسكت بالصبى تحتضنه بقوة مما جعله يشعر بأنه أشد الأنذال ذنبا. قال سيدنى بصوت هامس:

- كان ذلك عطفا عظيما، رغم كونه مجرد حلم.

ردَّت الخالة عليه فى التوّ قائلة:

- فلتصمت يا سيدنى. المرء يفعل في الحلم ما كان سيفعله في الواقع. خذ يا توم هذه التفاحة التي كنت أحتفظ بها لك إذا ما تم العثور عليك، والآن عليك الذهاب للمدرسة. إنني شاكرة للرب من أجلنا جميعا لأنك عدت إلينا، لقد كان الرب رحيما بمن يؤمنون به وبكلماته.. رغم أن الرب يعلم بأنني غير جديرة بتلك الرحمة، ولكن لو أن الجديرين بها - فقط - هم الذين تصيبهم رحمته ومساعدته عند الشدائد، فإن القليلين - فقط - هم الذين سيفرحون هنا أو سيدخلون جنته عندما يأتي يومهم. اذهبوا جميعا، سيدنى ومارى وتوم، فقد عطلتمونى بما فيه الكفاية.

اتجه الأطفال للمدرسة وذهبت الخالة لزيارة السيدة هاربر لتخبرها بالحلم العجيب الذى حلمه توم. لم يذكر سيدنى ما دار فى عقله عن الموضوع بكامله عندما غادر البيت. كان ما دار فى عقله هو: إن هذا غير معقول بالنسبة لحلم ليست فيه أى أخطاء.

أى بطل أصبح توم الآن! لم يعد يقفز ويجرى، بل أصبح يتحرك بخطى هادئة تليق بقرصان يدرك أن عيون العامة تتابعه، حاول أن

يتجاهل النظرات والتعليقات وهو يمر بهم، ولكن ذلك كان مصدر شغف له كالطعام والشراب.

سار خلفه بعض الصبية الأصغر منه سناً وهم فخورون لكونهم معه وسار هو فى المقدمة كقارع الطبول فى استعراض الفيلة وهو يقودها إلى المدينة. الصبية الذين هم فى مثل حجمه تصنعوا عدم معرفة أنه كان غائبا رغم أن الحسد كان ينهشهم. كانوا على استعداد لعمل أى شيء فى سبيل الحصول على لون جلده الذى لوحته الشمس وعلى شهرته اللامعة.

(٣)

غمرهم الأطفال فى المدرسة هو وجو بالإعجاب وبدأ الاثنان فى الحديث عن مغامراتهم، ولكن ذلك كان مجرد بداية، ومن غير المرجح أن تكون لها نهاية، فقد كان خيالهم يمكنهم من سرد الأحداث المثيرة باستمرار. وأخيراً، عندما أخرجا الغلايين وأخذا يدخِّنان، كانت الإثارة قد بلغت ذروتها.

كان توم يظن أن بإمكانه الاستقلال عن بيكى ثاتشر الآن. فيكفيه ما هو فيه من مجد، فهو يستطيع أن يعيش عليه، والآن وقد أصبح بطلاً، فلربما رغبت فى العودة إليه.

وقال فى نفسه:

- فلتحاول، ولسوف ترى أننى أصبحت لست مبالياً بالمرة.

بعـد قليل وصلت بيكي وتصنع توم بأنه لم يرها. ابتـعـد ليلحق بمجموعة من الصبية والفتيات وبدأ في الحديث معهم. لاحظ أنها تتجول بمرح هنا وهناك وبأعين قلقة وتتصنع الانشغال بمطاردة رفيقاتها، وتضحك عاليا حينما تمسك بواحدة منهن، ولكنه لاحظ أنها دائما ما تمسك برفيقاتها اللاتي بجواره وتلقي بنظراتها إليه، أرضى ذلك كبرياءه وزاد عناده، وجعله مُصِرًا أكثر على تجاهلها. بعد قليل تخلت عن الجري حوله ومشت وهي تنظر إليه.

لاحظت أن توم يتحدث بصورة خاصة مع أمي لورنس فأحست باضطراب وحاولت الابتعاد عنهما، ولكنها وجدت أن قدميها تقودانها إلى حيث تقف الفتيات، صاحت لفتاة تقف قريبا من توم:

– ماري أوستن، أيتها المجنونة، لماذا لم تأتِ إلى مدرسة الأحد؟

– لقد جئت، ألم تريني؟

– لا، أين كنت تجلسين؟

– كنت في فصل بيتي، أنا دائما ما أحضر .. ولقد رأيتك.

– من الغريب أنني لم أرك. لقد أردت أن أقول لك شيئا عن النزهة الخلوية!

– هذا رائع، ومن الذي سينظمها؟

– والدتي ستسمح لي بذلك.

– حسن، آمل أن تسمح لي بالذهاب معكم.

- بالتأكيد ستفعل فالنزهة من أجلي. ستدع كل من أريده أنا يذهب معنا، وأنا أريدك معنا.

- هذا لطيف، ومتى ستكون؟

- ربما خلال العطلة الدراسية.

- سيكون ذلك بديعا. هل ستدعين كل الأولاد والبنات؟

- نعم، كل أصدقائي ومن يرغب في صداقتي.

قالت ذلك وهي تنظر إلى توم الذي استمر في الحديث مع آني لورنس عن العاصفة الشديدة التي حدثت في الجزيرة، وكيف مزق البرق شجرة البلوط إلى شظايا وهو على مقربة منها.

- هل أستطيع القدوم؟ سألتها جراسي ميللر.

- نعم.

- وأنا أيضا؟.. سألتها سالي روجرز.

- نعم.

- وأنا أيضا؟.. صاحت سوزي هاربر.

- نعم.

(٤)

سألها الجميع أن تدعوهم للذهاب إلا توم وآني، التفت توم ببرود بعيدا وهو لا يزال يتحدث وأخذ آني معه وانصرف.

اهتزت شفتا بيكي وطفرت الدموع من عينيها، ولكنها أخفت ذلك وتصنعت المرح واستمرت في الحديث ولكن عن النزهة الخلوية حتى انتهى الموضوع ولم تجد أحدا آخر يسألها، فأخذت بيكي تبتعد عن الجميع ووقفت وحدها وبكت بكاءً شديداً. جلست بعدها حزينة بكبرياء جريح إلى أن دق الناقوس. قامت بنظرة كسيرة في عينيها وهي تواسي نفسها: "الآن أعرف ماذا يجب أن أفعل".

حين جاء وقت الفسحة، استمر توم في تودده لآني بغبطة واضحة وهو يتعمد إغاظة بيكي. أخيرا نظر إليها، ولكن انتصاره ما لبث أن انهار، فقد رآها تجلس بارتياح على مقعد في الخلف وتقلب في صفحات كتاب به صور مع ألفريد تمبل، ورأساهما متلامسان لدرجة أنهما لم ينتبها لأي شيء آخر. سرت الغيرة كالنار في عروق توم وبدأ يشعر بالندم لإضاعته الفرصة التي قدمتها بيكي للتصالح. ووصف نفسه بالمغفل وبكل الأوصاف القاسية التي يعرفها، وكان على وشك البكاء. استمرت آني في الثرثرة بسعادة مع توم وهما يتمشيان معا فهي كانت سعيدة، وكان توم صامتا تماما عن الكلام ولم يسمع ما كانت آني تقوله، ظل ينظر خلفه مرة ومرات ويتأمل المنظر الذي أغاظه. كان ما أغاظه أكثر هو أنه رأى بيكي ثاتشر تتصرف وكأنه غير موجود بالمرة، ولكنها كانت تدرك وجوده وتدرك أيضا أنها تكسب المعركة وكانت سعيدة لرؤيته وهو يعاني كما كانت تعاني.

أصبح حديث آني غير محتمل، فاعتذر توم لها بأن عليه القيام ببعض الأمور التي يجب عليه إنجازها والوقت يمر بسرعة. لكن بلا جدوى

فقد ظلت الفتاة تثرثر وتثرثر بلا توقف. سئم منها توم وقال فى نفسه "فلتذهب للجحيم، ألن أستطيع التخلص منها؟"، وأخيرا قال لها إنه ذاهب للقيام بتلك الأمور، وقالت آنى إنها ستكون فى انتظاره عند نهاية اليوم الدراسى فأسرع مبتعدا وهو يحمد الله لأنه أخيرا تخلص منها.

(٥)

أسرع توم إلى المنزل حيث لم يعد باستطاعته تحمل سعادة آنى ولم تعد غيرته تتحمل أى أسى جديد. عادت بيكى إلى النظر إلى الصور مع ألفريد، ولكن الدقائق كانت تمر وتوم غير موجود لكى يعانى. بدأ انتصارها يتراجع وفقدت الاهتمام بالأمر، وتبع ذلك أن أحست بالأسى والاضطراب. توقعت لمرتين أو ثلاث أن تسمع وقع أقدام توم وهو قادم، لكنها كانت آمال زائفة، فتوم لم يأتِ. أصبح مزاجها سيئا وأحست بالتعاسة، ودت لو لم تكن قد انساقت وراء رغبتها فى إغاظته إلى هذا الحد. عندما أحس ألفريد بأنه يفقد اهتمامها قال ليجذبها إليه. انظرى إلى هذه الصورة الجميلة، ولكنها فقدت صبرها وصاحت: "لا تضايقنى فلم أعد مهتمة بذلك"، وانفجرت فى البكاء وقامت وتركت المكان.

حاول ألفريد تهدئتها وسار بجانبها ولكنها قالت:

- اذهب بعيدا واتركنى وحدى، ألا تستطيع ذلك؟ أنا أكرهك.

- توقف الصبى وتركها وحدها وهو يفكر فيما فعله حتى تتركه هكذا وتمشى باكية. دخل بعدها إلى المدرسة الخاوية، كان يشعر

بالإهانة والغضب ولكنه أدرك بسهولة حقيقة المسألة، لقد استغلته بيكى فى إغاظة توم سوير، فزادت كراهيته لتوم. راح يفكر فى طريقة لتوريط توم فى المشاكل بدون أن يغامر هو بذلك..وقع كتاب توم الخاص بالهجاء تحت عينيه وكانت تلك فرصته، فتح الكتاب على الدرس الخاص بالحصة التالية وسكب الحبر على الصفحة بكاملها.

كانت بيكى تنظر من النافذة الواقعة خلفه عند تلك اللحظة ورأت ما فعل، وانصرفت دون أن يراها ألفريد. اتجهت إلى البيت وهى عازمة على البحث عن توم لتخبره بما حدث وتظن أن توم سوف يكون شاكرا لها وبذلك تنتهى المشاكل بينهما. لكن فى منتصف المسافة إلى بيتها غيرت رأيها، فالطريقة التى عاملها بها توم أثناء حديثها عن النزهة الخلوية كانت مهينة. قررت أن تتركه لينال عقابه على إتلافه كتاب الهجاء.. وأن تكرهه للأبد.

الفصل التاسع عشر

قسوة أن تقول: "لم أفكِّر" !

(١)

وصل توم إلى البيت بمزاج سيئ، وكان أول ما قالته خالته له يظهر أنه أتى بأحزانه إلى مكان غير مناسب.. فحين دخل ورأته خالته صاحت بغضب:

– توم، عندى رغبة فى أن أسلخك حيا.

– ما الذى فعلته يا خالتى؟

– لقد فعلت ما يكفى، لقد ذهبت إلى سيرين هاربر كالعبيطة، وأنا أتوقع منها أن تصدق ذلك الهراء الذى قلته لى عن ذلك الحلم، فإذا بى أجدها قد عرفت من جو أنك جئت إلى هنا وسمعت الحديث الذى دار فى تلك الليلة. توم، أنا لا أعرف ما الذى سيصير إليه صبى يفعل مثل ذلك. إن ذلك يجعلنى أشعر بالأسى لأنك تركتنى أذهب إلى سيرين هاربر وأجعل من نفسى أضحوكة على هذا النحو.

كان هناك جانب جديد للموضوع، فقد كان ذكاؤه فى الصباح يبدو له عبقريا، والآن أصبح يبدو له سيئا. أطرق برأسه ولم يعد يستطيع التفكير ولا أن يقول شيئا، وأخيرا قال:

- كنت أود لو لم أفعل ذلك يا خالتي ولكني لم أفكر.

صاحت بحدة:

- لم تفكر، أنت لم تفكر أبدا فى أى شىء سوى فى أنانيتك، لقد جئت إلى هنا ليلا عبر كل هذا الطريق من جزيرة جاكسون لكى تسخر منا، واعتقدت أنك ستخدعنى بكذبة عن حلم ولكن لم تفكر أبدا فى الإشفاق علينا وإنقاذنا من الأسى.

- أعرف الآن أن ذلك كان أمرا خسيسا يا خالتى، ولكنى لم أتعمد أن أكون بهذه الخسة، بشرفى أنا لم أتِ إلى هنا لكى أسخر منكم.

- ولماذا جئت إذن؟

- لكى أقول لك لا تنزعجى علينا وأننا ما زلنا أحياء ولم نغرق.

- توم، سأكون أكثر الناس سعادة فى العالم لو استطعت تصديق أنك كنت تفكر على هذا النحو. ولكنك تعلم إنك لم تكن تفعل. أنا أعرف يا توم.

- أؤكد لك أننى كنت أعنى ذلك يا خالتى، وليصعقنى الله لو كنت أكذب.

- لا تكذب يا توم. إن ذلك يجعل الأمور أسوأ بكثير.

– أنا لا أكذب يا خالتي، هذه هي الحقيقة. أردت – فقط – أن أنقذك من الأسى، وهذا فقط هو ما جعلني آتي إلى هنا.

– إني لأعطي كل ما أملك في الدنيا لأصدقك، فهذا كفيل بأن يمحو الكثير من الذنوب. حينئذ كنت سأصير أسعد حالا. ولكن هذا غير منطقي، فلماذا لم تخبرني؟

– عندما كنت تتحدثين عن الجنازة، طرأت لي فكرة المجيء والاختباء في الكنيسة ولم أجرؤ على إفساد الأمر، وبالتالي وضعت فرع الشجرة الذي كتبت عليه الرسالة في جيبي والتزمت الصمت.

– أي فرع شجرة؟

– الفرع الذي كتبت عليه رسالة لأخبرك أننا ذهبنا لنصبح قراصنة. كم كنت أتمنى أن تستيقظي حين قبلتك!

(٢)

استراح وجه السيدة العجوز وغمرتها رِقَّة طاغية بدت في عينيها، وقالت مستغربة:

– هل قبَّلتني يا توم؟

– نعم، لقد قبلتك.

– هل أنت متأكد من أنك فعلت ذلك؟

– نعم يا خالتي.

- ولماذا قبَّلتنى يا توم؟

- لأننى أحبك كثيرا، وكنت تتألمين وأنت نائمة، وأحسست بالحزن لذلك.

كان للكلمات وقع الصدق ولم تستطع السيدة العجوز إخفاء ارتعاشة صوتها عندما قالت:

- قبلنى ثانية يا توم، واذهب إلى المدرسة الآن ولا تضايقنى ثانية.

بعد خروجه، هرعت إلى الخزانة وأخرجت السترة التى ذهب توم للقرصنة وهو مرتديا لها، توقفت وهى تمسك بها فى يدها وقالت فى نفسها:

- لا، لا أجرؤ، يا للمسكين! أعتقد أنه كذب فيما يتعلق بذلك، ولكنها كذبة بيضاء. أعرف أن الرب سوف يسامحه لأنه طيب القلب، ولكننى لا أريد أن أعرف أن تلك كانت كذبة. لن أنظر إذن.

وضعت السترة بعيدا ووقفت لحظات وهى تفكر. مدت يدها لتأخذ السترة ثانية لكنها تراجعت وهى تقول: "هى كذبة بيضاء.. كذبة طيبة ولن تؤلمنى". أخيراً أخذتها وبحثت فى جيوبها، وبعد لحظات كانت تقرأ ما كتبه توم على فرع الشجرة، فقالت من خلال دموعها المنهمرة "إننى أسامح الصبى الآن حتى لو كان قد اقترف ألف ذنب".

الفصل العشرون

توم يستقبل عقاب بيكي

(١)

كان هناك شيء غريب في تصرف الخالة بولي عندما قبّلت توم، فقد ارتفعت معنوياته الهابطة وأصبح سعيداً مرة أخرى. أخذ طريقه إلى المدرسة وكان مفاجأة سارة له حيث قابل بيكي ثاتشر عند مفترق الطرق. وبدون تردد جرى إليها قائلا:

- كانت تصرفاتي سيئة اليوم يا بيكي وأنا أسف ولن أفعل ذلك مرة أخرى ما بقيت حيا، فلنتصالح أرجوك.

وقفت الفتاة تنظر إليه بغضب قائلة:

- سأكون شاكرة لو ذهبت لحالك يا سيد توم سوير، فلن أتكلم معك بعد الآن. ثم هزت رأسها واستأنفت سيرها.

كان توم مندهشاً لدرجة لم يستطع معها أن يقول شيئا، ولكنه كان في حالة غضب شديد. دخل إلى فناء المدرسة متمنيا لو أنها

كانت صبيا وكيف كان سيلقّنها درسا لو كانت كذلك. بعد قليل قابلها ثانية وألمح لها بملاحظة جارحة وهى تمر بجواره، وردت بالمثل وأصبح الغضب بينهما جامحا. بدا لبيكى أن صبرها قد نفد وهى فى انتظار اللحظة التى سيجلد فيها توم لإتلافه كتاب الهجاء، ولو أنها كانت لديها الرغبة فى الإيقاع بالفريد أيضا، لكن سلوك توم معها جعلها تهمل الأمر.

لم تدرك الفتاة المسكينة مدى السرعة التى كانت تقترب بها من المتاعب. فالسيد روبنز مدرس الهجاء كان فى منتصف العمر ولديه آمال لم تتحقق، فقد كان يتمنى أن يكون طبيبا ولم تتحقق آماله وأصبح مدرسًا فى قرية. كان يخرج كل يوم كتابًا من مكتبته ليقرأ فيه فى الأوقات التى لا يكون فيها مشغولا بالتدريس، وكان يحتفظ بهذا الكتاب فى درج مقفل. كان الكل يتمنى أن ينظر إلى ذلك الكتاب ولكن لم يتمكن أحد من ذلك. وحينما كانت بيكى تمر بجوار المكتب لاحظت أن الدرج مفتوح وكانت الفرصة ثمينة. نظرت حولها ووجدت أنها بمفردها وفى لحظة أخرجت الكتاب وأخذت تقلب فى صفحاته وتوقفت عند صفحة كان فيها نموذج لجسم الإنسان وهو عارٍ تماما. فى تلك اللحظة دخل توم من الباب ولمح الصورة، فأسرعت بيكى بإغلاق الكتاب ولكن قبل أن تغلقه مزقت الصفحة التى بها الصورة من منتصفها ثم وضعت الكتاب فى الدرج وأغلقته بالمفتاح وانفجرت فى البكاء خجلا وهى تقول لتوم بغضب:

- توم، أنت شخص فى منتهى السفالة، لأنك تتلصص بهذه الكيفية وتنظر إلى ما ينظر إليه غيرك.

- وكيف كان لى أن أعرف بأنك تنظرين إلى شىء ما؟

- يجب أن تخجل من نفسك يا توم، فأنت ستفضحنى. ما الذى أستطيع أن أفعله الآن؟، إننى سوف أعاقب، وأنا لم أعاقب من قبل فى المدرسة. ثم ضربت الأرض بقدمها فى غضب وهى تقول:

- فلتكن شديد السفالة إذا أردت، ولكنى أعرف أن شيئا سيحدث. انتظر وسترى أيها الكريه. ثم خرجت مسرعة من الغرفة منفجرة فى البكاء.

وقف توم مشدوها وقد أزعجه ما قالته، ثم قال فى نفسه:

- هذه الفتاة شديدة الغباء. تقول إنها لم تضرب أبدا فى المدرسة من قبل، ما قيمة ذلك؟ ولكن هذا هو حال الفتيات، فهن ضعيفات العقل وخفيفات القلب. بالطبع أنا لن أخبر السيد روبنز عن هذه الحمقاء لأن هناك طرقا أخرى لتسوية الحساب معها، ولكن ليس بهذه الخسة. وما الذى سيحدث؟ سوف يسأل السيد روبنز من الذى مزق الكتاب، ولن يجيب أحد. ثم سيفعل مثلما يفعل دائما .. يسأل واحدا فى البداية ثم الثانى إلى أن يأتى إلى الفتاة، وعندها سيعرف بدون أن يخبره أحد، فوجوه الفتيات دائما ما تفضحهن، فليس لديهن قدرة على إخفاء ما يفعلن، وحتما سوف تعاقب.

(٢)

لحق توم بالجمع الصاخب من التلاميذ خارج الفصل، وبعد دقائق قليلة دخل المدرس وانتظم التلاميذ. لم يهتم توم بما يقوله المدرس، بل كان مهتما بالنظر إلى الفتاة عبر الحجرة، كان كلما نظر إليها شعر بالاضطراب، وعلى الرغم من كل شيء، لم يرغب فى أن يشفق عليها، رغم أن ذلك هو كل ما يستطيعه لها. بعد قليل اكتشف المدرس ماحدث لكتاب الهجاء وامتلأ عقل توم تماما بمشكلته لفترة. تناست بيكى أزمتها واهتمت بما هو حادث أمامها. لم تكن تتوقع أن يخرج توم من المشكلة وكانت في ذلك على صواب، وكان من المفروض أن تكون سعيدة لذلك. وحاولت أن تظهر سعادتها ولكنها وجدت أنها غير متأكدة من شعورها. عندما وصلت الأمور إلى الأسوأ، كان لديها الدافع للوقوف والوشاية بالفريد تمبل، ولكنها لم تبذل أدنى جهد وأرغمت نفسها على السكوت، لأنه كما قالت في نفسها "سوف يشى بى لتمزيقى الصورة بالتأكيد، وبالتالى لن أقول كلمة ولو لإنقاذ حياته".

تقبل توم عقابه بشجاعة وعاد لمقعده دون أن يشعر بالانكسار لأنه ظن أنه ربما كان قلب الحبر وهو لا يدرى على الكتاب وهو فى غمرة اللعب. كان قد أنكر أنه فعل ذلك واستمر في الإنكار لكنه نال عقابه.

مرت ساعة وجلس المدرس على مقعده يغالب النعاس. كان الهواء ثقيلا بالحجرة وتدريجيا اعتدل السيد روبنز فى جلسته وتثاءب ثم فتح مكتبه ليخرج كتابه، ولكن يبدو أنه لم يقرر بعد ما إذا كان سيخرجه أم لا.

راقب التلاميذ الموقف، ولكن اثنين منهما كانا يراقبان حركاته بأعين متلهفة. تفحص السيد روبنز الكتاب بأصابعه لفترة ثم أخرجه واستراح في مقعده ليقرأ. نظر توم إلى بيكي فرآها كالأرنب المذعور، وكما لو أن مسدسا قد صوب إلى رأسها.

نسي في لحظة كل خلافاتهما معا، وبسرعة أدرك أنه يجب أن يفعل شيئا.. أي شيء، ولكن تفكيره لم يسعفه. طرأت له فكرة أن يخطف الكتاب من يد المدرس ويندفع عبر الباب ويطير به. لكنه تردد وضاعت الفرصة، فقد فتح المدرس الكتاب. قال توم في نفسه: "لا شيء يمكن أن يساعد بيكي الآن". في اللحظة التالية واجه المدرس تلاميذه بنظرات حادة. كانت نظراته تصيب حتى الأبرياء منهم بالخوف، وساد الصمت. كان المدرس يكظم غيظه ويسيطر على انفعاله.. تنهد وأخذ نفسا عميقا ثم قال في هدوء:

- من مزَّق هذا الكتاب؟

لم يكن هناك صوت وكان بإمكان المرء أن يسمع صوت السكون إذا كان للسكون صوت. استمر السكون سائدا وأخذ المدرس في تفحص وجوه التلاميذ.

- بنيامين روجرز، هل أنت من مزَّق الكتاب؟

أنكر بنيامين وعاد الصمت والسكون.

- جوزيف هاربر، أيكون أنت؟

أنكر هو الآخر، فزاد قلق توم أكثر وأكثر نتيجة هذه الإجراءات المؤلمة. تفحص المدرس الصبية وفكر قليلا ثم اتجه إلى الفتيات:

- آني لورنس..

هزت رأسها بالنفي..

- جراس ميللر..

نفت هي الأخرى..

- سوزان هاربر، هل فعلت ذلك؟

أجابت بالسلب، وكانت الفتاة التالية هي بيكي ثاتشر. كان توم يرتعد من الرأس للقدم من الإثارة والإحساس بالعجز في هذا الموقف.

- ربيكا ثاتشر..

نظر توم إلى وجهها الذي كان مبيضا من الخوف.

نظر في عينيها وصاح بقوة:

- هل مزقت الكتاب؟

ارتفعت يداها توسلا وبكت، سألها بقوة أكثر:

- هل مزقت الكتاب؟

ومضت في رأس توم فكرة سريعة، فوقف على قدميه صائحا:

- أنا الذي فعل ذلك يا مستر روبنز!

(٣)

نظر التلاميذ بارتباك إلى ما يحدث. وقف توم لحظات يستجمع شجاعته المنهارة، بعدها تقدم للأمام ليذهب إلى العقاب، كانت مشاعر الدهشة والعرفان بالجميل والحب تتدفق جميعا من عينى بيكى المسكينة وتساوى ثمنا كافيا لمائة جلدة، لكنه كان مسروراً بما فعل. تقبل الصبى أقسى عقاب قام به السيد روبنز فى حياته، وتقبل كذلك قسوة الحكم بأن يظل بالمدرسة لساعتين بعد الانصراف لأنه كان يعرف من سينتظره إلى أن يطلق سراحه، ولم يكن يعتبر أن ذلك الوقت سيضيع بلا ثمن.

ذهب توم إلى الفراش فى تلك الليلة وهو يخطط للثأر من ألفريد تمبل، فقد أخبرته بيكى بكل شىء، وذكرت له بخجل سبب خيانتها له، ولكن الرغبة فى الثأر خففت من حدتها متعة التفكير فى كلمات بيكى الأخيرة له:

– توم، كيف أمكنك أن تكون بهذا النبل؟!

فابتسم فى جزل وراح فى النوم.

الفصل الواحد والعشرون

البلاغة وقبَّة المدرِّس المذهَّبة

(١)

كانت الإجازة تقترب وأصبح المدرِّس أكثر صرامة وأكثر قسوة عن ذى قبل، لأنه يريد أن يظهر التلاميذ تفوقا فى يوم الامتحان. لم تقف عصاه عن العمل حتى بالنسبة لصغار التلاميذ وكذلك الفتيات وخاصة من هن فى الثامنة عشرة أو العشرين. كان السيد روبنز يضرب بقوة وبلا رحمة.

عندما حل اليوم الموعود، طفا الطغيان الذى يضمره فى نفسه إلى السطح، وكان من الواضح أنه يشعر بالسعادة عند إنزال العقاب بالتلاميذ لأى خطأ صغير. كان من نتيجة ذلك أن الصبية الصغار قضوا اليوم فى رعب ومعاناة وليلهم فى التخطيط للانتقام منه. لم يهملوا فرصة واحدة لإيذائه ولكنه ظل عنيفا طوال الوقت. كان العقاب الذى يلى نجاح محاولات الانتقام شاملا وعاما لدرجة جعلت الأولاد يتوقفون عن تلك المحاولات تماما. أخيرا تآمروا معا ووصلوا إلى خطة قد تقودهم إلى نجاح ساحق.

اتفقوا مع الصبى الذى يكتب اللافتات بالمدرسة على الخطة وسألوه المساعدة. كانت لديه أسبابه للموافقة لأن المدرس كان ينتمى لأسرة والده، وتسبب له فى مشاكل جعلته يكرهه. كانت زوجة المدرس ستذهب فى زيارة إلى الريف بعد أيام قليلة ولن يكون هناك ما يمنع من تنفيذ الخطة. فقد كان عادة ما يهيئ نفسه للمناسبات الكبيرة بأن يفرط فى الشراب، وكانت خطة الصبى هى أنه عندما يصل إلى الحالة المفرطة فى الشراب عشية ليلة الامتحان، سوف يتحيَّن الفرصة وهو نائم على كرسيه، فيوقظه ليسرع فى الذهاب للمدرسة.

(٤)

وسرعان ما جاءت الليلة المثيرة، وفى الثامنة مساءً كانت المدرسة مضاءة بكاملها ومزينة بالزهور. وكان المدرس روبنز يجلس على كرسيه الفخم فوق المنصة والسبورة وراءه. كان يبدو هادئًا وكانت ثلاثة صفوف من المقاعد على كل جانب وستة صفوف فى الوسط أمامه يحتلها وجهاء البلدة وأولياء أمور التلاميذ، وعلى يساره، خلف صفوف الوجهاء منصة مؤقتة جلس فيها التلاميذ الذين سيشاركون فى الاختبارات وقد اغتسلوا ولبسوا ما يناسب هذا الاجتماع الهام.

بدأت الاختبارات بصبى صغير وقف ليتلو بخجل:

- أنتم لم تتوقعوا أن يتكلم من هو فى مثل سِنِّى على الملأ من فوق المنصة.

انتهى من دوره بسلام وحظي بالتصفيق. ثم قامت فتاة صغيرة لتغنّي بوجه خجول "كان لماري حَمَل صغير" . وحظيت بالتصفيق وجلست سعيدة ومنتشية.

بعدها تقدم توم سوير بثقة زائدة وانطلق منشدا:

- أعطني الحرية أو أعطني الموت.

كان يتلو بحماس وتدفق هادر، ولكنه انهار في المنتصف، فقد سيطرت عليه فجأة مشاعر خوف لوقوفه أمام الناس على المنصة واهتزت ساقاه من تحته وتلعثم وكاد أن يسقط. كان يحظى بتعاطف من الجميع فحاول أن يكمل نشيده فلم يستطع. امتعض المدرس وزمَّ شفتيه مما أكمل فصول الكارثة، حاول توم ثانية، ولكنه فشل فانسحب بهزيمة كاملة. كانت هناك محاولة ضعيفة للتصفيق ولكنها كانت ضعيفة للغاية.

تلى ذلك اختبارات القراءة والهجاء وقامت مجموعة التلاميذ الذين يدرسون اللغة اللاتينية بالتلاوة ببراعة، بعدها كان "التعبير" بواسطة الفتيات وقامت كل فتاة بالدور إلى المنصة وفي يدها الأوراق المحتوية على مقطوعتها ملفوفة بشريط جميل، وبدأن القراءة باهتمام واضح وصوت معبر. كان النهج الذى انتهجنه هو نفسه الذى كان لأمهاتهن من قبل ولجداتهن ولأسلافهن من النساء، فكانت كل واحدة تقرأ مقطوعة من كتاب مختلف .. مثل: "ذكريات الأيام الخوالي"، "الدين فى التاريخ"، "أرض الأحلام" "مزايا الثقافة"، "صور الحكومات السياسية"، "الحب الأخوي" ، "أشواق القلب".. وغيرها.

كانت الكآبة تمثل الطابع المشترك لتلك المقطوعات، وكذلك كانت تتميز بلغتها الراقية والميل لاستخدام كلمات معينة ذات وقع مميز وجمل خاصة لا تخطئها الأذن. من الخصائص الأخرى لتلك المقطوعات الأسلوب الخطابى الذى كان واضحا فى نهايتها.

(٣)

وقفت بعدئذ فتاة نحيلة وقرأت قصيدة عنوانها:

"تحية وداع من ميسورى إلى ألاباما"

وداعا ألاباما، فأنا أحبك كثيرا..
ولكنى سأتركك الآن لبعض الوقت..
حزين، نعم، فالأفكار الحزينة عنك تسكن قلبى .
والذكريات الموجعة تصيبنى بالتعاسة..
فقد تجولت فى غاباتك المزهرة..
وقرأت بالقرب من نهرك..
وتوددت إلى أشعة شمسك..

كانت القصيدة جيدة رغم أن بعض مفرداتها كانت صعبة الفهم. ظهرت بعد ذلك فتاة سمراء سوداء العينين والشعر، وتوقفت للحظة فى تعبير تراجيدى وبدأت تقرأ بصوت صارم مقطوعة اسمها "رؤية":

– كانت الليلة مظلمة تغشاها العاصفة. لم تظهر نجمة فى السماء ولكن ظلت جلبة الرعد الصاخب تدق باستمرار فى الهواء، والبرق الخاطف يتبدّى عبر السحاب فى السماء، وكأنه يتحدى القوة التى تقاومه، كانت الريح العاتية تعصف بما يقع فى طريقها".

احتل هذا الكابوس حوالى عشر صفحات وانتهى بخطبة دمرت آمال الآخرين حيث إنها فازت بالجائزة الأولى. فقد اعتبرت القطعة أروع ما قيل فى الأمسية. قام العمدة عند تسليمه الجائزة بإلقاء كلمة قال فيها:

– إنها كانت الأكثر "بلاغة" من كل ما سمع، وأنه يفخر بها.

(٤)

حتى هذه اللحظة كان المدرس يبدو لطيفا إلى درجة كبيرة، أزاح كرسيه جانبا معطيا ظهره للحضور، وبدأ فى رسم خريطة لأمريكا على السبورة لاختبار الجغرافيا، ولكنه جعل الأمر محزنا حيث كانت يده تهتز مما جعل الهمس يزداد من الحضور. كان يعرف بالأمر وبدأ فى تصحيح ما رسمه، فمسح بعض الخطوط ورسم غيرها، ولكنه شوهها أكثر وأكثر. قام بتركيز كل اهتمامه بما يفعل كما لو كان قد صمم على ألا يلتفت لما يحدث. أحس بأن كل الأعين تنظر إليه واعتقد أنه ينجح فيما يقوم به، ورغم ذلك استمر الهمس. كانت تعلو رأسه حافة خشبية بها فجوة مستديرة،

خرجت من هذه الكوة قطة معلقة بخيط من وسطها وبينما هي تنزل من الفجوة قفزت بسرعة لأسفل وأصبحت على بعد ست بوصات من رأس المدرس الذى كان منهمكا فى الرسم، وأخذت تنزل لأسفل ثم أمسكت بباروكة روبنز، وجذبها الخيط المربوطة به لأعلى فى لحظة والباروكة فى يدها. ظهرت صلعة روبنز لامعة فى الضوء وضحك الحضور بقوة وانتهى ذلك الاجتماع وقد انتقم الصبية منه بجعله أضحوكة.



الفصل الثانى والعشرون

هك يقتبس من الكتاب المقدَّس

(١)

التحق توم بالجماعة الجديدة "طلائع العفاف" وقد جذبته امتيازاتها الظاهرة. تعهد بالامتناع عن التدخين ومضغ التبغ طالما ظل عضواً فى هذه الجماعة. لكنه اكتشف شيئا جديداً وهو أن الوعد بألاّ تفعل شيئا ما هو أفضل الطرق لجعلك تتوق لأن تفعل ذلك الشىء. وجد توم نفسه يتعذب بالرغبة فى التدخين والسباب وزادت الرغبة حدة، ولم يمنعه من الانسحاب من هذه الجماعة سوى أمله فى أن يظهر وهو يرتدى الوشاح الأحمر.

كان الرابع من يوليو على وشك أن يحل ولكنه تخلى عن القيود لمدة يومين ووضع أمله فى القاضى فرازر، الذى كان على فراش الموت وستقام له جنازة شعبية كبيرة. ولثلاثة أيام، كان توم مهتما جدا بحالة القاضى ويتلمّس عنه الأخبار. أحيانا كانت آماله تعلو وتعلو فكان يقوم

بإخراج الشعار الملكى ويقف مزهوا أمام المرآة وهو يلبسه. ولكن حالة القاضى كانت تتذبذب بشدة، وأخيرا تم الإعلان عن شفائه فاغتاظ توم وأحس بضياع الأمل فاستقال فورا، ولسوء حظه أصيب القاضى بنكسة صحية ومات فى الليلة نفسه على أثرها. قرر بعدها ألا يثق برجل مريض أبدا.

(٢)

كانت جنازة القاضى أنيقة، فقد سار أعضاء الجماعة أمامها فى استعراض جميل مما جعل توم يتمزق حسدا، ولكنه مع ذلك أصبح حرا مرة أخرى وهذا شىء له اعتبار. فقد أصبح بمقدوره أن يدخن ويمارس السباب وكل الأشياء السيئة التى اعتادها، ولكنه لم يجد في نفسه الرغبة لعمل شىء من ذلك، وأصبح بمقدوره إقصاء تلك الرغبات عن نفسه.

(٣)

تعجب توم من أن الإجازة بدأت تصبح ثقيلة على نفسه. حاول أن يكتب مذكراته اليومية ولكن شيئا لم يحدث خلال ثلاثة أيام فتخلى عن تلك الفكرة.

وصلت أول فرقة للعازفين السود إلى البلدة وأحدث ذلك حماسا كبيرا. انضم توم وجو هاربر لفرقة العازفين وكانا سعداء ليومين، ثم جاء

الرابع من يوليو (يوم الاستقلال) وكان مخيبا للآمال، فقد سقط المطر بغزارة، وبالتالى لم تكن هناك استعراضات.

جاء السيرك بعد ذلك للبلدة ونصب خيامه لثلاثة أيام، وكانت تذكرة الدخول بثلاثة سنتات للأولاد وسنتين للبنات، فكان الإقبال عليه قليلا، فرحل.

جاء بعد ذلك الساحر ومعه منوِّم مغناطيسى، لكنهما لم يمكثا كثيرا، وذهبا تاركين البلدة أكثر كآبة ووحشة من ذى قبل. كانت هناك بعض الحفلات المختلطة للأولاد والبنات ولكنها قليلة، وإن كانت ممتعة.

ذهبت بيكى ثاتشر إلى منزل والديها بكونستانبول للبقاء معهم خلال الإجازة، وبالتالى لم يكن لدى توم أى جانب مشرق للحياة فى أى اتجاه.

كان السر المخيف لحادث القتل يمثل تعاسة مزمنة له، ثم جاءت الحصبة فرقد توم فى البيت لأسبوعين سجينا ومعزولا عن العالم وما يحدث فيه.

(٤)

كان مريضًا جدا وغير مهتم بشىء، وعندما شفى قام وخرج وسار - بضعف - فى البلدة، كان الضجر والقتامة قد أصابا كل شىء وكل مخلوق، ووجد أن الكل قد اتجه إلى الدين، ليس البالغين فقط، ولكن أيضا الفتيان والفتيات.

تجول توم بأمل ضعيف يبحث عن مذنب واحد في البلدة كلها، ولكن خاب أمله. وجد جو هاربر يدرس في الإنجيل، فانصرف عنه حزينا، بحث عن بن روجرز فوجده يزور الفقراء ومعه سلة بها أناجيل. ذهب إلى جيم هوليز فوجده يلفت نظره إلى إصابته بالحصبة. كل من قابله من الصبية كان يضيف إلى كآبته كآبة جديدة، فانفطر قلبه وعاد إلى البيت وقد أدرك أنه وحده من بين سكان البلدة الذي يحس بالضياع للأبد.

هبت في تلك الليلة عاصفة هوجاء وسقطت الأمطار بشدة مصحوبة بصوت رعد مخيف. غطى رأسه بأغطية الفراش وانتظر نهايته في خوف. لم يكن عنده أدنى شك في أن هذه العاصفة الهوجاء تخصه وحده.

كان يعتقد أن ذنوبه قد تكاثرت إلى حد كبير، وأن وقت القصاص قد جاء، وأن العاصفة قد جاءت لتناله وتقبض روحه نتيجة أفعاله، فلم يكن هناك تفسير آخر لتلك العاصفة الرعدية الشديدة سوى أنها جاءت لتنسف حشرة مثله.

خفَّت حدة العاصفة تدريجيا وهدأت بدون أن تحقق هدفها. كان الهاجس الأول للصبي هو الامتنان ومحاولة إصلاح نفسه، والثاني هو الانتظار... فقد لا تكون هناك عواصف أخرى.

(٥)

عاد الأطباء فى اليوم التالى، فقد انتكس توم. بدت له الأسابيع الثلاثة التى قضاها على ظهره هذه المرة وكأنها عمر بكامله. حين تعافى أخيراً لم يكن بنفس الامتنان، متذكرا كيف كان وحيدا بلا رفاق طوال تلك الفترة.

تجول فى الشوارع بلا هدف، فوجد جيم هوليز يقوم بدور القاضى فى محكمة عقدها الصبية وتحاكم قطاً لارتكابه جريمة قتل طائر صغير. وجد جو هاربر وهك فى إحدى الحارات يأكلان بطيخة مسروقة، وكان الصبيان المسكينان يعانيان من انتكاسة الحصبة مثل توم.

الفصل الثالث والعشرون

خلاص بوتر المسكين

(١)

بدأت محاكمة بوتر على جريمة القتل، وأصبحت الشغل الشاغل للبلدة. لم يستطع توم الابتعاد عنها، فقد كانت كل إشارة إلى الجريمة تبعث القشعريرة فى بدنه. فضميره المعذَّب والخوف جعلاه يقتنع بأن تلك الإشارات ترسل إليه كجس نبض، لكنه لم يكن واثقا فى تلك الإشارات التى جعلته خائفا معظم الوقت. أخذ هك إلى مكان منعزل ليكلمه فلربما يؤدى ذلك إلى تهدئة هواجسه باقتسام الحمل الثقيل على قلبه معه، كذلك فقد كان يريد أن يتأكد أن هك لا يزال محافظا على كتمان السر، فبادره قائلا:

– هل قلت لأى شخص عن الأمر؟

– عن ماذا؟

– أنت تعرف عن ماذا.

- بالطبع لم أفعل.

- ولا كلمة؟

- ولا كلمة واحدة، لكن لماذا تسأل؟

- كنت خائفا.

- لماذا يا توم؟ إننا لم نكن لنعيش يومين إذا ما عرف الأمر. أنت تعلم ذلك.

أحس توم بالراحة. وبعدها قال له:

- هك، لا يستطيع أحد أن يرغمك على البوح، أليس كذلك؟

- لن يرغمني أحد على البوح بشيء.

- هذا طيب. أعتقد أننا آمنون ما دمنا قد التزمنا الصمت، ولكن فلنقسم مرة أخرى لكي يكون الأمر مؤكدا.

- وأنا أوافق.

قاما وأقسما مرة أخرى بجدية صارمة.

استراحا بعدها وقال توم:

- ما الذي يدور على الألسنة يا هك؟ لقد سمعت الكثير.

- حسن، إنها قصة بوتر طوال الوقت، وإن ذلك يصيبني بالرعب باستمرار ولدرجة أرغب معها في الاختفاء خارج البلدة.

- هذا ما يحدث لي أيضا يا توم. أعتقد بأنه سيعدم، أتحسّ بالرثاء لحاله؟

– نعم وباستمرار. هو غير مسئول ولم يؤذِ إنسانا من قبل، إنه مجرد صياد سمك ليحصل على مال يسكر به، ويمشي في البلدة كثيرا، ولكننا جميعا نفعل ذلك، القساوسة ومن على شاكلتهم يفعلون ذلك أيضا. ولكنه طيب فقد أعطاني مرة نصف ما اصطاده من سمك رغم أن ما اصطاده لم يكن يكفي لاثنين، وفي الكثير من الأحيان كان يقف بجانبي عندما أواجه موقفا صعبًا.

سكت لحظة.. ثم استطرد:

– لقد أصلح لي طياراتي الورقية يا هك ووضع السنانير في الخيط من أجلي. كم أود لو أمكننا تخليصه من هذا الوضع.

– لا نستطيع يا توم، إن ذلك لن ينفع لأنهم سيمسكون به مرة أخرى.

– نعم، سيفعلون ذلك. ولكني أكره أن أراهم يؤذونه بهذه الكيفية في حين أنه لم يفعلها.

– وأنا أيضا يا توم. لقد سمعتهم يقولون إنه أكثر الأنذال دموية في البلاد ويتعجبون لأنه لم يشنق من قبل.

– نعم إنهم يقولون ذلك معظم الوقت. لقد سمعتهم يقولون إنه إذا أطلق سراحه فإنهم سوف يشنقونه بأنفسهم.

– نعم، سيفعلون ذلك أيضا.

(٢)

كان الحديث بين الصبيين طويلا ولكنه جلب لهما راحة مؤقتة. عند الغروب وجدا نفسيهما بجوار السجن الصغير المنعزل ربما على أمل أن يحدث شيء يخفف من صعوبة وضعهم. ولكن لم يحدث شيء، فلا الملائكة معهم ولا الشياطين أظهروا اهتماما بهذا السجين سيئ الحظ.

فعل الصبيان ما اعتادا فعله من قبل. ذهبا إلى الزنزانة وأعطيا بوتر بعض التبغ والثقاب. كان بالطابق السفلي وبدون حراسة.

كان شعوره بالجميل تجاه عطاياهما يمس ضميرهما، والآن صار يمسهما بعمق أكبر. أحسا بالجبن والخيانة إلى الدرجة القصوى عندما قال بوتر:

- لقد كنتما خير عون لي، أكثر من أي إنسان آخر بالبلدة، ولن أنسى لكما ذلك. كثيرا ما أقول لنفسي: "لقد اعتدت أن أصلح طائرات الصبية الورقية وأريهم أماكن الصيد الوفير وأصادقهم باستمرار، ولكنهم نسوا بوتر عندما وقع في المشاكل. لكن توم لم ينسَ وكذلك هك. وأنا لم أنسهم أيضا، حسن يا أصدقائي، لقد فعلت شيئا خطيرا، فقد كنت سكران وفي غير وعيي آنذاك، وهذا هو الشيء الذي أعده مسئولا عن ذلك. ويجب الآن أن أشنق لذلك وهذا عدل. لن أتحدث في ذلك فلا أرغب في أن أجعلكما مبتئسين، فأنتما صديقاي، ولكن ما أود أن أقوله هو ألا تشربا الخمر أبدا حتى لا تصلا إلى هذا المكان.

من المريح أن أرى وجوها صديقة وأنا فى هذا الوضع، لم يأتِ إلى هنا سواكما أيها الصديقان الطيبان. قفا على ظهر بعضكما ودعانى ألمس وجهيكما.

(٣)

رجع توم إلى البيت وهو يشعر بالبؤس وكانت أحلامه تلك الليلة مليئة بالأهوال. فى اليوم التالى والذى بعده ظل يحوم حول قاعة المحكمة يشده دافع قوى لدخولها، ولكنه أجبر نفسه على البقاء خارجها. كان هك يعانى المعاناة نفسها. تجول كلاهما بعيدا من وقت لآخر ولكن كانت أقدامهما تدفعهما مرة أخرى إلى المكان نفسه. كانت أذنا توم مفتوحتين لكلام الناس عند خروجهم من قاعة المحكمة، ولكن الأنباء التى سمعها كانت كلها مقبضة وتشير إلى أن الحلقة تضيق حول رقبة بوتر المسكين. بعد انتهاء اليوم الثانى، كان حديث البلدة يدور حول دليل إنجن جو الذى كان قويا وغير مهتز، وأنه من العبث التساؤل عن قرار المحلفين الذى سيكون إدانة واضحة.

تأخر توم ليلا فى العودة إلى البيت وعندما دخل الفراش عبر النافذة كان فى حالة مزرية من التوتر. مرت ساعات قبل أن يخلد للنوم. فى الصباح ذهبت القرية بكاملها إلى مبنى المحكمة، لأن ذلك كان هو اليوم الموعود. كان كلا الجنسين ممثلا بالتساوى بين الحاضرين، وبعد انتظار طويل، دخل المحلفون وجلسوا فى أماكنهم، وأدخل بوتر إلى

القاعة وقد بدت عليه دلائل الخوف والشحوب واليأس، كان يرسف فى الأغلال، وتم اقتياده إلى مكان يتيح لأعين الفضوليين أن تحملق إليه متى شاءت. كان إنجن جو ظاهراً أيضا للعيان. مرت لحظات قبل أن يصل القاضى، والمأمور الذى أعلن انعقاد المحكمة. سمعت الهمسات المعتادة بين المحامين الذين كانوا يجمعون أوراقهم معا بما أضفى جوا موحيا على الاستعدادات الجارية.

تم استدعاء شاهد شهد أنه وجد بوتر يغتسل فى الترعة في ساعة مبكرة من الصباح الذى اكتشفت فيه جريمة القتل، وبعدها هرب مسرعا. بعد عدة أسئلة قال ممثل الادعاء لمحامى بوتر:

– إليك بالشاهد.

رفع بوتر عينيه إلى الشاهد ثم أسقطها ثانية حين صاح محاميه:

– ليست لدى أسئلة له.

الشاهد التالى أثبت العثور على السكين بالقرب من الجثة.

قال ممثل الادعاء:

– إليك بالشاهد، ورد دفاع بوتر:

– ليست لدى أسئلة له.

شاهد ثالث أقسم أنه كثيرا ما رأى السكين في يد بوتر، وصاح الادعاء:

– إليك بالشاهد.

ولكن دفاع بوتر أبدى رغبته فى سؤاله. بدأت وجوه الحاضرين تتسم بالتوتر، وتساءلوا هل يريد المحامى أن يطيح بحياة موكله دون أن يبذل جهدا؟

(٤)

أظهر العديد من الشهود جوانب من سلوكيات بوتر السيئة عندما جىء به إلى مسرح الجريمة، وسمح لهم بالنزول من على المنصة بدون أن يتم استجوابهم من جانب الدفاع.

كانت كل تفاصيل الظروف التى حدثت فى المقابر فى ذلك الصباح، والتى هى معروفة جيدا للجميع، قد أفاد بها الشهود الموثوق بهم، ولكن لم يستجوب أى منهم بواسطة الدفاع. كان هناك ارتباك وعدم رضا بين الحاضرين تحول إلى همس مسموع واستدعى تدخل القاضى الذى أمر بالصمت. قال ممثل الادعاء عندئذ:

- بالقسم الذى أقسمه الشهود الذين تعد كلمتهم فوق الشبهات، تعززت أركان تلك الجريمة النكراء فوق مستوى الشكوك على السجين التعس، ونقضى بالقضية عند ذلك.

سمع بوتر المسكين وهو يتأوه ووضع وجهه بين يديه وقد أخذ جسده يترنح للأمام وللخلف فى حين ساد صمت مؤلم فى أرجاء القاعة. انفعل كثير من الرجال وأظهرت النساء تعاطفها بدموع غزيرة، ووقف ممثل الدفاع وقال للقاضى:

– يا صاحب الرفعة، فى ملاحظاتنا عند بدء هذه المحاكمة، كان هدفنا إثبات أن موكلنا فعل فعلته الشنعاء وهو غير مسئول تحت تأثير الخمر. ولقد تغير موقفنا. ولن نتقدم بهذا الالتماس.

ثم نظر إلى كاتب المحكمة وصاح:

– استدعِ توماس سوير.

علت الدهشة كل وجوه الحاضرين حتى وجه بوتر نفسه، تابعت الأنظار باهتمام توم وهو يقوم ويأخذ مكانه على المنصة. كان الصبى يبدو خائفا ولكنه أدى القسم.

صاح القاضى:

– توماس سوير، أين كنت يوم السابع عشر من يونية عند منتصف الليل؟

نظر توم إلى إنجن جو بوجهه الحديدى ولم يسعفه لسانه. أنصت الجميع بأنفاس متهدجة، ولكن الكلمات لم تخرج من فمه. بعد دقائق قليلة، استعاد الصبى بعض قوته ونجح فى أن ينطق وقال بصوت خفيض:

– عند المقابر.

صاح القاضى يسأله:

– ارفع صوتك قليلا من فضلك ولا تخف. كنت أين؟

– عند المقابر.

ارتسمت ابتسامة سخرية على وجه إنجن جو.

– هل كنت قريبا من قبر هورس ويليامز؟

– نعم يا سيدى.

– تكلم بصوت أعلى من ذلك. ما مدى قربك من القبر؟

– بنفس قربى منك الآن يا سيدى القاضى.

– كنت مختبئا أم لا؟

– نعم كنت مختبئا.

– أين؟

– وراء الشجرة التى تقف على حافة القبر.

أصدر إنجن جو صوتا لا يكاد يسمع.

– هل كان معك أحد؟

– نعم يا سيدى، ذهبت إلى هناك مع .. ! ثم سكت.

– انتظر، انتظر لحظة. لا داعي لذكر اسم رفيقك. سوف نقدمه للشهادة في الوقت المناسب. هل كنت تحمل شيئا معك؟

تردد توم وبدا مرتبكا، فقال له القاضى يشجعه:

– تكلم يا ولدى، ولا تخف. الحقيقة دائما ما تحترم. ماذا كنت تحمل معك؟

– قط ميت.

انفجر الحضور في الضحك وتدخل القاضي لإسكاتهم.

- سوف نظهر هيكل ذلك القط. الآن يا ولدى قُصَّ علينا كل ما حدث وبطريقتك الخاصة. لا تهمل أى شيء ولا تخشَ أى شيء.

بدا توم مترددا فى البداية، ولكن سرعان ما تدفقت كلماته بسهولة وفى لحظات ساد الصمت فيما عدا صوته هو، وقد تركزت الأعين عليه بأفواه فاغرة وأنفاس لاهثة ومتتبعين بشغف قصة ما حدث. وصل التوتر إلى قمته عندما قال الصبى:

- وحينما ضرب الطبيب باللوح وسقط بوتر على الأرض، قفز إنجن جو ممسكا بالسكين..!

فى لحظة وبسرعة البرق، اندفع إنجن جو فى اتجاه النافذة، مقتحما طريقه عبر الجمع، واختفى.



الفصل الرابع والعشرون

أيامٌ عظيمة وليالٍ مخيفة

(١)

أصبح توم بطلا لامعا مرة أخرى، مدللاً من الكبار ومحسوداً من الصغار. دخل اسمه إلى الخلود بظهوره فى جريدة البلدة التى أشادت به، واعتقد البعض أنه سيصبح رئيسا.

وكالعادة، أخذ الناس بوتر فى أحضانهم وعاملوه برقة وطيبة بعد أن برأته المحكمة، وكان هذا السلوك يعد طبيعيا من قبل الناس بعد أن قسوا عليه بعد اتهامه بالقتل.

كانت أيام توم كلها عظمة وغبطة، ولكن لياليه كانت مرعبة. فقد ملأ إنجن جو كل أحلامه وكثيرا ما كان الموت يظهر فى عينيه. لم يغريه شىء بالخروج ليلا، وكان هك المسكين فى الحالة نفسها من الانزعاج والخوف. سرد توم القصة بحذافيرها للمحامى فى الليلة السابقة للمحاكمة، وكان هك خائفا من أن يتسرب دوره إلى العلن، ولكن هروب

إنجن جو أراحه من معاناة الشهادة في المحكمة. كان قد حصل على وعد من المحامي بالحفاظ على سره ولكن ما الفائدة؟ إن ضمير توم المعذب ساقه إلى بيت المحامي ليلا، ودفع بالقصة المرعبة عبر شفاهه التي كانت شبه مغلقة بالقسم الرهيب. اهتزت ثقة هك في البشر بشدة.

كان امتنان بوتر لتوم مصدر سعادة له لأنه تكلم وأنقذه، ولكن الأمسيات المخيفة كانت تجعله يود لو أنه سكت.

كان توم يخشى ألا يتم القبض على إنجن جو وكان في نفس الوقت يخشى أن يتم القبض عليه. كان متأكدا بأنه لن يكون في مأمن ثانية حتى يموت ذلك الرجل ويرى جثته.

تم رصد جائزة مالية للقبض على إنجن جو، وقاموا بالبحث عنه بلا فائدة. ومن الأحداث المهمة أن مخبراً جاء من سانت لويس وتلمس الأخبار هنا وهناك ثم هز رأسه وبدا حكيما وصادف النجاح المذهل الذي دائما ما يصل إليه من هم في هذه المهنة وهو أنه "وجد خيطا"، ولكنك لا تستطيع شنق "خيطًا" لارتكابه القتل، وبالتالي فبعد رحيل المخبر من البلدة، أحس توم ثانية بعدم الأمان كما كان من قبل.

تداعت الأيام البطيئة وراء بعضها وكل يوم منها يترك وراءه ثقلا من الخوف، لكن أقل قليلا من سابقه.

الفصل الخامس والعشرون

البحث عن الكنز المدفون

(١)

يأتى وقت فى حياة كل صبى تربَّى تربية سليمة تنتابه فيه رغبة عارمة فى الذهاب إلى مكان ما والحفر بحثا عن كنز مدفون. تملَّكت هذه الرغبة توم فى أحد الأيام. بحث عن جو هاربر ولكنه لم ينجح فى العثور عليه، فاتجه إلى بن روجرز، فكان قد ذهب للصيد. بعد قليل قابل هك الرجل ذا "اليد الملوثة بالدماء" الذى استجاب للدعوة، أخذه توم إلى مكان خاص وأدلى بتفاصيل الموضوع إليه. كان هك راغباً فى المشاركة وهو دائما ما يشارك فى أية عملية توفر التسلية ولا تتطلب رأسمال. سأله هك:

– أين سنحفر؟

– فى أى مكان!

– هل الكنوز مدفونة فى المكان بكامله؟

– لا بالتـأكيـد، ولكن فى أمـاكن مـعـينة يا هك. أحـيـانا فـى جـزر وأحيـانا فـى صناديق تحت فروع أشـجـار قديمـة ميـتـة، ولكن فى الغالب تكون تحت الأرض فى بيت مسكون.

– ومن الذى يخفيها؟

– اللصوص طبعا، ألا تستطيع التخمين؟

– لا أعرف، فلو كانت ملكى لما خبأتها، ولكن كنت سـأنفقها وأستمتع بوقت بهيج.

– وأنا أيضـا كنت سـأفعل، ولكن اللصوص لا يفعلون ذلك. هـم دائمـا يخفونها ويتركونها فى مكانها.

– ألا يأتون للبحث عنها أبدا؟

– لا، هـم يعتـقدون أنهم سـيفـعلون، ولكنهم ينسـون العـلامـات التى ترشـدهـم إليـهـا أو يموتون. على كل حـال تظل فى مكانهـا لفـتـرة طويلة وتصدأ، ويجدها بالمصادفة شـخـص مـا فى حالة عثوره على ورقـة قـديمـة صـفـراء بهـا هذه العـلامـات، وهذه الورقـة يجب حل الرموز التى بها لأنها غالبا ما تكون رموزا معقدة.

– وما طبيعة هذه العلامات؟

– صـور وأشياء من هذا القبيل.

– ألديك مثل هذه الورقة يا توم؟

– لا.

- إذن كيف سنجد العلامات؟

- أنا لا أحتاج لأى علامات، فهم دائما ما يدفنونها تحت منزل مسكون بالأشباح أو فى جزيرة نائية أو تحت شجرة ميتة. لقد حاولنا فى جزيرة جاكسون قليلا ويمكننا أن نحاول مرة أخرى، فهناك المنزل القديم المسكون أعلى التل وهناك الكثير من الأشجار الميتة، المئات منها.

- هل توجد كنوز تحتها كلها؟

- كيف تقول ذلك، بالطبع لا.

- إذن كيف ستعرف أيا منها تحتها الكنز؟

- بالبحث تحتها كلها.

- إن ذلك قد يستغرق الصيف كله.

- وما العيب فى ذلك؟ افترض أنك وجدت إناءً نحاسيا أصابه الصدأ به مائة دولار، أو صندوقًا قديما مليئًا بالماس، كيف سيكون الحال؟

لمعت عينا هك وقال:

- هذا سيكون رائعا. بالنسبة لى، سآخذ المائة دولار ولا أريد أى ماس.

- ولكنى لن أتنازل عن الماس، فبعضه يصل ثمن القطعة منه إلى عشرين دولارا.

– هل الأمر كذلك؟

– اسأل أى شخص وسيخبرك، هل رأيت ماساً من قبل يا هك؟

– لا أظن.

– إن الملوك لديهم الكثير منه.

– أنا لا أعرف أى ملك يا توم.

– أعرف ذلك، ولكن إذا حدث وذهبت يوما إلى أوروبا سترى العديد منهم هناك يتقافزون.

– هل يقفزون؟

– لا، أيها الأبله.

– ولماذا تقول إنهم يفعلون ذلك؟

– كنت أعنى أنك ستراهم، ليس وهم يتقافزون بالطبع. ولكنى أعنى أنك ستراهم متناثرين هناك مثل الأحدب ريتشارد.

– ريتشارد! وما هى أسماؤه الأخرى؟

– لم يكن له أسماء أخرى. الملوك ليس لهم سوى اسم واحد.

– أنت متأكد؟

– نعم، ليس لهم أسماء أخرى.

– حسن. ولكنى لا أريد أن أكون ملكا ليس لى إلا اسم واحد مثل الزنوج. ولكن قل لى أين ستحفر أولا؟

- لا أعرف بالضبط، ماذا لو جربنا الفرع الميت للشجرة الواقعة فوق التل.

- أنا أوافق.

(٢)

أحضرا معولاً وجاروفًا وبدأ فى صعود التل حتى وصلا إلى المكان وقد أرهقهما الحر. ارتميا على الأرض فى ظل شجرة للراحة والتدخين.

قال توم:

- أنا أحب ذلك.

رد هك:

- وأنا أيضا.

داعبه توم قائلا:

- لو أننا وجدنا كنزا هنا يا هك، فما الذى سوف تفعله بنصيبك منه؟

- سوف آكل فطيرة وكوبًا من الآيس كريم كل يوم وسوف أذهب لكل سيرك يأتى إلى هنا. أعتقد أننى سوف أستمتع بوقت طيب.

- ألن تدّخر أى جزء منه؟

– لماذا أدخر، ولأى غرض؟

– لكي يكون لديك ما تعيش عليه.

– هذا لن يجدى فأبى سوف يأتى إلى هذه البلدة يوما ما ويضع يده عليه إذا لم أسرع بإنفاقه، وسوف ينفقه عن آخره بسرعة. ما الذى ستفعله بنصيبك يا توم؟

– سأشترى طبلة جديدة وسيفًا حقيقيا وربطة عنق حمراء، وكلبًا صغيراً وسأتزوج.

صاح هك بدهشة:

– تتزوج؟

– نعم.

– مؤكد أنك لست في كامل قواك العقلية.

– سوف ترى.

– هذا هو أغبى ما يمكنك عمله. انظر إلى أبى وأمى. إنهما فى شجار دائم طوال الوقت، أتذكر ذلك جيدا.

– هذا ليس أمرا مهماً، فالفتاة التى سأتزوجها لن تتشاجر معى.

– كلهن سواء يا توم. من الأفضل لك أن تفكر فى الأمر جيداً، ما هو اسم هذه الفتاة؟

– سأقول لك في وقت آخر، ليس الآن.

– افعل ما تريد يا توم، لكن لو تزوجت سأكون وحيدا أكثر من أى وقت مضى.

– لا، لن تكون وحيدا، سوف تأتى وتعيش معى. دعك من ذلك الآن ولنبدأ فى الحفر.

(٣)

أخذا فى العمل لمدة نصف ساعة لكن بلا نتيجة. عملا لنصف ساعة أخرى، وأيضا بلا نتيجة. قال هك:

– هل يدفنون الكنوز على عمق كبير؟

– أحيانا وليس دائما، أعتقد أننا لم نحفر فى المكان الصحيح.

بحثا عن مكان آخر وبدأ يحفران مرة أخرى، استمرا فى العمل قليلا ولكن دون جدوى. جلسا صامتين لبعض الوقت. أخيرا، استند هك على معوله ومسح العرق من على وجهه وقال:

– أين سنحفر فى المرة التالية بعد أن فرغنا من هنا؟

– أعتقد أننا يجب أن نحاول عند الشجرة القديمة على تل كاردف خلف بيت الأرملة.

– إن هذه بقعة جيدة، ولكن ألن تأخذه الأرملة منا؟ فهى أرضها.

– ولماذا تأخذه، من يجد أى من هذه الكنوز المخبوءة فهو صاحبها ولا دخل لصاحب الأرض به.

كان هذا التفسير مقنعا واستمرا فى العمل. وأخيرا قال هك:

- لابد أننا فى المكان الخطأ مرة أخرى. ماذا تظن؟

- هذا غامض جدا يا هك. أنا لا أفهم ذلك، أحيانا ما تتدخل الساحرات وربما كان هذا هو السبب.

- ولكن ليس للساحرات أى قوى بالنهار؟

- نعم، أعتقد أننى أعرف السبب الآن. كم نحن أغبياء، يجب أن نجد أين يسقط الظل عند منتصف الليل، وهناك يجب أن نحفر.

- معنى ذلك أننا قمنا بكل هذا العمل بلا جدوى. وعلينا إذن أن نأتى ليلا، إن الطريق طويل، هل ستستطيع القدوم؟

- نعم أستطيع. فعلينا أن نقوم بالعمل هذه الليلة، لأنه لو رأى أى شخص هذه الحفر، فسيعرف فى لحظة ما نبحث عنه هنا، وسيبحث عنه هو الآخر.

- سأمر عليك هذه الليلة.

- حسن، فلنخبئ الأدوات فى الأشجار.

عاد الصبيّان إلى المكان نفسه فى الليل عند الموعد المحدد. جلسا فى صمت ينتظران، كان المكان موحشا والأرواح تهمس عبر أوراق الأشجار والأشباح تحوم ونباح كلب يصل إليهما من بعيد وترد عليه أصوات البوم. ارتعد الصبيان من هذا الجو المرعب ولم يتكلما إلا قليلا. بعد قليل اعتقدا أن منتصف الليل قد حل، وحددا مكان سقوط الظل وبدأ الحفر. بدأت آمالهما فى الانتعاش وزاد اهتمامهما قوة مما زاد

من جهدهما. زاد عمق الحفرة أكثر وأكثر وقفزا فرحا عندما بدأ الفأس يصطدم بشيء صلب ولكنهما أصيبا بخيبة أمل، فقد كانت مجرد صخرة. أخيراً قال توم:

– لا فائدة يا هك، فنحن فى المكان الخطأ مرة أخرى.

– حسن، ولكن لا يمكن أن نكون على خطأ فقد حددنا مكان الظل بدقة.

– أعرف ذلك ولكن هناك شيء آخر.

– وما هو؟

– لم نحسب وقت منتصف الليل بدقة ومن المرجح أننا كنا متأخرين أو مبكرين فى ذلك.

ألقى هك بالفأس ساخطا:

– هذه هى المشكلة. لا بد أن نترك هذه الحفرة. فنحن لا نستطيع تحديد الوقت المضبوط، كما أن هذا الأمر مخيف جدا فى هذا الوقت من الليل، وفى وجود الساحرات والأشباح حولنا. إننى أشعر بأن هناك شيئًا خلفى طوال الوقت، وأخاف أن ألتفت، فلربما كان هناك آخرون ينتظرون الفرصة. كنت خائف طول الوقت منذ وصولنا إلى هنا.

– وأنا أيضا يا هك. إنهم عادة ما يضعون رجلا ميتا عند الشجرة التى يدفنون كنزا لكى يحرسه.

– يا إلهى!

– نعم، هم يفعلون ذلك. لقد سمعت دائما عن ذلك.

– توم، أنا لا أحب العبث في الأماكن التي يوجد بها أموات، فمن المؤكد أنه سوف تصيبنا اللعنات.

– أنا لا أحب أن أستثيرهم. افترض أن الشخص الميت المدفون هنا أخرج جمجمته وقال شيئا.

– لا تقل ذلك يا توم، إنه يسبِّب لى الرعب.

– نعم، إنه كذلك يا هك. أنا لا أشعر بالراحة قط.

– دعنا نخرج من هذا المكان ولنحاول فى مكان آخر.

– كما تريد. أعتقد أن ذلك أفضل.

– وأين سيكون ذلك.

فكر توم قليلا ثم قال:

– البيت المسكون. هذا هو المكان.

– أنا لا أحب البيوت المسكونة يا توم. إن مظهرها أسوأ من مظهر الأموات، فالأموات قد يتكلمون ولكنهم لا يأتون من حولك وأنت غير منتبه وينظرون من وراء كتفك فجأة مظهرين أسنانهم كما تفعل الأشباح. أنا لا أستطيع تحمل شيء كهذا يا توم، لا أحد يستطيع.

– نعم، ولكن يا هك الأشباح لا تخرج إلا فى الليل فقط، وهم لن يضايقوننا إذا حضرنا فى وضح النهار.

- فليكن الأمر كذلك، إن الناس لا يمرون بالبيت المسكون سواء بالليل أو بالنهار.

- هذا لأنهم لا يحبون الذهاب إلى مكان قُتل فيه إنسان، ولكن لم يلاحظ أي شيء حول هذا البيت إلا في الليل، مجرد بعض الضوء الأزرق يخرج من النوافذ وليس فيه أشباح.

- عندما ترى الضوء الأزرق يمكنك معرفة أن وارءه شبحا. هذا منطقي، لأنه لا أحد يستخدم الضوء الأزرق سوى الأشباح.

- نعم، ولكنهم لا يأتون في وضح النهار فلماذا نخاف إذن؟

- فليكن ذلك، سنحاول في البيت المسكون إذا رغبت.

نزلا إلى أسفل التل في منتصف الوادي الذي ينيره ضوء القمر من تحتهم وحيث يوجد البيت المسكون. كان معزولا تماما وانهارت أسواره منذ زمن بعيد، وعشب كثيف يغطي مدخله ومدخنته قد تحطمت إلى شظايا ونوافذه محطمة، وأجزاء كبيرة من السقف غير موجودة. وقف الصبيان لبرهة وهما ينظران إلى البيت بخوف خشية أن يريا ضوءاً أزرق يضيء من أحد النوافذ، ثم اتجها إلى أقصى اليمين وأخذا طريقهما عبر الغابة إلى المنزل.

الفصل السادس والعشرون

اللصوص الحقيقيون يستولون على صندوق الذهب

(١)

عند ظهر اليوم التالى وصل الصبيّان عند الشجرة الميتة، ليأخذا الأدوات التى أخفياها هناك. كان توم لا يطيق صبرا للذهاب إلى البيت المسكون، وكذلك كان هك الذى قال فجأة:

- أتعلم أى يوم هذا؟

عد توم أيام الأسبوع، وبسرعة رفع عينيه وقال بخوف:

- لم أفكر فى ذلك أبدا يا هك.

- لم أفعل أنا أيضا ولكن فجأة فكرت فى أنه ربما يكون يوم الجمعة.

- ربما وضعنا أنفسنا فى مأزق فظيع إذا حاولنا القيام بهذا العمل يوم جمعة.

- هو كذلك بالفعل يا توم، ربما يكون هناك أيام حظ، ولكن بالتأكيد يوم الجمعة ليس منها.

- أى أحمق يعرف ذلك ولا أعتقد أنك أول من يعرف ذلك يا هك.

- لم أقل أبدا إنني كذلك. والأمر ليس فقط أننا فى يوم الجمعة. لقد حلمت حلما سيئا فى الليلة الماضية، لقد حلمت بالفئران.

- هذه إشارة واضحة عن المشاكل. هل تشاجروا؟

- لا.

- إذن هذا فأل طيب. كونهم لم يتشاجروا يعد مجرد علامة على وجود مشاكل حولك كما تعرف. كل ما علينا عمله هو أن نكون فى كامل يقظتنا ونبتعد عن المشاكل. لن نقوم بالحفر اليوم وسنلعب. هل تعرف روبن هود يا هك؟

- لا، ومن يكون روبن هود هذا؟

- كان واحداً من أعظم الرجال فى إنجلترا، وكان لصاً أيضا.

- ومن كان يسرق؟

- الأغنياء والملوك فقط ومن على شاكلتهم. ولكنه لم يسرق الفقراء أبدا، فقد كان يحبهم وكان دائما ما يقتسم ما يسرقه معهم بالعدل.

- لابد أنه كان كريما.

- لقد كان كذلك يا هك. كان أكثر الرجال نبلا. لا يوجد الآن مثل هذا الرجل. كان بإمكانه سحق أى رجل فى إنجلترا بيد واحدة والأخرى مقيدة خلفه، وكان بإمكانه التصويب بالقوس والسهم على قطعة نقود معدنية على بعد ميل ونصف.

- وما هو القوس؟

- لا أعرف ولكنه نوع من السلاح بالطبع. وكان إذا أصاب قطعة النقود عند الحافة فقط ينهار ويبكى ويلعن. سنلعب لعبة روبن هود فهى شديدة التسلية وسوف أعلمها لك.

- وأنا أوافق.

(٢)

لعبا لعبة روبن هود طوال الظهيرة وألقيا نظرة على البيت المسكون وتبادلا الملاحظات عن احتمالات الغد.

عندما بدأت الشمس فى الغروب أخذا طريقهما إلى المنزل وهما يراقبان ظلال الأشجار، وسرعان ما ظهر أمامهما تل كاردف.

فى يوم السبت وبعد الظهر بقليل، ذهب الصبيًان إلى الشجرة الميتة مرة أخرى. قاما باستخراج أدواتهما وتبادلا الحديث لوهلة، ثم استأنفا الحفر فى آخر حفرة وبدون أمل كبير، لكن لمجرد أن توم قال إنه

لا توجد الكثير من الحالات التي يتخلى فيها الناس عن البحث عن كنز وهم على بعد ست بوصات منه، ليأتي شخص آخر ليستخرجه بعد ضربة فأس واحدة.

فشل الأمر ثانية فحمل الصبيان أدواتهما على كتفيهما ورحلا، وقد أحسا بأنهما أتمّا ما يجب عمله للبحث عن كنز. عندما وصلا إلى البيت المسكون أحسا بشيء من الرهبة، فالصمت المخيم حول البيت وخلوه من ساكنيه وعزلة المكان بعث فيهما الخوف من الدخول، تملكتهما الشجاعة بعد لحظات ودفع كل منهما الآخر ودخلا، نظرا نظرة مرتعشة فرأيا حجرة واسعة كالحة الجدران بها مدفأة قديمة ونوافذها غير موجودة والسلم منهار تماما، وتعشعش خيوط العنكبوت فيها. دخلا وهما يتهامسان وأذناهما تنصتان إلى أى صوت وكانا فى غاية التوتر ومستعدان لأى شيء.

بعد قليل اعتادا المكان وذهب خوفهما. فحصا البيت بدقة واهتمام وهما معجبان بشجاعتهما. بعد قليل قررا أن يصعدا للدور العلوى وكان هذا يعني أنه لا انسحاب بعد الآن. ألقيا بالأدوات جانبا في ركن وبدآ في الصعود لأعلى.

بالطابق الأعلى كانت توجد المناظر نفسها، وفي ركن من الأركان وجدا صندوقا فارغا. زادت شجاعتهما وكانا على وشك النزول وبدآ العمل، بعد لحظة قال توم:

– هش! همس هك بخوف.

– ما الأمر يا توم؟

– أتسمع ذلك؟

– نعم، فلنهرب.

– ابق ساكنا ولا تتكلم، إنهم يتقدمون إلى الباب. وانبطح الصبيان على الأرض وهما فى رعب شديد.

– إنهم قادمون، ها هم. لا تهمس بكلمة يا هك. يا إلهى كم أتمنى ألا أكون هنا.

(٣)

دخل البيت رجلان. كان أحدهما هو العجوز الإسبانى الأصم الذى زار البلدة مرة أو مرتين مؤخرا، أما الآخر فلم يكن معروفا لهما. كان يرتدى أسمالا ولا يوجد فى مظهره شىء مريح. كان الإسبانى يلف نفسه فى رداء طويل، وله سوالف بيضاء كثيفة وشعر أبيض طويل ينسدل على ظهره من تحت قبعته، ويضع عوينات خضراء. عندما دخلا، جلسا على الأرض فى مواجهة الباب وظهراهما إلى الحائط وراحا يتحدثان، بدأ الثانى فى إبداء الملاحظات وأصبحت سلوكياته أقل تحفظا وكلماته مميزة. وقال للإسبانى:

– لا، لقد فكرت مليا ولا أوافق على ذلك لأنه شديد الخطورة.

قال الأصم الإسباني:

- شديد الخطورة يا ميلسوب!

أصاب الصوت الصبيين بالرعب، فقد كان هو صوت إنجن جو. ساد الصمت لبرهة ثم قال جو:

- وما الذى يعد أخطر من المهمة التى نحن بصددها؟

قال الآخر محاورا:

- هذا أمر مختلف، فمكانى هناك عند النهر، ولكن ليس لى بيت آخر. لم يعرف أحد أننا حاولنا طالما أننا لم ننجح.

- وما الأكثر خطورة من المجىء إلى هنا فى وضح النهار، وأى أحد يرانا سيكون متشككا فينا.

- أعرف ذلك ولكن لم يكن هناك مكان متاح بعد تلك المهمة الغبية، لقد أردت أن أترك هذه المهمة، أردت ذلك بالأمس، ولكن ليس هناك فائدة من محاولة الخروج من هنا، وهؤلاء الصبية الملاعين يلعبون على مقربة منّا على التل وعلى مرمى البصر.

رنّت هذه الجملة فى آذانهما فأصابهما الهلع.. استطرد قائلا:

- كيف؟ إنهما كانا محظوظين عندما تذكرا أن اليوم كان يوم جمعة وقررا الانتظار ليوم آخر.

(٤)

أخـرج الرجـلان بعـض الطعـام وأكـلا. وبعـد طول صـمت قـال إنجن جو:

- اذهب إلى النهر حيث مكانك، وانتظر هناك إلى أن تسمع مني. سوف أجازف بالنزول إلى البلدة مرة أخرى لإلقاء نظرة. سوف نقوم بتلك المهمة الخطرة بعد أن أكون قد تجسست قليلا ووجدت أن الأمور مواتية، وسوف ننقله معا.

بعد ذلك أخذ إنجن جوفى التثاؤب وقال:

- أتوق للنوم، وهذا دورك للحراسة.

رقد على جنبه وفي لحظات كان يغط في النوم، وبعد قليل بدأ الرجل الآخر في التثاؤب أيضا وسقطت رأسه لأسفل وبدأ في الشخير.

أطلق الصبيان تنهيدة الراحة وهمس توم:

- هذه هي فرصتنا، تعال. قال هك:

- لا أستطيع، فسأموت إذا استيقظ أحدهما ورآنا.

استمر توم في الجدال واستمر هك في الرفض، وأخيرا قام توم بخفة ونعومة وسار وحده، ولكن مع أول خطوة يخطوها سمع وقعًا مزعجًا لأقدامه وهو يمشي فوق الأرضية الخشبية المتكسرة لدرجة أنه سقط على الأرض من الخوف، فلم يحاول مرة أخرى.

ظل الصبيان راقدين مكانهما لفترة طويلة كان فيها الوقت يمضى بطيئا حتى إنهما اعتقدا أنهما لن يستطيعا الخروج من المكان أبداً.

(٥)

توقف الشخير وصحا إنجن جو وتلفت حوله، ثم ابتسم لمنظر رفيقه الذى كانت رأسه قد تدلَّت على صدره وأيقظه بركلة من قدمه قائلا:

– أنت الحارس أليس كذلك؟ الأمور على ما يرام ولم يحدث شيء.

– هل كنت نائما؟

– نائم بعمق وحان الوقت لنتحرك. ما الذى سنفعله بالخبيئة التى لنا هنا؟

– لا أعرف، اتركها هنا كما كنا نفعل دائما. لا فائدة من إخراجها إلى أن نبدأ الرحلة للجنوب. ستمائة وخمسون قطعة فضية ثقيلة الحمل.

– حسن، ليس من الصعب أن نأتى إلى هنا مرة أخرى.

– لا، ولكن لنأتِ بالليل كما اعتدنا، فذلك أفضل.

– نعم، ولكن قد يمر وقت طويل قبل أن تتاح لى الفرصة المناسبة لهذه المهمة، وقد تحدث أمور. وهذا المكان ليس مناسبا أن ندفنه على عمق كبير.

- فكرة طيبة. رد الرفيق الذى قام وسار عبر الغرفة، ثم انحنى وأخرج قطعة من أحجار المدفأة وأخرج حقيبة وفتحها وأخرج منها عشرين دولارا لنفسه وعددا مساويا لجو، ثم أعطى الحقيبة لجو الذى كان جاثيا على ركبتيه فى الركن يحفر بالسكين.

(٦)

نسي الصبيان كل مخاوفهما فى لحظة، وأخذا يراقبان كل حركة بإمعان. كان حظّهما يفوق كل خيال. ستمائة دولار مبلغ يكفى لجعل نصف دستة من الصبية أغنياء. كان الصبيًان ينظران لبعضهما وكأنهما يقولان.. ألسنا سعداء لوجودنا هنا؟

انغرست سكِّين جو فى شيء فصاح قائلا :

- يا للحظ.

سأله رفيقه:

- ما الأمر؟

أجابه قائلا:

- يبدو أنه صندوق، ساعدنى لنرى لماذا يوجد هنا. لا عليك، لقد فتحت به فتحة، ثم وضع يده فى الفتحة وأخرجها ثانية وصاح بفرحة:

- يا للحظ، إنها نقود!

اخـتـبـر الرجـلان النقـود المعـدنيـة ووجـدا أنـهـا من الذهب. كـان الصبيان فى قمة الإثارة والفرحة. قال رفيق جو:

– أسْرِعْ ، فـأنت تعمل ببطء. يوجد فـأس بين الحشـائش بجـانب المدفأة، لقد رأيته منذ لحظة.

أسـرع وأحضـر الفـأس وأحضـر مـعـه الجـاروف، أخـذ إنجن جـو الفـأس ونظر إليه بإمعان وهز رأسـه مـسـتـغـربا، وضـرب به الصندوق وأخرجه في لحظات. لم يكن الصندوق كبيرا لكنه كان ملفوفا بأحزمة حديدية التي لم تكن قوية ففتحه بسهولة. نظر الرجلان إلى الكنز فى صمت، ثم قال إنجن جو:

– توجد آلاف الدولارات في هذا الصندوق.

– كثيرا ما سمعت أن عصـــابة موريل اعتادت أن تأتى إلى هنا في الصيف. قال الرجل الغريب.

– أعرف ذلك، والأمر يبدو على هذا النحو.

– الآن لست مضطرا للقيام بتلك المهمة.

قطب إنجن جو جبينه قائلا:

– أنت لا تعرفني، ولا تعرف شيئا عن الأمر. الأمر ليس مجرد سرقة، إنه انتقام، وبدت نظرة شريرة فى عينيه، ثم صاح، سوف أحتاج لمســاعـدتك في ذلك. وعنـــدمـا ننتـهـى نذهـــب إلى تكســاس. اذهب إلى بيتك وتأهب لتسمع منى.

- حسن، وما الذى سنفعله بهذا، أندفنه مرة أخرى؟

- نعم. "كان الصبيان فى فرحة عارمة". ثم صاح، لا، لا، "أصاب الصبيين حزن عميق". لقد كدت أنسى. لقد كان على ذلك الفأس بعض الطين الحديث. "الصبيان يكاد يقتلهما الرعب"، ما الذى أتى بالمعول والجاروف إلى هنا؟ وما سر الطين الحديث الذى يوجد عليهما؟ هل سمعت أى صوت؟ أو رأيت أى شخص؟ هل سندفنه مرة أخرى ليأتى البعض ويأخذه؟ سآخذ الكنز معى.

- بالطبع، كان يجب أن أفكر فى ذلك. أتعنى أنك ستأخذه إلى مكانك المعتاد؟

- لا، المقر الثانى رقم اثنين، تحت الصليب. المكان الأول سيئ ومكشوف.

- كما تحب، الوقت مناسب للبدء فى العمل.

وقف إنجن جو وذهب ينظر من نافذة لنافذة بحذر، وأخيرا قال:

- من الذى أتى بهذه الأدوات إلى هنا. أتعتقد أنهم قد يكونون بالطابق العلوى؟

لم يعد بمقدور الصبيين أن يتنفسا. وضع إنجن جو يده على مقبض السكين وتوقف للحظة مترددا ثم اتجه إلى السلم. فكر الصبيان فى الاختباء فى الخزانة ولكنهما كانا قد فقدا قواهما تماما. سمعا وقع أقدامه وهى تقترب وصوت حفيف حذائه على درجات السلم. كانت

معاناتهما فوق كل احتمال، وكانا على وشك القفز إلى الخزانة عندما حدث انهيار لخشب السلم وسقط إنجن جو على الأرض بين بقايا السلم المنهار. قام يسب ويسخط، فصاح رفيقه:

- ما فائدة كل ذلك؟ لو كان هنا أى شخص وصعد إلى أعلى فلن يستطيع النزول، إذا أراد أن يقفز الآن لأسفل ويواجه المشاكل، فأهلا به. سوف يعم الظلام بعد ربع ساعة، فدعهم يتبعوننا إذا أرادوا. فى رأيى أن من جاء بتلك الأدوات إلى هنا قد رآنا، وظن أننا أشباح أو شياطين. أراهن أنه أسرع بالهروب.

(٧)

فكر جو لبعض الوقت ثم وافق رفيقه على أن ما تبقى من ضوء النهار يكاد يكفى لترتيب الأمور والاستعداد للرحيل. بعد قليل، خرجا من البيت واتجها إلى النهر ومعهما صندوق الذهب.

قام توم وهك على قدميهما منهكين ونظرا خلف الرجلين وفكرا فى أن يتبعاهما، ثم عدلا عن الفكرة. وصلا إلى الأرض مرة أخرى دون أن يحدث لهما مكروه وأخذا طريقهما إلى التل، ولم يتكلما كثيرا، فقد كانا منشغلين بالتفكير فى الحظ السيئ الذى يلازمهما، والذى جعل الرجلين ينظران إلى الفأس والجاروف وهما بجوار المدفأة. فلولا ذلك لما شك إنجن جو فى الأمر، ولكان قد أخفى الفضة مع الذهب فى هذا المكان

إلى أن ينتهي من الثأر ويعود، وكان سيصاب بخيبة الأمل عندما لا يجد المال مرة أخرى. كان حظهما سيئا للغاية لأن الأدوات قد ضاعت.

قررا أن يراقبا إنجن جو عندما يجيء إلى المدينة للقيام بمهمته الثأرية، وأن يتّبعاه إلى المقر الثاني رقم اثنين أينما كان ذلك المكان. طرأت فكرة لتوم فصاح:

- انتقام؟ ماذا إذا كان يقصدنا يا هك؟

- لا تقل ذلك، قال هك وهو على وشك الإغماء.

تحدثا في الأمر، وعندما وصلا إلى البلدة اتفقا على أن ذلك يعني أناسا آخرين، وأنه على الأقل يعني توم، لأن توم فقط هو الذي شهد.

قرّر توم ألا يكون وحده في مواجهة الخطر، وأن الصحبة هي الحل.

الفصل السابع والعشرون

وراء الأثـــر

(١)

أطارت مغامرات النهار النوم من عينى توم فى الليل، فبعد أن وضع يده على الكنز لم يجد سوى الخواء بين أصابعه. لقد جَفَاه النوم وواجهته اليقظة بالحقيقة القاسية عن سوء حظه. وبينما هو راقد يستعيد أحداث مغامرته الجريئة، أحس أنها تبدو وكأنها بعيدة جدا، كما لو أنها حدثت فى عالم آخر أو فى زمن بعيد، ثم طرأ على فكره أن المغامرة فى ذاتها لابد أنها كانت حلما، وكاد يظن أنه كان يحلم بالفعل، لأن كمية العملات التى رآها كانت كبيرة عن أن تكون حقيقية، فهو لم يرَ أبدا ما يزيد عن خمسين دولاراً من قبل، وهو كغيره من الصبية الذين فى مثل سنه يتصور أن المئات أو الآلاف من الدولارات مجرد أمر خيالى لمجرد الحديث، ولا يوجد فى الحياة مثل هذه الكمية من النقود. لم يتصور أبداً أن مبلغًا كبيراً مثل مائة دولار يمكن أن تكون فى حوزة فرد واحد.

وكانت فكرته عن الكنوز أنها عبارة عن حفنة من العملة الصغيرة أو كمية صغيرة من الدولارات. لكن أحداث مغامرته أصبحت أكثر وضوحاً عندما أعاد التفكير فيها مرة أخرى، وبالتالى وجد نفسه يميل إلى التصديق أن الأمر لم يكن حلماً، كان لابد للشك أن ينزاح بعيداً.. تناول إفطاره بسرعة وأسرع لمقابلة هك.

(٢)

كان هك يجلس على حافة قارب وقد تدلت ساقاه فى الماء ويبدو مضطرباً. قرر توم أن يترك هك يفتح الموضوع. إذا لم يفعل ذلك، فستكون المغامرة مجرد حلم. صاح:

– هالو، هك!

– هالو توم. ساد بينهما الصمت لدقيقة ثم بادره قائلا:

– توم، لو كنا قد تركنا الأدوات عند الشجرة الميتة لكنا ظفرنا بالنقود. أليس كذلك؟

– لم يكن حلماً إذن! لم يكن حلماً. كم كنت أتمنى لو كان حلماً.

– ما الذى لم يكن حلماً؟

– ما حدث بالأمس. كنت أعتقد أنه كان حلماً.

- حلم؟ لو لم يتحطم السلم لكنت عرفت هل كان حلما أم لا. لقد حلمت الليلة الماضية بما فيه الكفاية مع ذلك الشيطان الإسبانى، لقد كان يطاردنى طوال الليل.

- علينا أن نجده ونسعى وراء النقود.

- توم، لن نجده أبدا. الفرصة تأتى للمرء مرة واحدة فقط، وهذه الفرصة قد أضعناها. سوف أموت من الرعب إذا رأيته مرة أخرى.

- وكذلك أنا، ولكنى أود أن أراه، وأتتبع خطاه حتى أعرف مقره رقم اثنين.

- أنا أيضا كنت أفكر فى ذلك ولكنى لم أخرج بنتيجة. ماذا تعتقد أنت؟

- لا أعرف. الأمر غامض. ربما كان بيتا وله رقم اثنين.

- لا يا توم، ليس الأمر كذلك، لأنه لو كان بيتا لما كان فى هذه البلدة.

- نعم، ولكن دعنى أفكر لحظة. إنه رقم لغرفة فى فندق.

- هذه هى الخدعة، لا يوجد سوى فندقين ونستطيع أن نعرف بسرعة.

- ابقَ هنا يا هك حتى أعود.

(٣)

ذهب توم فى الحال. لم يكن يريد أن يرى ومعه هك فى مكان عام. غاب توم لنصف ساعة وذهب إلى الفندق الأول، وجد أن الغرفة رقم اثنين كان يشغلها محام شاب منذ فترة طويلة ولا يزال بها. فى الفندق الثانى، كانت الغرفة رقم اثنين تشكل أمرًا غامضًا، فابن صاحب الفندق قال إنها مغلقة طوال الوقت ولم يرَ أى شخص يدخلها أو يخرج منها إلا فى الليل، ولا يعرف أى سبب محدد لذلك، فاستسلم للاعتقاد بأن هذه الغرفة يشغلها إنجن، لأنه لاحظ وجود ضوء فيها فى الليلة الماضية.

– هذا ما وجدته يا هك وأعتقد أنها هى ما نبحث عنه.

– أعتقد أنها كذلك يا توم. والآن ما الذى ستفعله؟

– دعنى أفكر.

فكر توم لوقت طويل ثم قال:

– سأخبرك. الباب الخلفى لغرفة رقم اثنين هو الباب الذى يفتح على الحارة الصغيرة بين الفندق ومخزن الطوب. حاول الحصول على كل مفاتيح الغرف التى يمكنك إيجادها، وسأحصل على ما لدى خالتى من مفاتيح، وفى أول ليلة مظلمة سنذهب إلى تلك الغرفة ونجرب تلك المفاتيح. وأحذرك، راقب إنجن جو لأنه قال إنه سينزل إلى البلدة ليأخذ بثأره. إذا رأيته عليك تتبعه، فإذا لم يذهب إلى الغرفة رقم اثنين فلن تكون هى المكان المقصود.

- لا أريد أن أتتبَّعه بنفسي.

- الأمر على ما يرام فهو لم يرك مطلقا، وحتى إذا كان قد رآك فلربما كان لا يعتقد شيئا بالنسبة لك.

- لو كان هناك ظلام فلربما تتبُّعته. سأحاول.

- سأتتبعه أنا أيضا لو أن هناك ظلامًا يا هك. فلربما وجد أنه لن يستطيع الأخذ بثأره، وبالتالي جاء وراء المال فقط.

- وهو كذلك يا توم. سأتتبعه.

- إذن اتفقنا. لا تضعف أبدا يا هك.

الفصل الثامن والعشرون

فى عرين إنجن جو

(1)

فى تلك الليلة، كان توم وهك على استعداد للمغامرة. لبثا إلى جوار الفندق لما بعد التاسعة. كان أحدهما يراقب الطريق والآخر يراقب باب الفندق. لم يدخل أحد إلى الشارع أو يخرج منه، كما لم يدخل أحد من باب الفندق أو يخرج منه وكان يشبه إنجن جو.. كانت الليلة رائقة، فذهب توم لينتظر هك هناك حيث اتفق معه على أن يذهبا سويا آخر الليل لتجربة المفاتيح. ولكن الليل ظل رائقا وأنهى هك مراقبته وذهب للنوم فى برميل فارغ فى حوالى الساعة الثانية عشرة.

فى يوم الثلاثاء كان حظ الصبيين لا يزال سيئا، وكذلك الأربعاء. ولكن ليلة الخميس كانت أفضل، فخرج توم متسللا، حاملا الفانوس الصفيح الخاص بخالته ووضع عليه منشفة كبيرة لتحجبه عن الأنظار. أخفى توم الفانوس فى البرميل الخاص برفيقه هك وبدأت المراقبة.

قبل منتصف الليل بساعة أغلق الفندق أبوابه وأطفأ أنواره. لم يظهر الإسباني ولم يدخل أو يخرج أحد من الشارع. كان كل شيء يثير الشك. خيمت الظلمة ولم يقطع الصمت سوى صوت حفيف الأشجار الآتي من بعيد.

أخرج توم الفانوس وأضاءه في البرميل ووضع عليه المنشفة واستعد لمغامراته ومشى صوب الفندق. توقف هك في الخارج ودخل توم إلى الشارع، وكان هك ينتظر إشارته بقلق، طال انتظاره لإشارة توم فبدأ يشعر بالخوف وراح يترقب رؤية ضوء الفانوس. ورغم أنه كان سيخيفه، فإنه كان سيعرف منه أن توم لا يزال حيا هناك. مرت اللحظات ثقيلة عليه، وبدأت الظنون تعصف به ووجد هك نفسه يقترب أكثر وأكثر من الفندق والخوف يسيطر عليه ويتوقع في كل لحظة مصيبة تعصف به وبرفيقه. فجأة رأى لمحة من ضياء وأقبل توم ليصيح فيه أسرع من هنا إنقاذا لحياتك. لم يكن بحاجة لأن يكررها، فمرة واحدة كانت تكفي، وفي لحظة كان الاثنان يجريان بأقصى سرعة. لم يتوقف الصبيان إلى أن وصلا إلى المظلة الخاصة بسلخانة مهجورة عند أطراف البلدة، وما إن استقرا داخلها حتى سرت عاصفة مدوية وسقطت الأمطار غزيرة.

(٢)

استردَّ توم أنفاسه وقال:

– كان ذلك مرعبًا يا هك، لقد جربْت مفتاحين ولكنهما أحدثا صوتًا أصابني بالخوف ولم أفلح في فتح القفل. رغم ذلك، وبدون أن ألاحظ

ما أفعل، أمسكت بالمقبض فانفتح الباب، فلم يكن مغلقا بالقفل. دخلت الغرفة ونزعت المنشفة من فوق الفانوس وهالني ما رأيت.

- وماذا رأيت يا توم؟

- لقد كنت على وشك الوقوع في يد إنجن جو.

- كيف؟!

- لقد كان راقدا على الأرض في نوم عميق، وذراعاه مفرودتان.

- يا إلهي، وماذا فعلت؟ هل استيقظ؟

- لا، لم يتحرك فقد كان سكران كما أعتقد. كل ما فعلته هو أنني خطفت المنشفة وجريت.

- لم أكن لأفكر في المنشفة لو كنت مكانك.

- كانت خالتي ستذيقني الجحيم إذا فقدتها.

- وهل رأيت الصندوق؟

- لم أرغب في النظر حول المكان، وبالتالي لم أر الصندوق ولم أر الصليب. لم أر أي شيء سوى زجاجة خمر وبعض الملابس على الأرض بجوار إنجن جو، ورأيت برميلين والعديد من الزجاجات في الغرفة. ألا يمكنك أن ترى الآن ما هو وضع تلك الغرفة؟

- كيف؟

- إنها مليئة بزجاجات الخمر.

– أعتقد أنه الوقت الحالي هو المناسب للحصول على ذلك الصندوق وإنجن جو سكران.

– لو كان الأمر كذلك، حاول أنت.

ارتجف هك قائلاً:

– لا، لا أريد.

– وأنا لا أريد يا هك، فوجود زجاجة واحدة بجوار إنجن جو ليس كافيا. لو كانت هناك ثلاث زجاجات، فلربما كان سكران بدرجة كبيرة وعندها أستطيع القيام بالمهمة.

ساد الصمت والتأمل، ثم قال توم:

– انظر يا هك، دعنا لا نحاول إلا عندما نتأكد أن إنجن جو ليس بالغرفة. إن الأمر مخيف جدا. لو راقبناه كل ليلة فسوف نتأكد بشكل قاطع عندما نراه يخرج في وقت ما وعندها نأخذ الصندوق ونهرب بسرعة البرق.

– أنا موافق، سوف أراقب المكان طوال الليل وسأفعل ذلك كل ليلة، إذا كنت ستقوم بالجزء الآخر من المهمة.

– سأفعل، كل ما عليك أن تفعله هو أن تتمشى في الشارع بجوار المنزل وتموء لأخرج، ولو كنت نائما فعليك أن تقذف ببعض الحصى على النافذة وسيوقظني ذلك.

– أوافق.

- لقد هدأت العاصفة يا هك وساعود للبيت. سوف يطلع الصبح بعد ساعتين. اذهب الآن وابدأ المراقبة.

- سأفعل يا توم. سأنام بالنهار وأراقب بالليل.

- هذا طيب. والآن أين ستنام؟

- فوق الدريس الخاص بروجرز. هو يسمح لي بذلك، وكذلك أبوه الزنجي. أنا أحضر الماء للعم جاك متى طلب مني ذلك وكلما فعلت ذلك يعطيني شيئا ما لآكله إذا استطاع. إنه زنجي طيب يا توم. هو يحبني لأنني لا أتعالى عليه بتاتا. أحيانا ما أجلس وآكل معه. المرء يفعل أشياء غريبة عندما يكون شديد الجوع رغم أنه عادة لا يفعل تلك الأشياء.

- أنا لا أريدك بالنهار، سأتركك لتنام. ولن آتي لأضايقك. في أي وقت ترى فيه شيئا يحدث خلال الليل عليك أن تأتي إلى البيت وتموء.



الفصل التاسع والعشرون

هك ينقذ الأرملة

(١)

كان أول ما سمعه توم في صبيحة الجمعة يعد خبراً سيئًا، فعائلة القاضي ثاتشر عادت إلى البلدة في الليلة الماضية. تراجع موضوع إنجن جو والكنز إلى الدرجة الثانية من اهتمامات توم واحتلت بيكي المقام الأول. التقى بها وأمضيا وقتا لطيفا يلعبان مع مجموعة من رفاق الدراسة. اكتمل اليوم بطريقة طيبة. استحثت بيكي والدتها بالنسبة للنزهة الخلوية التي طال انتظارها وطال تأجيلها ووافقت الأم، فكانت فرحة الفتاة بلا حدود وكذلك توم. أرسلت بيكي الدعوات قبل الغروب وانشغل صبية البلدة وفتياتها في الإعداد للنزهة وما يتوقعونه من إثارة ومرح. كان توم في درجة من الإثارة أبقته يقظا حتى ساعة متأخرة وكان عنده أمل أن يسمع من هك "مواء"، فيذهب ليجيء بالكنز فيذهل بيكي ورفقاءه في النزهة، ولكنه لم يستقبل أي إشارة تلك الليلة. وفي العاشرة من صباح اليوم التالي، تجمعت فرقة من الصبية والفتيات

بمنزل القاضى ثاتشر واستعد الجميع للنزهة. لم يكن معتادا لكبار حضور الاستعدادات للنزهة الخلوية الخاصة بالصغار. كان الأطفال يعتبرون فى أمان عندما تصحبهم عدة فتيات من عمر الثامنة عشرة وعدد من الفتيان من عمر الثالثة والعشرين. تم استئجار المركب البخارى لهذه المناسبة وملأ الحشد الصاخب الشارع الرئيسى وقد حملوا السلال المملوءة بالغذاء. كان سيدنى مريضا وفاتته الرحلة وبقيت مارى إلى جانبه لتسليته. كان آخر ما قالته السيدة ثاتشر لبيكى هو:

– لن تعودى إلا فى موعد متأخر وربما كان الأفضل لك قضاء الليل مع بعض الفتيات اللواتى يسكنَّ بالقرب من المرسى.

– إذن سأبقى مع سوزى هاربر يا أمى.

– حسن، راقبى سلوكك جيدا ولا تتسببى فى أية مشاكل.

بعد بداية الرحلة قال توم لبيكى:

– سأخبرك بما سنفعل، بدلا من الذهاب إلى بيت جو هاربر سوف نتسلق لأعلى التل ونتوقف عند بيت الأرملة دوجلاس. سيكون لديها آيس كريم، فلديها دائما الكثير منه، وسوف يسعدها أن ترانا.

– سيكون هذا أمرا طيبا. وبعد لحظة قالت:

– ولكن ماذا ستقول أمى؟

– وكيف ستعرف؟

قلبت الفتاة الفكرة فى رأسها وقالت بتردد:

- أعتقد أن هذا خطأ.

- والدتك لن تعرف وأيضا ما هو الخطأ فى ذلك؟ كل ما تريده والدتك هو أن تكونى بمأمن. أراهن أنها كانت ستقول لك اذهبى إلى بيت الأرملة دوجلاس لو فكرت فى الأمر.

(٢)

كان كرم الأرملة دوجلاس طُعْمًا مغريا. قرَّرا ألا يقولا لأى فرد عن برنامج الليل. خطر على بال توم أن هك قد يأتى هذه الليلة ويطلق الإشارة. فأيقظت هذه الفكرة هواجس توم ولكنه لم يطق التنازل عن التسلية والمرح عند الأرملة دوجلاس.

قال فى نفسه

- لم تأتِ الإشارة لمدة ثلاث ليال متتالية من قبل، فلماذا تأتى الليلة؟

المرح المؤكد للأمسية فاق عدم التأكد الخاص بالكنز، وبالتالى قرر الاستجابة للميول القوية وترك التفكير فى الصندوق.

توقف القارب على بعد ثلاثة أميال من البلدة ونزل الجميع إلى الشاطئ وملأت ضحكاتهم وصيحاتهم أجواء الغابة. قاموا بكل ما يمكن أن يصيبهم بالتعب والسخونة وبعد برهة عادوا إلى نصب المخيم

وقد تفتحت شهيتهم وجلسوا يأكلون. بعد الطعام استراحوا وهم يتبادلون الحديث في ظل شجرة بلوط مورقة. بعد قليل صاح أحدهم: "من منكم مستعد للذهاب إلى الكهف؟ من منكم مستعد للذهاب إلى الكهف"؟ كان كل واحد منهم مستعد لذلك. تم إخراج الشموع، وبعد قليل كانوا بأعلى التل.

(٣)

تقع فتحة الكهف بأعلى التل. كانت أبوابه القوية المصنوعة من خشب البلوط مفتوحة. بداخل الكهف توجد غرفة صغيرة باردة وكأن جدرانها من الثلج صنعتها يد الطبيعة بالحجر الجيرى الصلب الذى بدت على صفحته قطرات من الماء. كان شيئًا مثيراً الوقوف فى ظلمة الكهف العميقة والنظر خارجا إلى الوادى الأخضر الغارق فى ضوء الشمس. ولكن هذه الانطباعات الرائعة سرعان ما تبددت، فما إن أوقدت الشمعة الأولى حتى اندفع الجميع إلى من يحملها، فسقطت الشمعة وانطفأت وتبع ذلك ضحكات سعيدة. بدأ الجميع بعد ذلك فى النزول عبر الممر الحاد، ولم يكن ضوء الشموع كافيا ليظهر الجدران أو الصخور الواقعة على ارتفاع كبير فوقهم، ولم يكن الممر الرئيسى كبير الاتساع فهو لم يكن يزيد عن عشرة أقدام فى اتساعه. لم يكن كهف ماكدوجال سوى متاهة واسعة من الجزر المفتوحة على بعضها والتى لا تنتهى إلى مكان، ويقال إن المرء قد يتجول لأيام وليال داخلها ولا يجد نهاية لها، وأنه قد

يظل ينزل وينزل إلى الأرض وهو في متاهة بعد متاهة وإلى ما لا نهاية. لا أحد كان له خبرة بالكهف، فقد كان ذلك أمراً مستحيلاً. معظم الشباب كان يعرف جزءاً منه ولم يكن من الممكن المغامرة بالسير بعد هذا الجزء. كانت خبرة توم سوير بالكهف تماثل خبرة أي واحد منهم.

(٤)

تحرك الجميع عبر الممر الرئيسي لمسافة قصيرة، ثم بدأت مجموعات صغيرة تنحرف إلى الممرات الفرعية المتشعبة وتدخل إلى الردهات المظلمة ثم تفاجئ المجموعة الأخرى عند نهاية الردهات. لم تغامر أية مجموعة بالسير بعيدا عن الحدود التي يعرفونها.

بعد قليل بدأت المجموعات واحدة خلف الأخرى في العودة إلى فتحة الكهف وهم يتصببون عرقا لكن كان المرح يملأهم وهم متسخين بالطين وقطرات الماء، وكانوا مسرورين لنجاح المهمة. كانوا في غاية الدهشة لأن الوقت قد مرّ بسرعة وكان الليل على وشك أن يحل. كان صوت ناقوس المركب يدق على مدى النصف ساعة الأخيرة ليناديهم، ولكن المغامرة كانت مغرية. عندما اتجه القارب بمقدمته إلى داخل المياه لم يكن هناك من يهتم بالوقت سوى قائد المركبة

كان هك يقوم بالمراقبة عندما ظهرت أنوار المركب العائد. لم تكن هناك ضوضاء على سطحه لأن الصغار كانوا متعبين لدرجة كبيرة.

تعـجَّب هك من أمـر تلك المركب فلم يعـرف أى مـركب هـى؟ أو لمـاذا لم تتوقف عند المرفأ؟ ولكنه أسقطها من حسابه وتفرغ للمراقبة.

كانت الليلة ملبدة بالغيوم ومظلمة، وبدأت الأضواء المتناثرة للبلدة تبدو للعيان. خفت خطوات السائرين والبلدة نامت والمراقب الصغير يجلس وحده فى السكون. جاءت الساعة الحادية عشرة وأطفئت أنوار الفندق وسادت الظلمة الأنحاء كافة. انتظر هك وقتا طويلا، ولكن لم يحدث شىء. بدأ إيمانه يضعف وبدأت تساوره الشكوك وفكر فى أن يترك كل شىء ويذهب لينام.

سمع أصوات ضوضاء وجلبة أتية من الفندق فانتبه جيدا، تم إغلاق الباب المؤدى إلى الردهة بهدوء. اندفع إلى ركن مخزن الطوب. فى اللحظة التالية مر الرجلان بجواره وكان أحدهما يحمل شيئا تحت إبطه فظن أنه الصندوق. إذن هما سيأخذان الكنز، ولا فائدة لأن ينادى على توم الآن! سوف يكون ذلك أمرا سخيفا. سوف يهرب الرجلان مع الصندوق ولن يتم العثور عليهما مرة أخرى. قرر أن يستمر فى مراقبتهما ويتبعهما. خرج هك من مكمنه وتبع الرجلين كالقط.

(٥)

سارا فى شارع النهر لمسافة قصيرة، ثم انحرفا يسارا إلى شارع آخر سارا فيه إلى أن وصلا إلى ممر يؤدى إلى تل كاردف وسارا فيه. مرًا ببيت ولشمان الذى يقع فى منتصف الطريق لأعلى التل وظلا يصعدان.

ظن هك أنهما سيدفنان الصندوق فى المحجر القديم، ولكن لم يحدث، واستمرا صاعدين إلى قمة التل ودخلا الممر الضيق بين الأشجار واختفيا فى الظلام. اقترب هك أكثر منهما لأنهما كانا لا يستطيعان رؤيته في الظلام، وظل يسير بخطوات حذرة خشية أن يشعرا بخطواته. توقف بعدها تماما وأنصت ، لم يكن هناك صوت سوى دقات قلبه، سمع صوت بومة وهى تنعق فى أعلى التل، فكان ذلك نذيرا بالشؤم. ولكن لم يكن هناك صوت لوقع أقدام. ظل كامنا فى مكانه ينتظر لبعض الوقت، بعد لحظات سمع صوت رجل منهما كان غير بعيد عنه، فتملكه الرعب. كان يعرف أنه على بعد خمس خطوات من الممر المؤدى إلى بيت الأرملة دوجلاس. بعدها سمع صوت إنجن جو وهو يصيح:

– اللعنة، يبدو أن لديها ضيوفا، فهناك ضوء رغم أن الوقت متأخر.

– لا أستطيع أن أرى أى ضوء.

سرى الخوف فى قلب هك، واعتقد أن هذه هى مهمة الانتقام. فكَّر فى الهرب ولكنه تذكر أن الأرملة دوجلاس كانت كريمة وعطوفة معه أكثر من مرة، وربما كان الرجلان قد جاءا لقتلها. تمنى لو أن بإمكانه تحذيرها ولكنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية، فلربما أمسكا به إذا حاول.

أخذ إنجن جو الرجل الغريب من ذراعه إلى مكان ليس به أشجار وقال له:

– لأن الأشجار كانت تعترض طريقك كنت لا ترى جيدا، الآن يمكن الرؤية.. أليس كذلك؟

– نعم، ولكن هناك أناسًا بالبيت كما أعتقد. من الأنسب أن نتخلى عن الأمر.

– كيف نتخلى عنه وأنا سأغادر البلدة للأبد؟ وقد لا تسنح لنا الفرصة مرة أخرى؟ قلت لك سابقا أنا لا أبالى بخبيئتها ويمكنك أنت الحصول عليها. لقد كان زوجها عنيفا معى لمرات عديدة، وقد كان هو القاضى الذى حكم علىَّ بتهمة التشرد، وليس هذا هو كل شىء. إنه أمر بجلدى أمام السجن مثل الزنوج، أتفهم ذلك؟ لقد أساء إلىَّ ثم مات، ولكنى سأنتقم منها.

– لا، لا تقتلها، لا تفعل ذلك.

– ومن قال أى شيء عن القتل؟ كنت سأقتله هو لو كان حيا، ولكنى لن أقتلها. عندما تريد الانتقام من امرأة فإنك لا تقتلها وإنما تسعى لتشويه ملامحها، تقطع أنفها أو تقضم أذنيها.. لكن لا تقتلها.

– يا إلهى، هذا فظيع.

صاح بحدة:

– احتفظ برأيك لنفسك، فذلك أكثر أمانا بالنسبة لك. سأربطها بحبل فى سريرها، فإن نزفت حتى الموت فسيكون هذا قدرها. ستساعدنى في ذلك يا صديقى.. من أجل خاطرى.. وهذا هو سبب وجودك هنا، فقد لا أستطيع القيام بالمهمة وحدى.

وإذا تراجعت فسوف أقتلك، أتفهم ذلك؟ وحتى إذا اضطررت لقتلك، سأقتلها هى أيضا، ولن يعرف أحد أى شىء عن هذا الأمر.

– حسن، إذا كان لابد من القيام بذلك، فلنقم به، وكلما أسرعنا كان ذلك أفضل.

(٦)

أحس هك بأن الصمت سوف يخيم وهذا يسبب له رعبا أكثر من أى حديث عن القتل، وبالتالى حبس أنفاسه وتراجع إلى الخلف وكاد يقع على الأرض. أخذ خطوة أخرى للخلف ثم أخرى وأخرى. تكسر فرع شجرة تحت قدمه، فتوقفت أنفاسه وأصاخ السمع، لم يكن هناك صوت وكان السكون شاملا، أخذ طريقه متحسسا الأشجار من حوله إلى أن وجد نفسه فى المحجر فأحس بالأمان فأطلق ساقيه للريح. وصل إلى بيت ولشمان فتوقف عند الباب، وبعد قليل ظهر رأس الرجل العجوز من النافذة وصاح:

– ما هذا الصوت الذى هناك؟ من الذى يدق الباب؟ ما الذى تريده؟

– أدخلنى بسرعة! وسأقول لك كل شىء.

– ومن تكون؟

– هكلبرى، أدخلنى بسرعة.

- هكلبرى! ليس هـذا بالاسـم الذى تفتح له الكثير من الأبواب كما أعتقد، ولكن تفضل بالدخول ولنسمع ما هى المشكلة.

كانت أول كلمات هك عندما دخل هى..

- أرجوك لا تقل أبدا لأحد ما سأقوله لك، وإلا قتلت. فالأرملة كانت صديقة لى، وهى فى خطر كبير.

مضى هك يحكي للعجوز ما تتعرض له الأرملة، فنظر إليه العجوز بدهشة وقال:

- أحسنتَ صنعًا يا ولدى.

(٧)

نادى العجوز على أولاده، وفى دقائق كان الرجل وأولاده الثلاثة فوق التل يحملون السلاح فى أيديهم. لم يصحبهم هك، وإنما اختبأ خلف شجرة ليراقب ما سيحدث. كان هناك صمت مخيم، وفجأة سمع صوت طلقات رصاص وصراخ. انتظر هك قليلا ثم نزل من على التل بأسرع ما يمكن.

الفصل الثلاثون

توم و بيكى فى الكهف

(١)

ما إن طلع فجر يوم الأحد حتى صعد هك لقمة التل وطرق باب ولشمان العجوز. كان الجميع نائمين نوما قلقا بسبب أحداث الليلة الماضية. صاح صوت من النافذة:

– من هناك؟

أجاب هك:

– أرجوكم أدخلوني! أنا هك.

– مرحبا بك.

كانت هذه كلمات غريبة على أذن هك لم يقلها له أحد في حياته. كانت كلمة مرحبا بك من الكلمات التي لم يسمعها أبدا تقال له. فتح الباب بسرعة ودخل هك.جلس على المقعد الذى قدِّم له وارتدى الرجل العجوز وأبناؤه الثلاثة ملابسهم على عجل.

- الآن يا ولدى، أعتقد أنك جائع، سيكون الفطور معدا بعد أن تشرق الشمس، وسيكون إفطارا ساخنا. كنت أنا والصبية نأمل أن تأتى إلينا الليلة الماضية.

قال هك:

- كنت خائفا وهربت. سمعت طلقات الرصاص. رجئت الآن لأعرف ما الذى حدث، وقد جئت مبكرا وقبل الصبح لأنني لم أرد أن أقابل أولئك الشياطين.

- يبدو أنك لم تنم الليلة الماضية، يوجد هنا فراش لك لتنام بعد أن تتناول الفطور. سكت العجوز برهة ثم استطرد: كدنا أن نضع أيدينا عليهما وفقا لوصفك، وتسللنا على أطراف أصابعنا إلى أن أصبحنا على مسافة قريبة منهما، وكانت الظلمة شديدة وفجأة أحسست بأنني سأعطس. كان حظًا شديد السوء. حاولت أن أقاوم العطس لكن بلا فائدة وعطست بقوة رغمًا عنى مما أفزع النذلين فأسرعا بالهرب من الممر، وعندها صحت: "أطلقوا النار يا أولاد" فأطلقوا النار على مكان وجودهما، ولكن النذلين اختفيا ونحن وراءهما عبر الأشجار، ثم قاما بإطلاق النار علينا وهما يهربان ولكن طلقاتهما لم تلحق بنا أذى. وعندما لم نعد نسمع وقع أقدامهما توقفنا عن مطاردتهما وذهبنا إلى الشرطة حيث أسرعت لحراسة شاطئ النهر، وما إن يطلع الصبح سيقوم المأمور ورجاله بالبحث عنهما فى الدغل، وسيذهب أولادى معهم.

كنت أتمنى لو توافـرت لدينا أوصـاف هذين النذلين فسوف يساعد ذلك كثيرا. لكنك لم تستطع رؤية ملامحهما في الظلام كما أعتقد.

– لقد رأيتهما بالبلدة وتتبعتهما.

– رائع! صفهم لي يا ولدي.

– أحدهما هو الإسباني الأصم الأبكم، وقد زار البلدة مرة أو مرتين، والآخر رجل حقير الملبس سيئ الهيئة.

– هذا يكفي. فنحن نعرف الرجلين. لقد رأيتهما في الدغل من النافذة في أحد الأيام واختفيا بعد ذلك. اذهبوا أيها الأولاد وقولوا للمأمور، ثم عودوا لنتناول الفطور

(٢)

خـرج أولاد ولشمان في التو، وبينمـا هم يغـادرون الحجرة قفز هك صائحاً:

– لا تخبروا أحدا بأنني هو من أرشد عنهما.

– حسن، مـا دمت تريد ذلك يا هك، ولكن من حقك أن تنال ما تستحق من إعجاب على ما قمت به.

– لا، لا، أرجوكم لا تقولوا لأحد.

بعد أن خرج الأولاد قال العجوز لهك:

- لن يقولوا شيئا عنك ولا أنا، ولكن لماذا لا ترغب في أن يُعرف الأمر؟

لم يكن هك بمقدوره أن يشرح السبب. وقال للعجوز إنه يعرف الكثير عن واحد منهما ولا يريد أن يعرف هذا الرجل أنه يعلم شيئا عنه وإلا قام بقتله.

وعده العجوز بالكتمان، وسأله:

- كيف تمكنت من تتبع هذين الرجلين؟ هل كان سلوكهما مريبا؟

ظل هك صامتا يفكر في إجابة، ثم قال:

- أنا شخص صعب، على الأقل هذا ما يقوله الصبية الآخرون عني، ولا أرى شيئا سيئا في ذلك. وأحيانا لا أستطيع النوم بسبب ذلك رغم أنني أحاول أن أجد أسلوبا جديدا لحياتي. وهذا كان حالي الليلة الماضية. لم أستطع النوم وجئت إلى الشارع في منتصف الليل وفكرت في الأمر، وعندما وصلت إلى مخزن الطوب بجوار الفندق، وقفت بجوار الحائط للتفكير مرة أخرى. حينئذ جاء الرجلان ومرا بالقرب مني وكان أحدهما يحمل شيئا تحت إبطه، وظننت أنهما سرقاه. كان أحدهما يدخن والآخر يريد ثقابا، فتوقفا أمامي تماما وأضاء الثقاب وجهيهما، فرأيت أن الشخص الضخم كان هو الإسباني بسوالفه البيضاء والرقعة التي توجد على عينه، والشخص الآخر كان شيطانا سيئ المظهر يلبس الأسمال.

– هل استطعت رؤية الأسمال في ضوء الثقاب؟

ارتبك هك بعض الشيء، ولكنه سرعان ما قال:

– لا أعرف، ولكن يبدو أنني رأيتها بطريقة ما.

– إذن مشيا في طريقهما، وأنت..؟

– تتبعتهما، أردت أن أعرف ما الذي يحدث، فقد كانا يتلصصان. مشيت وراءهما حتى بيت الأرملة، ووقفت في الظلام. وسمعت الرجل الذي يلبس الأسمال يرجو الآخر ألا يؤذي الأرملة، والإسباني يقسم أن يشوه ملامحها كما قلت لك.

– هل الأصم الأبكم قال كل ذلك؟

(٣)

كان هك قد وقع في خطأ فظيع حين كان يحاول أن يبتعد بالرجل العجوز عن أن يعرف من يكون الرجل الإسباني، ولكن لسانه يبدو أنه أوقعه في المشاكل رغما عنه. حاول التملص مما قال ولكن الرجل العجوز كانت عينه عليه وهو يرتكب الغلطة وراء الغلطة. أخيرا قال ولشمان:

– يا بني، لا تخف مني فلن أؤذي شعرة من رأسك، ولكني سأحميك. هذا الإسباني ليس أصمَّ ولا أبكم، لقد أفضيت بذلك بالرغم منك دون أن تدري ولا تستطيع إنكار ذلك. مؤكد أنك تعرف شيئا عن الشخص الإسباني وتريد أن تبقيه سرا. ثق بي، وقل لي ما هو السر، وثِقْ بأنني لن أشي بك.

نظر هك إلى عينى الرجل الشريف ثم همس فى أذنه:

- إنه ليس إسبانيًا، إنه إنجن جو.

كاد الرجل أن يقفز من كرسيه، وفى اللحظة التالية قال:

- الآن اتضح الأمر، عندما تحدثت عن قضم الأذن وقطع الأنف كنت أعرف أن تلك الكلمات لا تخصك لأن الرجال البيض لا يقومون بمثل هذا الانتقام. ولكن بالنسبة لإنجن فالأمر مختلف تماماً.

خلال الإفطار استمر الحديث وقال العجوز إن آخر شىء فعله هو وأولاده قبل ذهابهم للفراش هو إحضار فانوس والدوران حول بيت الأرملة بحثا عن آثار دماء. لم يجدوا شيئا ولكنهم عثروا على حزمة من...!!

صاح هك بلهفة:

- من ماذا؟

كانت عينا هك تحملقان باتساع وأنفاسه تتهدج فى انتظار الإجابة. تمهل ولشمان فى حديثه ثم أجاب:

- من أدوات السطو!

اعتدل هك فى جلسته وقد أحس بالراحة، نظر ولشمان إليه بأسى وفضول وقال:

- نعم! أدوات سطو. يبدو أن ذلك قد أراحك بدرجة كبيرة، ولكن ما الذى جعلك تشعر بذلك؟ ما الذى كنت تعتقد أننا سنجد؟

(٤)

كان هك في موقف حرج للغاية، وكانت العين الفاحصة العجوز تنظر إليه. كان يودّ لو تمكن من تقديم إجابة ترضي العجوز ولكن لم يكن في رأسه شيء. أجاب بصوت خفيض:

- كتب مدرسة الأحد.

ضحك الرجل العجوز وأخذ جسمه يهتز من الضحك، وقال ساخرا "إن تلك الضحكة مثل المال في جيب الرجل، لأنها توفر عليه أتعاب الطبيب". واستطرد:

- أيها الشاب المسكين، أنت خائف ومذعور، فلا عجب إذن أن تكون أيضا غير متزن، ولكنك سوف تجتاز هذه المحنة. الراحة والنوم سيساعدان على ذلك.

كان هك مستاءً من كونه قد فضح نفسه بظهوره بهذا المظهر الذى يثير الشكوك لأنه تخلى عن فكرة أن الحزمة التى جاء بها الرجل من الفندق كانت هى الكنز لحظة أن سمع الحديث عند بيت الأرملة. كان يعتقد بأنه ليست الكنز ولكن لم يكن يعرف أنها ليست كذلك، وبالتالى كان العثور على الحزمة أمراً مثيراً. ولكنه أحس بالسعادة لما جرت عليه الأمور، حيث إنه الآن يعرف بدون أى شك أن الحزمة لم تكن الكنز وبالتالى استراح عقله وهدأ. فى الواقع كان كل شيء يسير فى المسار الصحيح الآن، فالكنز لا بد أنه لا يزال فى الغرفة رقم اثنين. ولابد وأنه سيتم الإمساك بالرجلين وسجنهما وبالتالى سيتمكن هو وتوم من الاستيلاء على الذهب هذه الليلة وبدون أى مشاكل أو خوف.

(٥)

بعد أن انتهى الإفطار، سمع صوت طرق على الباب. قفز هك ليختبئ فلم يكن يريد أن يتم الزج به فى الأحداث التى جرت أخيرا. أدخل ولشمان عدداً من السيدات والسادة. كان بينهم الأرملة دوجلاس. لاحظ أن هذه المجموعة هم من صعدوا إلى أعلى التل للنظر إلى موقع الأحداث. إذن فالأخبار قد انتشرت.

كان علي ولشمان أن يقصَّ عليهم ما حدث بالليل، وكان عرفان الأرملة بالجميل عظيما، ولكنه قال:

- لا تقولي كلمة واحدة يا سيدتي. هناك من هو أولى بذلك مني ومن أولادى، ولكنه لا يريد مني أن أذكر اسمه، ولولاه لما كنا هنا الآن.

أدى ذلك بالطبع إلى فضول كبير وتساؤل بين الزوار، ولكن الرجل العجوز رفض الإفصاح عن السر.

حين عرفت القصة بكاملها قالت الأرملة:

- ذهبت للنوم فى الفراش ونمت تماما خلال كل تلك الأحداث. لماذا لم تأت وتوقظني؟

- قدَّرنا أن ذلك لن يفيد في شيء. هذان الرجلان لن يعودا إلى هنا مرة أخرى. فليس لديهم أدوات ليستعملوها. وما الفائدة التي كانت ستعود علينا من إيقاظك وبث الرعب في قلبك؟ لقد وقف رجالى الزنوج الثلاثة لحراسة بيتك طوال الليل، وقد عادوا لتوهم.

جاء زوار آخرون، وكان لابد من أن تقال القصة مرة أخرى. لم تكن هناك مدرسة السبت خلال العطلة، ولكن كان الجميع مبكرا فى حضوره إلى الكنيسة.

كانت قصة الأحداث هى محور الاهتمام. جاءت الأخبار بعدم العثور على أثر للرجلين حتى تلك الساعة. عندما انتهى القداس، سارت زوجة القاضى ثاتشر بجوار السيدة هاربر وهى خارجة من الكنيسة وقالت:

– هل تنام بيكى طوال اليوم؟ توقعت أن تكون متعبة بدرجة كبيرة.

– نعم، ألم تقضِ الليلة عندك بالأمس؟

صاحت الأخرى:

– لا.

(٦)

امتقع لون السيدة ثاتشر، وجلست على أحد المقاعد بينما كانت الخالة بولى تتحدث مع صديقة لها، ولما رأتهما صاحت:

– صباح الخير يا سيدة ثاتشر، صباح الخير يا سيدة هاربر. إن لدى صبيًا مفقوداً. أعتقد أن توم قد بقى عند واحدة منكما الليلة الماضية. والآن هو خائف من القدوم إلى الكنيسة. يجب أن أسوّى حسابى معه.

هزت السيدة ثاتشر رأسها وامتقع لونها أكثر وأكثر.

- لم يكن لدى أي واحدة منا. قالت السيدة هاربر وقد بدت عليها دلائل عدم الارتياح وبدأ القلق يظهر على وجه الخالة بولى.

- جو هاربر، هل رأيت توم هذا الصباح؟

- لا يا سيدتى.

- ومتى رأيته آخر مرة؟

حاول جو التذكر ولكنه لم يكن متأكدا. توقف الناس عن الخروج من الكنيسة وبدأ الهمس ينتشر وبدأ عدم الارتياح يستولى على الجميع. تم استجواب الأطفال والمدرسين، وقال الجميع إنهم لم يلاحظوا ما إذا كان توم وبيكى قد صعدا إلى سطح المركب فى رحلة العودة أم لا، فقد كان الظلام دامسًا ولم يفكروا فى التحقق من أن أحدا كان قد تخلف عن الركوب. صاح أحد الصبية أنه يخشى أن يكونا ما زالا فى الكهف. أغشى على السيدة ثاتشر وأخذت الخالة بولى فى البكاء.

انتشر الخبر من مجموعة لأخرى ومن شارع إلى شارع، وخلال خمس دقائق كانت الأجراس تدق والبلدة بكاملها قد علمت بالخبر. تراجع حدث تل كاردف وأصبح عديم الأهمية وتناسى الجميع أمر اللصين.

أسرجت الخيول وأعدت الزوارق وأبحرت المراكب من المرسى، وقبل مرور نصف ساعة كانت قوة قوامها مائتان من الرجال تنطلق عبر الطرقات وفى النهر صوب الكهف للبحث عن بيكى وتوم.

(٧)

كانت البلدة خاوية طوال فترة بعد الظهر. زارت النسوة الخالة بولى والسيدة ثاتشر لتهدئتهما. وبكت النسوة معهن أيضا، وكان هذا أفضل من الكلمات. ظلت البلدة طوال الليل فى انتظار الأخبار، ولكن عندما طلع الصبح كان كل ما جاء هو "أرسلوا شموعا أكثر وطعاما" كانت السيدة ثاتشر على وشك الجنون وكذلك الخالة بولى. القاضى ثاتشر أرسل رسائل أمل وتشجيع من الكهف ولكنها لم تنجح فى تهدئتهما.

ذهب العجوز ولشمان إلى بيته عند الصبح وقد تناثرت بقايا الشموع المحترقة على ثيابه التى اتسخت بالطين وتمزقت. وجد هك لا يزال فى الفراش الذى جهزه له وقد أصابته حمى وراح يهذى. كان الأطباء جميعهم فى الكهف، وبالتالى جاءت الأرملة دوجلاس لتباشر المريض وقالت إنها ستبذل معه قصارى جهدها سواءً كان طيبا أو سيئا، فهو إنسان، ومن كان إنسانا فمن الواجب ألا يتم إهماله. قال ولشمان إن هك لديه مزايا عديدة. وقالت الأرملة:

– يمكنك الاعتماد على ذلك. فهذه هى علامة الله. فهو لا يتركها راكدة يضعها فى كل مخلوق يأتى من بين يديه.

بعد الظهر، بدأت مجموعات من الرجال تعود إلى البلدة، وظل الأقوياء يبحثون. كان كل ركن من أركان الكهف يتم فحصه بدقة، أينما تجوَّل المرء فى المتاهة الخاصة بالممرات كانت الأنوار ترى وهى تومض هنا وهناك والصيحات وطلقات المسدسات تعود أصداؤها

إلى الآذان عبر فراغ الممرات الوسطية. وُجِدَ في مكان ما كلمتا "توم وبيكي" مكتوبتان على الصخور ببقايا الشموع وبجوارها قطعة من شريط متسخ، تعرفت عليه السيدة ثاتشر، وانخرطت في البكاء عندما رأته قائلة إنه آخر شيء يمكنها الحصول عليه من طفلتها، ولا يعادله شيء في قيمته، لأنه آخر ما تبقى من جسدها الحي قبل موتها. قال البعض إنه بين كل فترة وأخرى يومض من بعيد في الكهف ضياء، ثم يتبعه هتاف وأن بعض الرجال يذهبون سريعا إلى المكان الذي ينبعث منه الصدى ولكن خيبة الأمل دائما ما تواجههم، فقد كانت الأضواء للباحثين وليست للأطفال.

(٨)

مرت تلك الأيام تملؤها الكآبة المقبضة، وغرقت البلدة في الأحزان. لم يكن لدى الناس إقبالٌ على أي شيء. كان هك ما زال يصارع المرض وكان عندما يفيق يتحدث عن موضوع الفندق. سأل الأرملة عما إذا كان قد تم اكتشاف أي شيء في الفندق منذ أن سقط مريضاً.

قالت الأرملة:

– نعم.

جلس هك في الفراش وسأل بأعين مفتوحة:

– ماذا وجدوا.

– خمور، وقد تم إغلاق الفندق. أرقد يا صغيرى.

– فقط قولى لى شيئا واحدا، أرجوك. هل توم سوير هو من وجد الخمور؟

انفجرت الأرملة فى البكاء قائلة:

– اسكت أرجوك، لقد قلت لك من قبل إنك يجب ألا تتكلم. أنت مريض جدا.

كان على يقين بأنه لم يكتشف سوى الخمر. لو كان الذهب هو ما اكتشف لكان لذلك صدى عظيم، ويكون الكنز قد فقد للأبد! ولكن لماذا بكت عندما سألتها؟ كانت هذه الأفكار تنتاب عقل هك ونام وهو حائر فى تفسيرها.



الفصل الواحد والثلاثون

وُجِدَ، ثم فُقِدَ ثانية!

(١)

نعود الآن إلى توم وبيكي والنزهة الخلوية. كان الاثنان يشاركان الجميع في زيارة العجائب المعروفة بالكهف، وهى التى كانت أسماؤها غريبة، مثل "غرفة الاستقبال" و "الكاتدرائية" و "قصر علاء الدين" وغيرها. بعدها بدأت لعبة الاستخفاء واشترك فيها توم وبيكى مع الباقين، وفى أثناء اللعب دخلا إلى أحد الممرات وهما يسمكان بالشموع وراحا يقرآن ما كتب على الجدران من أسماء، وتواريخ وعناوين وعبارات. وبينما هما سائران يتحدثان أدركا أنهما دخلا جزءًا من الكهف لم يكتب على جدرانه شيء، فكتبا بدخان الشموع اسميهما واستمرا فى السير إلى أن دخلا مكانا به شلال مائى يتدفق من أعلى ومحمل برواسب الحجر الجيرى ثم يتجمع فى بركة ماء بأسفل. حشر توم جسده النحيل خلف الصخرة لينير المكان كى تتمكن بيكى من الاستمتاع برؤية الشلال فوجد أن بالمكان ما يشبه السلم وشديد الانحدار، ويقع بين جدران ضيقة.

وفي الحال تسلطت على توم طموحات المستكشف واستجابت بيكى لندائه وقاما بترك علامة بدخان الشمعة لإرشادهما عند الرجوع، وبدأ مهمتهما. سلكا الطرق المختلفة في العمق المجهول للكهف وتركا خلفهما علامة أخرى وأخذا يمشيان فى الأفرع المختلفة للممرات وهما يبحثان عن أشياء جديدة يقولونها لرفاقهم فى الخارج. وجدا فى أحد الأماكن مغارة متسعة تتدلى من سقفها رواسب كلسية فى حجم ساق الرجل، فسارا حولها بإعجاب ثم تركاها إلى ممر آخر من الممرات العديدة التى فيها مثل هذه الرواسب، فقادهما ذلك إلى نبع مائى على سطحه صنع الجليد أشكالا تشبه البلور، وكان النبع فى وسط مغارة حولها أعمدة عديدة ضخمة الرواسب الكلسية، وتحت سقف المغارة تجمعت أعدادٌ كبيرة من الخفافيش التى أفزعها ضوء الشموع فطارت لأسفل بالمئات وهى تصرخ واتجهت لمصدر الضوء.

(٢)

كان توم على خبرة بسلوكها والخطر الذى تمثله، فأمسك بيد بيكى وأدخلها بسرعة إلى أول الدهاليز، ولكن خفاشا هاجم الشمعة التى بيد بيكى وأسقطها بجناحيه، وطاردت بقية الخفافيش الطفلين لمسافة طويلة، ولكنهما كانا يحتميان بأى ممر يجدانه أمامهما، وأخيرا أفلتا من هذا الهجوم.

وجد توم بحيرة تحت الأرض تمتد إلى مسافة بعيدة ولا تظهر نهايتها في الضوء الخافت. أراد أن يستكشف نهايتها، ولكنه وجد أن من الأفضل الجلوس للراحة أولا. وللمرة الأولى كان السكون الهادئ للمكان مدعاة لأن يشعر الطفلان بالسكينة، وقالت بيكي:

- إن الوقت الذى انقضى منذ أن كنا مع المجموعة كان طويلا جدا.

- نحن على عمق يبعد عنهم كثيرا ولا أعرف كم نبعد ولا فى أى اتجاه.

استبد الخوف ببيكي وقالت:

- لا أعرف كم مضى علينا من الوقت ونحن هنا. من الأفضل أن نعود أدراجنا.

- نعم، أعتقد ذلك.

- أتستطيع معرفة الطريق يا توم؟

- أعتقد أنه باستطاعتى معرفته، ولكن الخفافيش لو أطفأت شمعتينا فسنقع في ورطة. فلنجرب طريقا آخر بحيث لا نمر من خلالها مرة أخرى.

- أمل ألا نتوه، فلو تهنا سيكون ذلك مرعباً.

(٣)

بدأ السير عبر دهليز وسارا فيه لمسافة طويلة وهما ينظران إلى كل فتحة لمعرفة ما إذا كانت مألوفة لهما، ولكنها كانت جميعها غريبة عليهما. وكلما قام توم باختبار لإحداها كانت بيكى تنظر إلى وجهه وتنتظر أن ترى فيه علامة مشجعة، ولكنه كان يقول بتفاؤل:

- ليس هذا هو الممر المقصود، ولكننا سنصل إليه حالا.

ولكن الأمل أخذ يقل ويقل مع كل إخفاق، وراح توم يجرى من ممر لآخر على أمل أن يجد الممر المطلوب بلا جدوى. كان ما زال متفائلا ويقول إن الوضع بخير، ولكن كان فى قلبه خوف جعل وقع كلماته كما لو أنه يقول "إن كل شيء قد ضاع".

التصقت بيكى به فى خوف عظيم وحاولت السيطرة على دموعها ولكنها لم تفلح وبكت وهى تقول:

- لا تخف من الخفافيش يا توم، دعنا نعود من ذلك الطريق، فنحن نتورط أكثر وأكثر فى هذا الوضع السيئ. توقف توم وقال:

- أنصتى.

كان السكون شاملا وعميقا لدرجة أن صوت أنفاسهما كان يسمع بوضوح. صاح توم بقوة، وسرى صوته عبر الممرات الفارغة ثم اختفى صداه، فقالت بيكى:

- لا تفعل ذلك مرة أخرى يا توم فهو مخيف.

– إنه مخيف، ولكن من المحتمل أن يسمعونا. وقام بالصياح مرة أخرى.

ظل الاثنان فى حالة سكون، يستمعان ولكن دون جدوى. اتجه توم بسرعة إلى الممر الخلفى، ولكن ترده كشف لبيكى عن حقيقة مفزعة، وهى أنه لا يعرف الطريق الذى جاءوا منه.

صاحت فى فزع:

– ألم نترك أية علامات يا توم؟

– لقد كنت غبيا فلم أفكر فى أننا سنعود. لا أستطيع أن أجد الطريق، فكل الطرق قد اختلطت علىَّ.

– لقد تهنا يا توم، لقد تهنا ولن نستطيع الخروج من هذا المكان المخيف. لماذا تركنا رفاقنا من الأساس؟

(٤)

سقطت بيكى على الأرض وانفجرت فى بكاء عنيف لدرجة أن توم كان يخشى أن تموت أو تفقد عقلها. جلس بجوارها واضعا ذراعيه حولها فدفنت وجهها فى صدره وتعلقت به بفزع شديد ودموعها تنساب بقوة على خديها. رجاها توم أن تتعلق بالأمل، فقالت إنها لا تستطيع. كان توم يلوم نفسه على توريطها فى هذا الوضع البائس، فكان لكلماته أثر طيب عليها حيث قالت إنها ستحاول أن تتمسك بالأمل مرة أخرى

وأنها ستقوم وتتبعه أينما ذهب، ثم قالت بنبرة طيبة "إن عليه ألا يلوم نفسه بهذه الطريقة، لأنه لا يتحمل اللوم بدرجة أكبر مما تتحمله هي".

بدأ في السير مرة أخرى بطريقة عشوائية وكل ما كان بوسعهم أن يفعلاه هو أن يواصلا المسير.

بعد برهة أخذ توم شمعة بيكي وأطفأها، فالاقتصاد يعني الكثير في هذه الحالة. لم تكن هناك حاجة للكلمات وقد فهمت بيكي ذلك وضاع أملها ثانية. كانت تعرف أن توم يملك شمعة كاملة وأربع قطع أخرى من الشمع في جيبه ورغم ذلك كان لابد من الاقتصاد.

بدأ الإنهاك ينال منهما ومع ذلك استمرا في السير قدما، فقد كان من السخف أن يفكرا في الجلوس لأن الوقت ثمين جدا. كان السير في أي اتجاه يعني على الأقل تقدما، وقد يؤدي إلى نتيجة ولكن الجلوس معناه دعوة الموت للحضور.

لكن أرجل بيكي الرقيقة تعبت، فجلست في مكانها، وجلس توم بجوارها. تحدثا عن البلدة وأصدقائهما والأسرّة المريحة وفوق كل شيء، النور. بكت بيكي ثانية وحاول توم التفكير في طريقة لتهدئتها ولكنه لم يفلح. كانت هي متعبة جدا، فخلدت للنوم. أحس توم بالسرور وأخذ ينظر إليها وهي نائمة، تأمل وجهها فوجده طبيعيا من أثر الأحلام السعيدة وأشرقت ابتسامة على شفتيها. كان وجهها النائم يعكس سلاما فأحس بالراحة، وعاد بأفكاره إلى أوقات انقضت وذكريات مضت. وبينما هو

غارق في أفكاره استيقظت بيكي بضحكة صغيرة ما لبثت أن ماتت على شفتيها تبعتها الكلمات:

- كيف تمكنت من النوم!

- أنا سعيد لأنك نمت يا بيكي فستشعرين بالراحة الآن وسنجد الطريق للخروج من هنا.

- يمكننا المحاولة يا توم ولكنى رأيت بلادا جميلة فى الحلم وأعتقد أننا سنذهب إلى هناك.

- ربما لا، تشجعى يا بيكى ولنبدأ محاولة الخروج.

(٥)

وقفا وسارا متشابكي الأيدى يحدوهما الأمل. حاولا تقدير الفترة التى قضياها فى الكهف وكانا يظنان أنهما أمضيا أياما طويلة، رغم أنه كان واضحا أنها لا يمكن أن تكون كذلك، فالشموع التى معهما لم تنته بعد. فشلا فى تحديد الوقت الذى مكثا فيه داخل الكهف، بعدها قال توم" إنهما يجب أن يجدا النبع"، وبعد قليل وجداه، فقال توم إن وقت الراحة قد حل. كانا متعبين لدرجة لا توصف، ولكن بيكى قالت إنهما يستطيعان السير لمسافة أخرى، وكانت تتوقع أن تسمع موافقة توم. جلسا للراحة وثبت توم الشمعة بالجدار وساد بينهما الصمت لبعض الوقت قطعته بيكى قائلة:

- توم، أنا جائعة بشدة.

أخرج توم شيئا من جيبه وقال ضاحكا:

- هل تتذكرين هذه؟

ابتسمت بيكي قائلة:

- إنها كعكة زواجنا يا توم.

- نعم، كنت أود أن تكون في حجم البرميل، لكنها كل ما نملك الآن.

- لقد احتفظت بها لكي نحلم عليها يا توم كما يفعل الكبار مع كعكة الزواج.

قام توم بتقسيم الكعكة وأكلت منها بيكي بشهية بينما أكل توم القليل منها، وكان هناك ما يكفي من الماء البارد ليشربا. بعد قليل اقترحت بيكي أن يمشيا مرة أخرى، لكن ظل توم صامتا لبرهة، ثم قال:

- بيكي، أريد أن أقول شيئا فهل تتحملينه؟

امتقع وجه بيكي، ولكنها قالت إنها ستفعل.

- حسن إذن. بيكي، يجب أن نظل هنا حيث يوجد ماء للشرب. هذه القطعة الصغيرة هي أخر ما لدينا من الشمع.

بكت بيكي بحرقة، وبذل توم جهدا كبيرا لتهدئتها ولكن بلا جدوى. رفعت عينيها إليه قائلة:

- توم

- نعم يا بيكي.

– سوف يفتقدوننا وسيأتون للبحث عنا.

– نعم، سيفعلون بالتأكيد.

– وربما كانوا يبحثون عنا الآن.

– ربما كانوا يفعلون، وأملنا فى ذلك.

– متى سيشعرون بغيابنا يا توم؟

– حين يعودون إلى المركب.

– قد يكون الظلام قد حل، فهل سيلاحظون بأننا لم نذهب معهم؟

– لا أعرف، ولكن أمك ستفتقدك عند عودتهم.

(٦)

أعادت نظرة الخوف فى وجه بيكى الإدراك إلى توم، وأيقن بأنه فى ورطة، فبيكى لم تكن ستعود إلى البيت فى تلك الليلة. سكت كلاهما وأخذا فى التفكير، وبعد لحظة انفجرت بيكى فى البكاء، حين تبادر إلى ذهنها أن صباح السبت قد يمر نصفه قبل أن تكتشف السيدة ثاتشر أن بيكى لم تكن لدى السيدة هاربر.

ركّز الاثنان أنظارهما على قطعة الشمع وهى تذوب ببطء، ولم يبقَ منها سوى جذوة اللهب التى كانت تلفظ آخر أنفاسها ويخرج منها شريط الدخان الرفيع الذى يسبق انطفاءها، وبعد أن انطفأت ساد الرعب مع

الظلمة القاتمة، وارتمت بيكى فى أحضان توم وهى تبكى، ثم نام الاثنان نومًا عميقًا، وبعد وقت طويل أفاقا من النوم، وقال توم إنه ربما كان اليوم هو الأحد وربما الاثنين محاولا جذب بيكى إلى الحديث، ولكن أحزانها كانت كبيرة وآمالها قد تحطمت. قال توم ثانية إنهم لابد قد افتقدوهم من وقت طويل وخرجوا للبحث عنهما، وأنه سينادى وقد يسمعه أحد، وصاح بقوة ولكن كان الصدى البعيد مخيفًا فى الظلام فلم يحاول مرة أخرى.

مرت الساعات وأحسا بالجوع مرة أخرى. كان جزءٌ من نصيب توم من الكعكة لا يزال موجوداً فاقتسماه وأكلا، ولكنهما شعرا بالجوع أكثر من ذى قبل، فقال توم:

- هل سمعت ذلك؟

(٧)

حبسا أنفاسهما وأنصتا. كان هناك صوت يشبه النداء يسمع من بعيد. رد توم عليه في التو وهو يمسك بيكى من يدها ويمشيان فى اتجاه الصوت. أنصت مرة أخرى، فسمع الصوت ثانية وكان قريبا هذه المرة، فصاح بفرح:

- إنهم جاءوا. تعالى يا بيكى فنحن بخير الآن.

كانت فرحة السجينين هائلة، لكن سرعتهما كانت بطيئة نظراً لوجود عوائق أمامهما يجب الانتباه لها. وصلا إلى عائق اضطرهما إلى التوقف،

فقد كانت أمامهما حفرة عميقة. رقد توم على الأرض وحاول قياس عمقها، فبدت له وكأن ليس لها قرار. كان لابد أن يبقيا عندها وينتظرا إلى أن يصل الباحثون.

أنصتا ثانية، لكن الصوت تباعد بشدة ثم اختفى كلية. غاص قلب توم فى قدميه، وراح ينادى بأعلى صوته ولكن بلا فائدة.

عاد الاثنان إلى النبع مرة أخرى وانتظرا. مرَّ الوقت ببطء شديد فناما مرة أخرى واستيقظا وهما جائعان. قدر توم أن اليوم لابد أنه الثلاثاء، وطرأت له فكرة، كانت هناك ممرات جانبية بالقرب منهما ووجد أنه من الأفضل استكشاف بعضها عن تحمل الجلوس وانتظار الوقت أن يمر، أخذ حبل سنارة من جيبه وربطه فى صخرة ناتئة وبدأ هو وبيكى السير وكان توم فى المقدمة ممسكا بالخيط. بعد حوالى عشرين خطوة انتهى الممر بمكان للقفز. ارتكز توم على ركبتيه وتحسس المكان بأسفل وحاول أن يمد يديه ما أمكنه إلى اليمين، وعند هذه اللحظة كانت يد إنسان تحمل شمعة قد ظهرت من خلف صخرة أمامه. أطلق توم صيحة مدوية وفى لحظة ظهر جسم رجل، وكان إنجن جو. أصاب الشلل توم فلم يستطع حراكا. فى اللحظة التالية، رأى الإسبانى يهرب من المكان. تعجب توم من أن جو لم يعرف صوته وإلا كان قتله لشهادته عليه، ولكن يبدو أن الصدى قد غيَّر من صوته فلم يعرفه. أصابه الخوف بالرعشة والضعف ولم تكن لديه قدرة على السير والعودة إلى النبع والبقاء هناك. حرص على ألا يقول لبيكى عما رآه، وقال لها إنه كان يصيح فقط لجلب الحظ.

تحامل الاثنان وعادا إلى النبع مرة أخرى، عضَّهما الجوع بنابه، ولم يجدا شيئا يأكلانه، وكان عليهما الانتظار المُمِلّ مرة أخرى. ناما لوقت طويل، ثم أفاقا على جوع جائر. كانا يعتقدان أن اليوم هو الأربعاء أو الخميس، وأن البحث عنهما لابد أنه توقف وبدأ في استكشاف ممر آخر.

أحس توم بأنه يريد مواجهة إنجن جو ولكن بيكي كانت شديدة الضعف وسقطت في سكون حزين منعها من الوقوف. قالت إنها ستنتظر في مكانها فلن يستغرق الأمر طويلا، وعليه أن يذهب هو مع خيط السنارة للاستكشاف إذا أراد، ولكنها سألته أن يعود كل فترة قصيرة ليتحدث معها وجعلته يعدها بأنه عندما تحل اللحظة المحتومة سيظل بجوارها ممسكا بيدها إلى أن ينتهى الأمر.

قام توم بتقبيلها مؤكدا بأنه واثق من أن الرجال الذين يبحثون عنهما سيصلون إليهما، وأخذ خيط السنارة فى يده وذهب من أحد الممرات زاحفا على يديه وركبتيه وقد آلمه الجوع، وأفزعه المصير.



الفصل الثانى والثلاثون

العثور على توم و بيكى

(١)

جاء يوم الثلاثاء وانقضى بظهور الشفق عند الغروب، وبلدة سانت بترسبرج لا تزال تلفها الأحزان. فالمفقودان لم يعثر عليهما بعد. نظمت الصلوات الجماعية من أجلهما والكثير من الصلوات الخاصة، ولكن لم تأتِ أخبار تنبئ بقرب العثور عليهما. تخلى العديد من الباحثين عن المهمة وعادوا إلى حياتهم اليومية وقد أيقنوا أن المفقودين لن يظهر لهما أثر. سقطت السيدة ثاتشر مريضة، وظل سكان البلدة فى حالة ذهول. قال الناس إنها وهى تنادى على ابنتها تمزق قلوبهم. كانت ترفع رأسها لبرهة وتهتف باسم بيكى ثم تضعها بضعف على الوسادة وتبكى. كانت الخالة بولى هى الأخرى فى حالة اضطراب عظيمة وتحول شعرها الرمادى إلى اللون الأبيض، وباتت البلدة ليلة الثلاثاء فى حزن يائس.

عند منتصف الليل، دقت أجراس الكنيسة، وفى لحظة كانت الشوارع تعجّ بالناس وهم يهتفون "لقد وجدوهما، لقد وجدوهما". وانضمت الأبواق

والآلات النحاسية إلى الصخب، وسار الجميع فى اتجاه النهر لمقابلة الطفلين وهما آتيان فى عربة مفتوحة يقودها رجال يهتفون ويجرى حولها آخرون آخذين طريقهم فى اتجاه البيت وعبر الشارع الرئيسى.

أضيئت أنوار القرية كلها ولم يذهب أحد إلى فراشه، فقد كانت أعظم ليلة تشهدها البلدة فى تاريخها، وفى نصف الساعة الأولى، توافدت مجموعات كبيرة من القرويين إلى بيت القاضى ثاتشر، وأمسكوا بالطفلين الناجيين وأشبعوهما تقبيلا وهم يشدون على يد السيدة ثاتشر التى حاولت أن تتكلم ولكنها لم تستطع، وخنقتها الدموع من الفرحة بعودة ابنتها.

(٢)

كانت سعادة الخالة بولى كاملة وكانت سعادة السيدة ثاتشر ستكتمل عندما يذهب الرسول بالنبأ إلى زوجها. استلقى توم على أريكة وهو يقص على الحضور أحداث المغامرة العجيبة، مركِّزا على بعض التفاصيل مثل كيف ترك بيكى وذهب فى مهمة استكشافية، كيف سار فى ممرين حتى النهاية، وكيف سار فى ممر ثالث حتى نهاية الخيط وكان على وشك العودة عندما لمح ضوءًا بعيدا بدا وكأنه ضوء النهار، فأسقط الخيط وسار فى اتجاهه دافعا برأسه وكتفيه عبر فتحة ضيقة حتى رأى نهر المسيسبى، ولو كان ذلك قد حدث ليلا لما تمكن من رؤية ضوء الصباح ولا تمكَّن من استكشاف ذلك الممر. أخبرهم كيف عاد إلى

بيكى وأخبرها بالنبأ السعيد وقالت له لا داعى لخداعها بمثل تلك الأخبار لأنها شديدة التعب وتعرف أنها فى طريقها للموت وأنها تريد ذلك. وصف توم كيف تعب فى إقناعها وكيف أنها فرحت فرحا كبيرا عندما زحفت ورأت بنفسها بصيصا من ضوء النهار، وكيف أخذ طريقه إلى الخارج عبر الفتحة، وكيف ساعدها فى الخروج وكيف جلسا يبكيان من الفرحة وكيف جاء بعض الرجال فى زورق ونادى توم عليهم وأخبرهم عن موقفهما وعن جوعهما، وكيف لم يصدق الرجال قصتهما فى البداية لأنهما كانا على بعد خمسة أميال من الوادى الذى يقع فيه الكهف. ثم أخذوهما على سطح الزورق وساروا بهما إلى أحد البيوت وقدموا لهما العشاء وتركوهما يستريحان لبضع ساعات ثم جاءوا بهما إلى البلدة.

(٣)

قبل حلول الفجر، تم تتبع القاضى ثاتشر ومرافقيه من الباحثين بالكهف وفقًا للإشارات التى تركوها خلفهم وأبلغوهم بالنبأ السعيد. لم يكن من السهل إزالة أثر ثلاثة أيام وثلاث ليال من الإجهاد والجوع بسهولة، ظل توم وبيكى بالفراش طوال يومى الأربعاء والخميس طوال الوقت. قام توم من الفراش يوم الخميس ونزل إلى البلدة يوم الجمعة وتعافى تماما يوم السبت. ولكن بيكى لم تغادر غرفتها حتى يوم الأحد، وعندها بدت كما لو أنها كانت تعانى من مرض عضال.

سمع توم عن مرض هك وذهب لرؤيته يوم الجمعة، ولكن لم يسمح له بالدخول إلى حجرة نوم هك إلا في يوم الأحد، فدخل إليه بعد أن حذروه بألا يذكر شيئا عن مغامرته وألا يتم إثارة المريض بأى شكل، وظلت الأرملة دوجلاس معه حتى تتأكد من ذلك. عرف توم ما حدث عند تل كاردف من البيت وعرف أن جثة الرجل الذى كان يرتدى الأسمال البالية قد تم العثور عليها فى النهر بالقرب من مرسى المركب حيث إنه غرق عندما حاول الهروب.

(٤)

بعد حوالي أسبوعين من إنقاذه، بدأ توم فى زيارة هك ، الذى تعافى وأصبح أقوى، لكى يسمع كلاما مثيراً، وكان لدى توم أيضا ما يثير.

كان بيت القاضى ثاتشر فى طريق توم وحدث أن رأى بيكى، فناداه القاضى وأصدقاؤه. ظل توم يتحدث إليهم، وسأله أحدهم بسخرية عما إذا كان يود الذهاب إلى الكهف مرة أخرى. قال توم إنه لا يخشى ذلك. قال القاضى:

– هناك آخرون مثلك يودون الذهاب يا توم، ولكننا أخذنا احتياطاتنا بالنسبة لهذا الأمر. لا أحد سوف يتوه في ذلك الكهف مرة أخرى.

- كيف؟

- لأننى أمرت بأن يتم تغيير الباب الخارجى بألواح من الحديد وسيتم إغلاقه وسأحتفظ بالمفاتيح معى.

انزعج توم وتغير لونه، فسأله القاضى:

- ما الأمر يا فتى؟ فليسرع أحد بكوب من الماء.

تم إحضار الماء وألقى به على وجه توم. قال القاضى:

- الآن صرت أحسن حالا. ماذا كان بك يا توم؟

- إن إنجن جو فى الكهف!

الفصل الثالث والثلاثون

مصير إنجن جو

(١)

في دقائق قليلة، انتشر الخبر واتجه حوالي إثني عشر رجلا مدربين جيدا إلى كهف ماك دوجلاس. وامتلأ المركب بالمسافرين بعدهم مباشرة. ركب توم سوير في الزورق الذي كان يقل القاضي ثاتشر.

عندما فتح باب الكهف، بدا منظره موحشًا في الضوء الخافت للمكان. كان إنجن جو منبطحا على الأرض، ميتا، ووجهه ملتصق بفتحة الباب كما لو أن عينيه كانتا معلقتين لآخر لحظة بأنوار الدنيا خارج الكهف. تأثر توم لأنه كان يعرف من خبرته الشخصية، عندما كان حبيسا، كم عاني ذلك التعس، ولكنه أحس بالراحة والأمان الآن بدرجة لم يشعر بها من قبل؛ لأن الخوف الذي كان جاثما على صدره منذ أن أدان بشهادته الآثم القاتل قد انزاح.

كان سكّين إنجن جو ملقى بجواره وقد تحطَّم نصله إلى جزأين، وكانت أخشاب الباب قد تحطمت أجزاء منه بفعل عمله المضني لمحاولة

اختراقه والذى كان بلا فائدة لأن الصخرة التى كان الباب مثبتا بها شكلت عائقا أمام محاولاته، فانكسر سكينه حتى ولو لم يكن هناك عائق صخرى لما كانت محاولاته لتنجح، فالفتحة التى كان سيحدثها ستكون غير كافية لكن يخرج منها جسمه الضخم، وكان هو يعرف ذلك، لذا كان كل ما فعله بلا أى فائدة. فى الأحوال العادية كان يمكن للمرء أن يجد نصف دستة من قطع الشمع مثبتة فى الجدران، تركها الزائرون وراءهم، ولكن لم يكن هناك أى منها، فقد جمعها السجين وأكلها، بل إنه حاول الإمساك ببعض الخفافيش وقام بأكلها أيضا ولم يترك سوى مخالبها. لقد جاع المسكين ومات من الجوع.

(٢)

تم دفن إنجن جو بالقرب من فتحة الكهف وذهب الناس إلى هناك فى القوارب والعربات ومعهم أطفالهم ليشهدوا إنجن جو أثناء دفنه، واعترفوا بأنهم قضوا وقتا طيبا عند دفن إنجن جو كما لو أنهم كانوا يشهدون شنقه.

أوقفت عملية الدفن الالتماس الذى قدم للحاكم من عجائز النساء للعفو عنه ولحثه على أن يكون رحيما به، ولكن كان إنجن جو قد قام بقتل خمسة من المواطنين بالبلدة، ولم يكن الحاكم على استعداد لقبول الالتماسات للعفو عنه أو البكاء عليه.

فى صباح اليوم التالى لعملية الدفن، أخذ توم رفيقه هك إلى مكان معزول ليتحدث إليه فى موضوع مهم. كان هك قد عرف كل شىء عن مغامرة توم من ولشمان والأرملة دوجلاس، ولكن توم قرر أنهم لن يقولوا له شيئا عن أمر واحد. قال هك بحزن:

– أعرف ما هو، أنت ذهبت إلى الغرفة رقم اثنين ولم تجد شيئا بها سوى الخمر. لم يقل أحد لى إنك كنت هناك ولكنى خمنت أنه لابد أنك أنت الذى ذهبت هناك. وبمجرد أن عرفت عن موضوع الخمر، خمنت بأنك لم تحصل على المال لأنك كنت عندئذ ستتصل بى بطريقة ما لتقول لى. إن شيئا ما يخبرنى طوال الوقت أننا لن نضع أيدينا على هذا الكنز.

– ولكنى لم أشِ بصاحب الفندق. أنت تعرف أن فندقه كان سليما يوم السبت الذى ذهبت فيه إلى النزهة الخلوية. ألا تتذكر؟ وكان من المفروض أن تراقب المكان تلك الليلة.

– نعم، ولكن ذلك يبدو كما لو كان قد مرَّ عليه عام كامل. لقد كانت هى الليلة التى تتبعت فيها إنجن جو إلى منزل الأرملة.

– هل تتبعته؟

– نعم، ولكن عليك الاحتفاظ بالسر. أعتقد أن إنجن ترك أصدقاء له فى الدنيا ولا أريدهم أن يؤذونى. لولاى لكان فى تكساس الآن.

(٣)

حكى هك مغامرته بالكامل لتوم الذى كان قد سمع الجزء الخاص بولشمان فقط من قبل، فقال هك:

- الذى أخذ الخمر من الغرفة رقم اثنين بالفندق هو من أخذ المال كذلك.

- ولكن المال لم يكن فى الغرفة رقم اثنين أبدا.

- ماذا؟ هل تتبعت المال مرة أخرى؟

- المال بالكهف يا هك.

- قل ذلك مرة أخرى يا توم.

- المال موجود بالكهف.

- هل أنت جاد.. أم تمزح؟

- بل أنا جاد يا هك كما كنت معك دائما. هل تذهب إلى هناك معى وتساعدنى فى الحصول عليه؟

- سأفعل.. سأفعل إذا كنا سنستطيع أن نعرف طريقنا ولا نتوه هناك.

- نستطيع أن نفعل ذلك بدون أى متاعب.

- هذا حسن، وما الذى يجعلك تعتقد أن المال هناك؟

- انتظر حتى نصل إلى هناك، فإذا لم نجده فسأعطيك كل ما أملك فى الدنيا.

– ومتى سنذهب؟

– الآن وفي الحال لو رغبت. هل أنت في كامل قوتك؟

– هل المكان بعيد في عمق الكهف؟ لقد كنت مريضا لثلاثة أو أربعة أيام ولا أستطيع السير طويلا.

– المسافة طويلة، ولكن يوجد طريق مختصر لا يعرفه أحد غيرى. سوف آخذك يا هك إليه مباشرة في زورق. وسوف أجدف بالزورق بنفسى وأعود به ولن تشارك بأى مجهود في ذلك العمل.

– إذن فلنذهب يا توم.

– حسن، نحتاج لبعض الخبز واللحم وإلى غليون لكل منا، وإلى حقيبة صغيرة وخيوط وبعض الثقاب.

(٤)

بعد الظهر بقليل، استعار الصبيان زورقًا صغيرًا من أحد الصيادين وذهبا في الحال، وعندما أصبحا على مقربة من الكهف صاح توم:

– سننزل إلى الشاطئ هنا.

نزل الفتيان إلى الشاطئ وقال توم:

– الآن يا هك، من المكان الذى نقف فيه تستطيع أن ترى الفتحة التى خرجت منها. حاول أن تجدها.

بحث هك فى المكان بكامله ولكنه لم يجد شيئا. سار توم فخورا إلى بقعة كثيفة الشجيرات وقال:

- ها هى الفتحة. انظر إليها.. إنها أكثر الفتحات اختفاءً فى المكان بكامله. يجب أن تحافظ على سرية مكانها. كنت دائما أتمنى أن أصبح لصًا، ولكنى كنت أعرف أننى يجب أن يكون عندى شىء مثل ذلك وكانت المشكلة أين أجده. الآن أصبح لدينا المكان وسوف نحتفظ به سرًا ولن نسمح إلا لكل من جو هاربر وبن روجرز بمعرفته، لأنه لابد من تكوين عصابة وإلا لن يكون الأمر كاملا. سيكون اسمها عصابة توم سوير. الاسم رائع، أليس كذلك يا هك؟

- نعم يا توم. ومن الذى سنقوم بسرقته؟

- الناس العاديين فى الطريق.

- ونقتلهم؟

- لا، ليس دائما، نخفيهم فى الكهف حتى نحصل على فدية.

- وما الفدية؟

- نقود. أنت تجعلهم يجمعون من المال ما يستطيعون عن طريق أصدقائهم وبعد أن نحتفظ بهم لمدة هنا، نقتلهم إذا لم يدفعوا الفدية. هذا هو الأسلوب الشائع. لكن لن نقتل النساء، بل سنحبسهم فقط. فالنساء دائما ما يكنَّ جميلات وثريات وشديدات الخوف.

أنت تأخذ ساعاتهن ومجوهراتهن، ولكن عليك دائما أن تكون مؤدبًا معهن. لا أحد يفوق اللصوص أدبا ويمكنك قراءة ذلك في أي كتاب. سوف تقع النساء في غرامك وبعد أن يبقين في الكهف لأسبوع أو أسبوعين يتوقفن عن البكاء ولا تستطيع بعدها أن تجبرهن على الذهاب، وإذا أنت أجبرتهن على الذهاب فإنهن يعدن مرة أخرى من تلقاء أنفسهن. الأمر كذلك في كل الكتب.

- نعم يا توم، ولكني أفضل أن أكون قرصانا.

- قد يكون أفضل من نواح معينة لأنه يجعلك قريبًا من البيت والأسواق وغيرها.

(٥)

كان كل شيء مُعَدًا، فدخل الصبيان من الفتحة وكان توم في المقدمة. شقا طريقهما بصعوبة إلى النهاية البعيدة للممر ثم قاما بتثبيت الخيط وبدآ في السير، بعد عدة خطوات وصلا إلى النبع وأحس توم بالقشعريرة، وقام بلفت نظر هك إلى الشمعة المثبتة في الجدار ووصف له كيف أنه هو وبيكي كانا يراقبان شعلتها وهي تنطفئ.

بدأ الصبيان يتكلمان همسًا بتأثير السكون ووحشة المكان، مما أثر على معنوياتهما. استمرا في السير في اتجاه الدهليز الآخر إلى أن

وصلا إلى مكان القفز حيث أظهرت الشموع أنه لم تكن فى الواقع سوى تل حاد من الطين ارتفاعه عشرين قدما.

همس توم:

- الآن سأريك شيئا يا هك.

ورفع الشمعة لأعلى قائلا:

- انظر إلى أبعد ركن بقدر ما يمكنك. أترى ما هو مرسوم بدخان الشموع على الصخرة الضخمة؟

- توم! إنه صليب.

- أين رقم اثنين؟ إنه تحت الصليب، وهو المكان الذى رأيت فيه إنجن جو يطفئ شمعته.

حملق هك فى العلامة الغامضة لفترة وقال بعدها بصوت مرتعش:

- توم، دعنا نخرج من هنا.

- ونترك الكنز؟

- نعم، نتركه، إن شبح إنجن جو يحوم حول المكان بالتأكيد.

- لا يا هك.. إنه حول المكان الذى مات فيه، والذى يبعد عن هنا ويقع عند فتحة الكهف.

- لا يا توم. إنه سيحوّم حول النقود. أنا أعرف أساليب الأشباح وأنت أيضا.

بدأ توم يخشى أن يكون هك مصيبا وتزاحمت فى عقله المخاوف، ولكنه بعد قليل طرأت له فكرة، فصاح:

- انظر يا هك.إننا نجعل من أنفسنا مغفلين، إن شبح إنجن جو لن يأتى فى مكان يوجد به صليب.

كانت هذه الملاحظة كافية لإقناع هك، وقال:

- لم أفكر فى ذلك يا توم.. إنه من حظنا وجود هذا الصليب. أعتقد أن بإمكاننا التسلق والإتيان بالصندوق.

(٦)

ذهب توم أولا وهبط التل الطينى ثم تبعه هك، كانت هناك أربعة ممرات تفتح على المغارة التى توجد بها الصخرة الضخمة. اختبر الفتيان ثلاث منها بدون نتيجة، وفى الممر الرابع القريب من قاعدة الصخرة، وجدا ملاءة مفروشة على الأرض وبعض لحم الخنزير وعظام دجاج، ولكنهما لم يجدا أى صندوق. بحث الفتيان عنه مرات ومرات بلا جدوى.

فصاح توم:

- لقد قال "تحت الصليب". وهنا أقرب مكان لذلك. لا يمكن أن يكون الصندوق موجوداً تحت الصخرة لأنها توجد فوق الأرض تماماً.

بحثا في كل مكان مرات أخرى ثم جلسا متجاورين وقد أصابهما اليأس. أخيرا قال توم:

- انظر يا هك، توجد آثار أقدام وبعض بقايا الشمع على الطين الموجود على أحد جوانب الصخرة وليس على الجانب الآخر، فلماذا؟ أراهن أن النقود موجودة أسفل الصخرة. سأحفر في الطين.

- فكرة صائبة يا توم.

أخرج توم سكينه من جيبه ولم يكد يحفر لثلاث بوصات حتى اصطدم السكين بالخشب. فقال متهللا:

- هل سمعت ذلك يا هك؟

بدأ هك في الحفر معه حيث وجدا بعض الألواح الخشبية وأزالاها حيث كانت تخفى نفقًا طبيعيا يقود إلى تحت الصخرة. دخل توم إلى النفق بالشمعة في يده ولكنه لم يستطع رؤية نهاية النفق. قرر أن يستكشف النفق، فانحنى ودخل تحت الصخرة. كان الطريق يميل بانحدار متدرج إلى أسفل، فتتبع توم مساره. سار إلى اليمين أولا ثم إلى اليسار وهك خلفه. انتهى توم من منحنى قصير وقال بدهشة:

- يا إلهي، انظر يا هك!

كان صندوق الكنز قابعًا هناك داخل مغارة صغيرة ومعه بندقيتان في حافظتيهما الجلديتين وبعض الأشياء الأخرى، فصاح هك بفرحة:

– أخيراً وجدناه. قال ذلك وهو يلعب بالنقود اللامعة بالصندوق. نحن أغنياء يا توم.

– كنت أعرف أننا سنحصل عليه. إننى لا أكاد أصدق، ولكننا حصلنا عليه. فلنقم بإخراجه من هنا. فلنرَ إذا ما كنت أستطيع أن أحمله.

(٧)

كان الصندوق يزن حوالى خمسين رطلا. ولم يكن بإمكان توم أن يرفعه أو يستطيع حمله، فقال:

– لقد خمنت ذلك، لقد كان واضحا أنه ثقيل منذ أن رأيتهما يحملانه من البيت المسكون لذلك أحضرت تلك الأكياس الصغيرة معى، ثم أخرج بعض أكياس من القماش كانت بين ملابسه.

تم وضع النقود فى الأكياس وحمل الصبيان الأكياس إلى صخرة الصليب، وقال هك:

– الآن علينا أن نأخذ البنادق والأشياء الأخرى.

– لا يا هك، اتركها هنا.. إننا سنحتاج إليها عندما نصبح لصوصاً. سوف نبقيها هنا طوال الوقت لأننا سنحتفظ فى هذا المكان بالنساء.

– أي نساء؟

– لا أعرف ولكن اللصوص لديهم نساء دائما ونحن بالتالي يجب أن يكون لنا نساء. لقد ظللنا هنا لوقت طويل يا هك وقد تأخرنا وأشعر بالجوع أيضا. سنأكل وندخن عندما نذهب للزورق.

بعد قليل خرجا من الفتحة التي دخلوا منها ووجدا الشاطئ خاليا، فجلسا في القارب يأكلان ويدخنان، وعندما مالت الشمس في الأفق، دفعا بالقارب إلى داخل النهر في طريقهما إلى البلدة. وكان توم ينظر إلى الشاطئ على طول الطريق وهو يتبادل الحديث الضاحك مع هك، وأخيرا وصلا إلى البلدة وكان الليل قد حل. قال توم:

– سنخفي المال في الكوخ الخشبي الخاص بالأرملة وسآتي في الصباح لكي نقوم بعدّه واقتسامه، ثم نبحث عن مكان آمن في الغابة لكي نخفيه فيه. كل ما عليك هو البقاء هادئا ومراقبة النقود إلى أن أعود بالعربة الصغيرة الخاصة بالصبي بن تايلور ولن أتغيب كثيراً.

اختفى توم لدقائق وعاد بالعربة حيث وضع الكيسين المليئين بالنقود عليها وغطاهما ببعض الخرق القديمة وقام بسحب العربة خلفه. عندما بدأ التحرك ظهر ولشمان أمامها وهو يصيح:

– من هناك؟

– هك وتوم سوير.

– حسن، تقدما أيها الفتيان، فأنتما تجعلان الجميع في حالة انتظار. أسرعا وسأسحب العربة لكما. العربة ليست خفيفة كما يجب أن تكون، فهل وضعتما بها قوالب طوب؟ أم ماذا؟

– إن بها خردة قديمة. أجابه توم.

– هذا ما توقعته، فالصبية هنا كثيراً ما يتعبون لجمع بعض الحديد القديم وبيعه، ويفضلون ذلك عن بذل الجهد في عمل منتظم يدر عليهم نقوداً أكثر، ولكن هذه هي الطبيعة الإنسانية.. أسرعا.. أسرعا.

سأله الصبيان لماذا العجلة والسرعة .. فردّ قائلا:

– ستعرفان عندما نصل إلى بيت الأرملة دوجلاس.

قال هك بخوف:

– لم نفعل شيئا يا سيد جونز.

ضحك ولشمان قائلا:

– لا أعرف يا هك. ألست أنت والأرملة دوجلاس أصدقاء؟

– نعم، هي صديقة حميمة لي.

– فماالذي تخشاه إذن؟

لم تكن هناك أجابة على السؤال في عقل هك البطيء، وبعد لحظات كان هو وتوم في بيت الأرملة دوجلاس. ترك السيد جونز العربة بالقرب من الباب وتبعهما.

كان المكان مضاءً بروعة أخَّاذة، وكل وجهاء البلدة حاضرون. كان آل ثاتشر حاضرين وكذلك آل هاربر والخالة بولى وسيدنى ومارى والقس والكثير من أثرياء البلدة، وكانوا يرتدون أفضل ما عندهم من ثياب. استقبلت الأرملة الصبيين بترحاب شديد رغم أن ثيابهما كانت ملطخة بالأوحال وبقايا الشموع. احمر وجه الخالة بولى حين رأت توم بمنظره المزرى وتغيرت ملامحها، وأخيرا قال السيد جونز:

– لم يكن توم بالبيت ولكنى قابلته مصادفة هو وهك بالقرب من باب بيتى فأحضرتهما إلى هنا.

– ولقد فعلت الأمر الصواب، تعالا معى، قالت الأرملة دوجلاس ذلك لهما، وأخذتهما إلى الحمام وهى تقول:

– اغتسلا أولا، وسآتى لكما بملابس جديدة، وقمصان وجوارب، وكل شيء. لقد اشترى السيد جونز ملابس لواحد منكما وأنا اشتريت للآخر. ارتديا هذه الملابس وسننتظر إلى أن تحضرا، ثم تركت لهما المكان.

الفصل الرابع والثلاثون

شلاّلات من الذهب

(١)

في الغرفة العلوية قال هك: نستطيع أن ننزلق لأسفل ونخرج لو أمكننا الحصول على حبل يا توم.

– ولماذا تريد أن تنزلق لأسفل؟

– أنا غير معتاد على هذا الزحام ولا أطيقه. لن أذهب إلى هذا الحشد.

– هذا ليس بالأمر الصعب ولا أعيره اهتماما. ولسوف أهتم بك.

دخل سيدني إلى الغرفة وقال:

– خالتك تنتظرك يا توم، وقد أعدت مارس لك ملابس الأحد وكل فرد هنا مهتم بك.

– وفيم كل هذه الضجة بأسفل؟

- إنها إحدى حفلات الأرملة التي اعتادت على إقامتها دائما. هذه المرة خصصت هذا الحفل لولشمان وأولاده لما فعلوه لها الليلة الماضية، وأستطيع أن أقول لك شيئًا إذا رغبت.

- ماذا؟

- السيد جونز سيحاول إذاعة شيء ما للجميع هذه الليلة، ولكني سمعته يقول لخالتي عن ذلك الأمر اليوم. إنه سر، ولكني أعتقد أنه لم يعد كذلك الآن. كل فرد أصبح يعرفه وكذلك الأرملة. أصر السيد جونز على وجود هك هنا، فلم يكن باستطاعته البوح بالسر ما لم يكن هك موجودا.

- أي سر يا سيدني؟

- لقد تتبع هك اللصوص إلى بيت الأرملة. كان السيد جونز سيلقي بمفاجأة كبيرة عندما يفصح عن السر ولكن الأمر أصبح معروفًا.

- سيدني، أكنت أنت من أفشى السر؟

- لا عليك بمن قال. لقد كان شخصًا ما، وهذا يكفي.

- سيدني، هناك شخص واحد في هذه البلدة خبيث لدرجة تسمح له بفعل ذلك، هو أنت. لو كنت في مكان هك وشاهدت اللصوص لتسللت بعيدا ولما قلت لأحد عنهما. أنت لا تقدر على أي شيء سوى فعل أخبث الأمور، ولا تستطيع أن ترى الناس يمدحون أحدًا دون أن تصيبك الغيرة.

اندفع بعدها توم وأمسك برقبة سيدنى وجره إلى الباب وهو يركله قائلا: "الآن اذهب وقل لخالتى لو كانت لديك الشجاعة وسوف أحاسبك فى الصباح لو فعلت ذلك".

(٢)

اجتمع ضيوف الأرملة حول مائدة العشاء وكان معهم حوالى دستة أطفال جلسوا حول مائدة صغيرة في جانب من الغرفة. في الوقت المناسب قام السيد جونز بإلقاء خطبة قصيرة شكر فيها الأرملة على تكريمه وأولاده، وتحدث مفصحا عن سر الدور الذى لعبه هك في تلك المغامرة، ولكن المفاجأة لم يكن لها الأثر الذى كان يتوقعه على الحضور، وإن كانت الأرملة قد أظهرت قدراً مناسبًا من الدهشة وأثنت بالعديد من كلمات الشكر والعرفان على هك لدرجة أنسته عدم ارتياحه للثياب الجديدة التى يرتديها، وعدم ارتياحه لكونه هدفا لنظرات كل الحاضرين.

قالت الأرملة إنها قررت أن تمنح هك مكانا للإقامة فيه تحت سقف بيتها، وإنها ستتولى مسئولية تعليمه وستجعله يبدأ في عمل خاص به. جاءت فرصة توم فقال:

- هك لا يحتاج مالا، فهو غنى.

انفجر الجمع الحاضر بالضحك على هذه النكتة، ثم ساد صمت ثقيل.. فقطعه توم بقوله:

- هك يملك المال. قد لا تصدقون ذلك، ولكنه يمـــلك الكثير منه.
أنتم تبتسمون ولكنى أستطيع أن أجعلكم ترون ذلك . عليكم الانتظار لحظات.

(٣)

جرى توم خارجا من باب الغرفة، ونظر الحاضرون لبعضهم بدهشة، وقالت الخالة بولى:

- سيدنى، ما الذى أصاب توم؟

دخل توم حاملا أكياس النقود الثقيلة وقام بإفراغ محتوياتها من العملة الذهبية على المنضدة، قائلا:

- ألم أقل لكم؟ نصف هذا المال لى والنصف الآخر لهك.

صعق الجميع من المفاجأة ونظروا إلى المال ولم ينطق أحد بكلمة. كان تفسير هذا الأمر مطلبا عاجلا، فصاح توم أن باستطاعته تفسير ذلك وحكى لهم كيف حصلوا عليه. كانت القصة طويلة ولكنها شديدة الإثارة. وعندما انتهى قال السيد جونز:

- كنت أعتقد أننى أدّخر مفاجأة لهذه المناسبة ولكنها ليست بذات قيمة الآن. فهذه المفاجأة أكبر وأعظم منها. ثم عد النقود التى بلغت أكثر من اثنى عشر ألف دولار، وهى أكثر من أى كمية نقود رآها أحد.

الفصل الخامس والثلاثون

هك المحترم ينضمّ للعصابة

(١)

للقارئ أن يثق فى أن الحظ غير المنتظر لكل من توم وهك قد أحدث إثارة كبرى في البلدة الفقيرة سانت بترسبرج. بدا الكم الهائل من المال محيرًا لهم وغير معقول، كان توم وهك أينما ظهرا يقابلان بالحفاوة والإعجاب، ولا يذكر الصبيان أن كلامهما كان ذا قيمة قبل ذلك ولكنه الآن ينصت إليه الناس ويرددونه. كان كل ما يفعلانه يبدو للناس شائقًا ومهمًا، وبدا أنهما قد فقدا القدرة على عمل أشياء عادية، والأدهى من ذلك أن تاريخهما السابق قد أعيد النظر فيه واكتشف الناس أنه كان يحمل علامات واضحة للعبقرية، ونشرت صحيفة البلدة تاريخًا لحياة الصبيين.

وضعت الأرملة دوجلاس نقود هك في البنك وفعل القاضي ثاتشر الشيء نفسه بنقود توم وفقًا لطلب الخالة بولى، وأصبح لكل منهما دخل

محترم الآن: دولارا عن كل يوم عمل، ونصف دولار لكل يوم أحد، وهو يعادل ما يتقاضاه القس أو بالأحرى ما كان يجب أن يتقاضاه ولم يحصل عليه كاملا أبدا.

(٢)

كان رأى القاضى ثاتشر فى توم عظيما حيث قال:

إنه كان من المستحيل على صبىّ عادى أن يخرج ابنته من الكهف. وعندما قالت بيكى لأبيها كيف أن توم تطوّع بأخذ العقاب بدلا منها فى المدرسة تأثر القاضى بشدة وقال لها إن ذلك كان نبلا وكذبة كريمة تستحق أن ترفع رأسها وتدخل التاريخ، فذهبت بيكى مباشرة إلى توم وقالت له ذلك.

كان القاضى ثاتشر يأمل فى أن يرى توم محاميا عظيما أو ضابطا فى أحد الأيام، وقال إنه سوف يعمل على أن يتم قبول توم فى الأكاديمية الحربية ثم يتدرب بعد ذلك فى أفضل مدرسة للحقوق بالبلاد لكى يكون مؤهلا لأى من المهنتين أو لكلتيهما.

أما هك فقد أصبح تحت حماية الأرملة دوجلاس التى قدمته إلى المجتمع بشكل جديد، لكنه لم يطق ذلك، بل صارت معاناته أكبر مما يستطيع أن يحتمل، فقد حافظ خدم الأرملة على نظافته وهندامه وصففوا شعره وكانوا يضعوه كل ليلة فى الفراش بين ملاءات نظيفة،

وأرغموه على أن يأكل بالشوكة والسكين، وأن يستعمل المناديل والأكواب والأطباق، وكان عليه أن يتعلم من الكتاب وأن يذهب للكنيسة وأن يتكلم بلياقة، وأينما ذهب كان يحس أن هناك سلاسل تقيده وكان يكره كل تلك القيود ويشتاق للحرية.

(٣)

تحمَّل بشجاعة تلك المنغّصات لثلاثة أسابيع وفجأة اختفى لمدة يومين. بحثت عنه الأرملة في كل مكان ولم تجده. كان الجميع مهتمًا بالأمر وبحثوا عنه حتى إنهم بحثوا في النهر عن جثته.

في اليوم الثالث توجه توم سوير إلى بعض البراميل الفارغة خلف مجزر البلدة فوجده في إحداها. كان ينام في برميل من هذه البراميل، وكان قد فرغ لتوه من إفطاره ببعض الحلوى التي سرقها من متجر في طريقه، ويرقد مرتاحًا داخل البرميل وقد أشعل غليونه. كان سيئ المظهر ويرتدي الأسمال التي كان يرتديها من قبل عندما كان حرا وسعيدا. أخرجه توم من البرميل وأخبره عن المشكلات التي تسبب فيها وألح عليه أن يعود للأرملة. اضطرب هك وفقد وجهه علامات الارتياح والرضا، وصاح بضيق:

- لا تتحدث عن ذلك يا توم. لقد جربت الحياة هناك ولم أنجح فهذا الطراز من الحياة لا يناسبني لأنني لم أعتده، لا شك أن الأرملة طيبة معي وعطوفة، ولكني لا أطيق طريقتهم في الحياة.

إنها تجعلني أستيقظ كل يوم في الميعاد نفسه وأغتسل وأمشط شعري، ولا تقبل أن أنام في الكوخ، ويرغمونني على ارتداء الملابس التي لا تريحني، فهي لا تسمح للهواء بأن يدخل إلى جسمي، ولا أن أجلس أو أرقد أو أتقلب، كما أنني لم أعش في بيت له سقف لسنين طويلة. إنهم يجبرونني على الذهاب إلى الكنيسة، وعلى أن أقسم وأقسم، وأنا أكره مواعظهم يا توم، إن عليَّ أن ألبس حذاء طوال يوم الأحد. إن الأرملة تأكل بالجرس، وتنام بالجرس، وتستيقظ بالجرس، وكل شيء منظم بطريقة لا يستطيع المرء أن يتحملها.

- الجميع يفعل ذلك يا هك.

- أنا لست كالجميع، لا أطيق ذلك، فمن الصعب أن أكون مقيداً على هذا النحو. الطعام يأتي بسهولة، وأنا غير معتاد على ذلك. لا بد من الاستئذان منها قبل الذهاب لصيد السمك أو للسباحة ولا يسمح لي بذلك. عليَّ أن أستأذن لفعل أي شيء. عليَّ أن أتحدث بلطف وهذا غير مريح لي. كنت أصعد للطابق العلوي لفترة قصيرة كل يوم لكي أخلو بنفسي قليلا ولولا ذلك لكنت مت، الأرملة لا تدعني أدخن أو ألهو أو أتمدَّد أمام الناس، ثم إنها تصلي طول الوقت. لم أر في حياتي امرأة مثلها. كان عليَّ أن أهرب يا توم، ثم إن المدرسة ستفتح أبوابها ويتعين عليَّ أن ألتحق بها، ولن أتحمل ذلك. انظر يا توم، أن تكون ثريا فهذا طيب،

لكن ليس كما كنت أتصور، إنه مجرد قلق وإزعاج وأشياء تكرهها.. لا يا توم لن أعود. إن هذه الملابس تناسبنى وهذا البرميل يناسبنى ولن أتركها أبدا بعد ذلك. لم أكن لأتحمل كل تلك المتاعب لولا النقود، خذ إذن نصيبى منها مع نصيبك وامنحنى عشر سنتات فقط وليس أكثر، فإننى لا أهتم، واذهب إلى الأرملة لتستأذن لى فى الرحيل عن بيتها.

– ولكنك تعرف أننى لا أستطيع أن أقوم بذلك يا هك. فهذا ليس عدلا وأنت لو اعتدت على الأمر لفترة أطول فلسوف تحبه.

قال هك بسخرية مريرة:

– أحبه! كما سأحب الموقد المشتعل إذا جلست فوقه لفترة أطول. لا يا توم لن أكون ثريا ولن أعيش فى بيت أحد. أنا أحب الأحراش والنهر والبراميل وسأظل على ذلك. نحن نملك بنادق وكهفًا، وكل شىء مهيًأ لكى نصبح لصوصًا، ثم يأتى هذا الغباء ويدمر كل شىء.

قال توم مقاطعا:

– كونى أصبحتُ ثريا لن يمنعنى من أن أكون لصًا.

– هل أنت جاد يا توم؟

– نعم يا هك ولن نسمح لك بالانضمام إلى العصابة إذا لم تكن محترما.

ضاعت الفرحة من وجه هك وقال:

– لن تسمح لي بالانضمام يا توم؟ ألم تسمح لي بأن أصبح قرصانًا؟

– نعم، ولكن الأمر الآن مختلف. اللص أكثر شهرة من القرصان بصفة عامة. في معظم البلدان يكون اللص في مرتبة عالية بين الطبقة الأرستقراطية، كأن يكون دوقًا أو ما شابه.

– ولكنك يا توم كنت دائما صديقي ولن تمنعني من الانضمام للعصابة، أليس كذلك؟ لن تفعل ذلك بالتأكيد.

– لا طبعا يا هك، ولكن ما الذي سيقوله الناس؟ سيقولون إن عصابة توم سوير تضم حثالة، وستكون أنت المقصود بذلك يا هك، ولن تحبه، ولن أحبه أنا أيضا.

صمت هك لبرهة ثم قال:

– إذن سأذهب مرة أخرى إلى الأرملة لمدة شهر وأحاول أن أتحمل، إذا سمحت لي بالانضمام إلى العصابة.

– اتفقنا يا هك. تعال وسأسأل الأرملة أن تخفف القيود عليك قليلا.

– هل ستفعل ذلك يا توم؟ سيكون أمرا طيبًا لو أنها خففت الأمور الصعبة. سأدخن سرا إذن. متى ستبدأ في تكوين العصابة وممارسة اللصوصية؟

- في الحال. سنجمع الفتية معا ونبدأ العملية الأولى هذه الليلة.

- وما هي العملية الأولى؟

- أن نجتمع ونقسم على أن نقف بجانب بعضنا البعض وبعدم البوح بأسرار العصابة حتى لو تمزقنا إربا، وبأن نقتل الشخص الذي يؤذي العصابة وعائلته بأكملها.

- هذا بديع يا توم.

- وسوف يتم القسم عند منتصف الليل وفي أحد البيوت المسكونة.

صاح ووجهه يتهلل من الفرحة:

- إلى منتصف الليل إذن يا توم.. سأظل مع الأرملة إلى أن أموت، وإذا ما أصبحت واحدا من اللصوص.



خـــاتمة

وهكذا ينتهى ذلك التاريخ الذى كان لصبى حيث يجب أن يتوقف هنا، فلا يمكن للقصة أن تستمر لأبعد من هذا دون أن تصبح تاريخًا لرجل. عندما يكتب المرء قصة خاصة بالكبار فهو يعرف تماما متى وأين يتوقف، ولكنه عندما يكتب عن الشباب الصغير فيجب عليه أن يتوقف عند أفضل وقت يستطيع اختياره.

معظم الشخصيات التى ظهرت فى هذا الكتاب لا تزال تعيش فى رفاهية وسعادة، وفى يوم ما قد يكون من المجدى قراءة القصة الخاصة بهم وهم صغار لكى نرى أى طراز من الرجال والنساء قد أصبحوا وأصبحن، وبالتالى فمن الحكمة عدم الكشف عن أى جزء من حياتهم حاليًا.

(المؤلف)

المؤلف فى سطور

صامويل بانج هورن كليمنس (مارك توين)

ولد صامويل بانج هورن كليمنس الذى اشتهر باسم "مارك توين" عام ١٨٣٥ ، ويعد من أشهر الكتاب الأمريكيين . استمد شهرته من كتبه العظيمة عن نهر المسيسيبى، ومنها: "مغامرات توم سوير" التى كتبها عام ١٨٧٦ ، و "مغامرات هكلبرى فِنْ" عام ١٨٨٣ وهما من أدب الأطفال ، بالإضافة إلى كتاب "بادن هيد ويلسون" الذى كتبه عام ١٨٩٤ ، حيث تعكس هذه الكتب بصدق طبيعة الحياة فى الجنوب الأمريكى وتمتلئ بالسخرية اللاذعة . ومن كتبه الأخرى "الحياة على ضفاف المسيسيبى" عام ١٨٨٣ ، والذى يحكى فيه مغامراته كقائد لقارب نهرى .

ويعتبر مارك توين واحداً من أشهر الروائيين الأمريكيين، إن لم يكن أكثرهم شهرة على الإطلاق ، وقد ساعد حضوره الطاغى فى كتاباته ، والعلاقة التى أقامها مع قرّائه فى جعل أعماله الأكثر قراءة ، وقد توفى عام ١٩١٩ .

المترجم فى سطور

محمد قدرى عمارة

* من مواليد مدينة طنطا عام ١٩٤٧ .

* أمضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية بمدينة طنطا ، ثم التحق بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣ ، وحصل على بكالوريوس العلوم الزراعية عام ١٩٦٧ بدرجة ممتاز وعُيِّن معيداً بقسم الوراثة والچينات بالكلية .

* سافر إلى إنجلترا فى بعثة للحصول على درجة الدكتوراه ، وحصل على الدكتوراه فى علم الوراثة والچينات من جامعة ويلز عام ١٩٧٧ .

* بعد حصوله على الدكتوراه عُيِّن مدرساً بقسم الوارثة بكلية الزراعة جامعة أسيوط ، ثم أستاذاً مساعداً .. وهو الآن رئيسٌ لقسم الوراثة بالكلية .

* ترجم العديد من الأعمال من الإنجليزية إلى العربية منها :

- انتصار السعادة: برتراند رسل.
- الدور الجنسى للمرأة والرجل: أيفلين أشتون جونز.

- المختارات من أعمال تشيكوف: أنطون تشيكوف.
- مغامرات بينوكيو: كارلو كولودى.
- نقد المسرح الإنجليزى: ستيفن هيوز.
- أفضل ما كتب رسل: برتراند رسل.
- عبادة الإنسان الحر: برتراند رسل.
- ما وراء المعنى والحقيقة: برتراند رسل.
- الإنسان والإنسان الأعلى: جورج برنارد شو.

كما قام بترجمة العديد من المقالات والقصص القصيرة التى نشرت فى المجلات المختلفة .

المراجع فى سطور

إلهامى جلال عمارة

- من مواليد محافظ الغربية .
- حصل على بكالوريوس التجارة فى جامعة الإسكندرية، وعلى زمالة جمعية المحاسبين والمراجعين بأدمنتون بكندا، وعمل محاضراً فى جامعة ألبرتا لعدة سنوات تفرغ بعدها للكتابة الأدبية.
- عضو اتحاد كتاب مصر واتحاد الكتاب العرب، وصدرت له العديد من الروايات والمسرحيات والمجموعات القصصية والدراسات الأدبية والنقدية.
- عضو نقابة المهن السينمائية، شعبة السيناريو، وكتب العديد من الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية.

التصحيح اللغوى : نجـاة عـــلى

الإشـراف الفنى : حسن كــامـل